مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

مجالس العلم في حرم المسجد

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

إسلاميات

مكتبة المسلم العصرية



مجالس العلم في حرم المسجد

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

سلسلة

مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

•

سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه

○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر

بأسلوب ميسر يفهمه العامة ،
ويسعد به الخاصة

•

مراجعة هيئة كبار علماء

الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

•

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكرى
روكسى مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٨٢٦٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أخرج الأستاذ الدكتور حسين مؤنس كتابه الرائع (المساجد) ، وقد قام فيه — كما قال — برحلة فى عالم الإيمان والجمال ، وكانت الرحلة رائعة حقاً ، إذ كشفت من معانى التذوق والفن والجلال والحسن ما لا مزيد بعده ، وقد رزق إلهام الشاعر فى مواقف كثيرة فنفح بيانه بعبير طيب ساطع تجده فى مثل قوله الصادق ص ٣١ :

« المساجد أجمل ما تقع عليه عين الإنسان فى عالم الإسلام ، فسواء أكنت فى قرية صغيرة خافية فى بطن الريف ، أو مستكنة خلف كثبان الرمال فى الصحراء ، أو راقدة فى لحف جبل ، أو كنت فى عاصمة كبيرة مترامية الأرجاء ، متدفقة الحركة ، عامرة بالعمائر السامقة ، فإن المساجد بمآذنها الدقيقة المنسرحة الذاهبة فى الجو ، مشيرة إلى السماء ، وبقبابها الأنيقة ، تضيف إلى المنظر عنصراً من الجلال والجمال الروحى لا يتأتى له بدونها ، فهى تزيل الوحشة عن تواضع مبانى القرية وصغرها ، وتنفى الجمود عن غرور مبانى العواصم ، وتضفى على مقطع الأفق فى القرية والمدينة توازناً يروع النفس ، ولمسة من جمال روحى هادئ رقيق ، ويتجلى لك ذلك فى أصفى صورة ساعة المغيب ، عندما يختفى حاجب الشمس وراء الأفق مخلفاً فى السماء وهجاً أحمر برتقالياً يشوبه شىء من بنفسج ، وبينما تتحول صور المبانى إلى كتل سوداء متراصة ، كأنها أشباح ، تبدو لك المساجد بمآذنها وقبابها ظلالا جميلة تضفى على الشفق الدامى من ورائها جمالا يحس به قلبك أكثر مما تراه عيناك ، وفى لحظة وقبل أن يهبط رداء الليل ، يخيل إليك أن كل ما يتراءى عند مقطع الأفق قد تلاشى ولم تبق إلا المساجد ، ولأمر ما تحس أنها يقظى ، بينما كل

ما حولها قد رقد بين أحضان الليل ، كأنها ملائكة حارسة لا تبرح مكانها ، رمزاً للأمل ، فى رحمة الله للهالكين من أهل الأرض » .

وصدق الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، فإن المساجد رمز للأمل فى رحمة الله وقد أرّخ لها تاريخاً فنياً فى كتابه الرائع ، فتحدث عن مناحى الجمال فى البنـاء والتنسيق والزخرفة وكل ما يتعلق بالفن المعمارى الأصيل .

وقد أوحى لى هذا الكتاب أن أكتب عن ناحية أخرى من رسالة المساجد ، تحتاج إلى توضيح ، لأن دور المساجد فى التربية الإسلامية والثقافة العلمية دور باهر الشعاع ، وقد أشارت إليه كتب التاريخ والحضارة إشارات شتى ، تتطلب من يحيط بها قدر المستطاع ليخرج منها شيئاً متصلا يصور حقيقة هذا الدور الرائع لأن المسجد فى لبابه مدرسة الإسلام ، كما هو موضع الصلاة والابتهال ، وما كانت المساجد شرقاً وغرباً إلا معاهد علم ومجالس شرح وتفسير .

ولم أشأ أن يكون كتابى مثقلا بالمادة العلمية فى منطق صارم التعبير ، جاف الحقائق ، ولكنى آثرت أن أقدم صفحات سهلة تفيد المثقف والمتخصص معاً ، حيث أخص بعض المساجد الشهيرة بتاريخ علمى يسير ، ثم أختار لكل مسجد علماً من أساتذته أشير إلى بعض مآثره ، لأن المكان بأصحابه والدرس بأستاذه ، متعرضاً للسمات البارزة فى المعهد الدينى بالمسجد وعظاً وقصة وخطابة ، ومتحدثاً عنها جهد الطاقة كما كانت وكما ينبغى أن تكون ، والموضوع متسع فسيح لمن يريد أن يكتب كما يشاء ، ولكنى كتبت شيئاً وتركت أشياء ، خاضعاً لظرفى الزمان والمكان ، وقد أعود ثانية إلى الموضوع إذا شاء الله وواتت الظروف .

وقد رأيت أن يكون إهداء كتابى إلى روح والدى الكريم ، ومن الوفاء أن أخصه بحديث صادق فى مطلع هذا الكتاب ، إذ كان رجل المسجد حقاً كما يعرفه ذووه ، وقد انتقل إلى رحمة الله ، وأنا أكتب الصفحات الأولى فى هذا المؤلف ، فكانت روحه معى فى كل سطر من السطور ، رضى الله عنه وأرضاه .

د. محمد رجب البيومى

رجل المسجد

(الشيخ أحمد البيومى)

انتقل إلى رحمة الله والدى أحمد البيومى فى الثانى من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٠١ هـ ، وكان وداعه المشهود يوم الجمعة حيث اجتمع أهل الكفر الجديد لصلاتها بالمسجد الكبير ، وقام الخطيب الأستاذ يوسف أحمد يوسف ، فذكر من فضائله ما يعلمه أهل القرية جميعاً ، ويشهدون به دون استثناء ، وقد علق بذهنى من قوله عن أبى : (إنه رجل المسجد) ! حيث ظل هذا الوصف يملأ تفكيرى ، لا لأنى كنت أجهل منه أمراً مشهوداً لا ينكره أحد ، بل لأنه كان الوصف المتسع لمعانى كثيرة تدور فى محيطه ، فهو إطار حقيقى لمآثر يعرفها الناس ، ويسهبون فى حديثها ! إطار يتسع ويمتد ثم يعلو ويرتفع ، ليؤدى رسالته المؤمنة حين يصل الأرض بالسماء .

لقد عاش والدى أكثر حياته تاجراً يعمل فى متجره ، فليس له بالمسجد وظيفة رسمية يحرص على أدائها قياماً بواجب معاشىّ ، ولكن المسجد كان يأخذ منه أكثر مما يأخذه متجره من الأوقات ، وكان الذى يحب أن يراه ييمم المسجد حين لا يجده فى منزله أو فى متجره ، إلا أن يكون مسافراً غير دان ، وحينئذ يكون أكثر وقته فى المسجد الذى ارتحل إلى مدينته . لقد كان المسجد بالنسبة إليه روضة ذات زهر وشجر وثمر وماء ، فهو مهوى القلب وراحة العين ، ومهد السكينة والاطمئنان .

تعوّدت صغيراً منذ بدأت أفكر فيما حولى عن بصيرة ، أن أجد باب منزلنا يفتح قبيل الفجر دائماً حيث ينهض والدى للصلاة ، كما رأيت من والدى ووالدتى مشجعين لى ، على أن أخف فى هذا الوقت لأقف بين يدى الله ! ! ومن لى اليوم بفرحة الطفولة البريئة ، وبهجتها بالذهاب فى غلس الظلام إلى المسجد ، لم يكن نور الكهرباء قد دخل القرية ، ولكن نور التقوى كان يشع فى كل أفق من آفاقها

فالناس ينسلون من كل حدب إلى بيت الله ! الصغار مع الكبار دائماً ! فإذا كان الوقت وقت رمضان ، فالدنيا تموج ، والمسجد يأتلق ، وكأن مهرجاناً يقام ! ولوالدى مكان جوار المحراب ينهض فيه قائماً متهجداً ، وقد يكون الإمام وما أكثر ما يكون ، إذا لم يكن الإمام الرسمى وهو شقيقه عمى الراحل الكريم الشيخ محمد البيومى رحمه الله حاضراً ، ومن بعده ولده الشيخ أحمد محمد البيومى ، فإذا نهض أبى للقراءة فى الصلاة رتل فى ابتهال ، وكنت حريصاً قدر الجهد أن أكون خلفه فى فجر الجمعة لأسمع سورتى السجدة والدهر من فمه ! وقد حفظت السورتين فيما حفظت من كتاب الله ، فإذا رددهما والدى خيل إلى أنى أسمع كتاب الله لأول مرة أما إذا جاء القنوت ووقف مبتهلا يدعو ويؤمن الناس ، صفوفاً خلف صفوف ، فإنك لا ترى غير أرواح تتجاذب أجسادها لتطير عنها محققة قول الداعى (اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك) !

والمسجد الأهلى فى الريف مأوى الغرباء من أبناء السبيل ، فلا تعدم أن ترى كل مغرب تحت مئذنته جماعة يوقدون النار فى الشتاء مصطلين ، ليعرفهم من أهل الخير من يتقدم لهم بالعشاء، حتى إذا كان النوم بعد الصلاة الأخيرة لاذوا بالمسجد مستريحين ، وقد تعودت أن أجد والدى يصطحب معه بعد صلاة الفجر ضيفاً جديداً إلى المنزل ، وكثيراً ما يكون هذا الضيف من حملة كتاب الله ، أو ممن أصابوا يسيراً من العلم ، فأرى أريكة الفناء قائمة فى الشارع القصير يجلس عليها الضيف تالياً بعض السور وبجواره يجلس والدى مستمعاً ، ولا يفارقان المنزل إلا بعد طلوع الشمس بعد أن يتناولا الإفطار ، كما تهيأ تلقائياً دون استعداد خاص وقد ينضم إلى مجلسهما ثالث يشم رائحة الغريب الوافد فيقرع الباب بالعصا ، ليؤانس مستمعاً فسامراً ففطر ، وكان لعمى الشيخ محمد البيومى رحمه الله مجلس مماثل أمام منزله المجاور ، إذ ما يكاد ينفتل من صلاة الفجر حتى يحضر معه ضيفاً غريباً ، ثم يشعل ما يعرف (بالمنقد) فى الريف ، ويضع آنية الشاى ، ويحضر ما يتيسر من اللبن والجبن والبيض والعيش ليأكل مع ضيفه فى سرور والتذاذ ، وكان مما يضحكنى أن أجد شيخاً من معارفنا يمر بالمجلسين معاً ، ليصيب منهما فوق حاجته ، وليواصل ما يجيد من السمر والائتناس ، رحم الله الجميع .

وتمر الأيام ولا أنسى مشهداً لوالدى معى وأنا فى الخامسة من عمرى، إذ أصيب رأسى ببعض القروح فاصطحبنى إلى طبيب بالقاهرة فى ميدان السيدة زينب، ونزلنا بإحدى اللوكاندات بالميدان، فكنت أجد أبى يوقظنى قبل الفجر بساعتين لنذهب إلى المسجد الزينبى، حيث يصلى متنفلا، ثم أجد شيخاً مهيباً يقرأ درساً علمياً، وحوله الناس، ولوالدى سرور بالغ، وإشراق مضىء، حين يجلس مع الجالسين مستمعاً، وأنا إلى جواره يغالبنى النعاس، ولا أكاد أعى شيئاً مما حولى، فإذا انتهى جاء شيخ حسن الصوت وجعل يقرأ القرآن، وحين تقدمت بى السن، والتحقت بالمعهد الثانوى بالأزهر كنت لا أزال أتخيل صور هذا المجلس العلمى فى الحرم الزينبى، فسألت والدى، فقال: إن الذى كان يشرح الدرس هو العلامة الشيخ محمد السمالوطى عضو هيئة كبار العلماء، ومن عادته أن يقرأ البخارى قبل الفجر، وله جمهوره الفاقهون، وأن قارئ القرآن هو الشيخ أحمد ندا، وكان من سعادتى بعد ذلك أن أقرأ وصفاً للكاتب المبين الأستاذ عبد العزيز البشرى، يتحدث فيه عن مجلس العلم بالمسجد الزينبى، فيردنى إلى أطياف حلوة تلوح بعيداً بعيداً فى مرآة الطفولة زاهية ناضرة شفافة، وقد استطاع الأديب المصور الأستاذ البشرى أن ينقلنى إلى هذه المجالس الوضيئة، النافحة بعبير الإيمان حين قال(١):

(لقد ولدت فى حى السيدة زينب، وسلخت فيه مدة الفتوة، وصدراً من سنى الشباب، ولست أذكر أنى من عهد الصبا، تخلفت فى ليلة من ليالى رمضان إذا كان السحر عن طلب مسجد السيدة زينب رضى الله عنها، أستمع أولا إلى درس الحديث من أستاذنا العلامة الجليل الشيخ محمد السمالوطى عليه رحمة الله، حتى إذا فرغ منه فى الوقت المقسوم استوى الشيخ أحمد ندا على الدكة، وأنشأ يقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم، طه ۞ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ۞ إلا تذكرة لمن يخشى» وقد انصقل بقراءة الليل صوته، وحلا نبره، وسلس منه ما كان جامحاً، ولان ما كان فى أول الليل عاصياً، وأطلقه فى آى السورة الكريمة أبيض ناصعاً كأنما صيغ من ذوب الفضة، أو كأنما اعتصر من صفحة البدر ليلة تمامه، لقد أسمعه فى سورة طه كل ليلة، وفى كل ليلة يخيل إلى أن جبريل ينزل من جديد بسورة

(١) عن العدد ٩٨ من السنة الثانية مجلة الثقافة.

طه على محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو يجول فى فنون النغم فارساً خلا من هيبته الميدان ، ولا يزال كذلك حتى يملأ الآذان طرباً ، ويشيع فى النفوس ما شاء الله أن يشيع من لذة وأريحية ! !) .

ويسترسل البشرى الكبير فى الوصف استرسالا يضائل منه أن نشوهه بالتلخيص ، فليمض إلى استيعابه من يريد .

حفظت القرآن وانتهيت من المدرسة الإلزامية قبل العاشرة من عمرى ، ولزمت متجر القماش مع والدى عامين قبل أن ألتحق بالأزهر ، وكان من علماء قريتى أستاذ فاضل هو الشيخ إبراهيم الخميسى حال مرضه دون توظيفه ، فكان يطيل الجلوس بالمسجد حيناً من اليوم ثم ينتقل إلى متجرنا حيناً آخر ، ووالدى معه فى المسجد يقرأ له مجلات الأزهر والإيمان وهدى الإسلام ، فإذا حان العصر ، وحضر بعد صلاته إلى المتجر ، شهدت والدى يقرأ معه كتباً حديثة ، وأذكر أن كتاب (محمد المثل الكامل) للمغفور له محمد أحمد جاد المولى قد شغلهما أكثر من عام قراءة واستعادة وتلخيصاً ، وكنت أحاول أن أفهم عنهما جهد طاقتى ، فلما شهد والدى رغبتى فى الفهم ، قال لى : سأقرأ بالمسجد مع الشيخ إبراهيم الخميسى كتاباً يناسب عقلك فلتكن معنا عند الضحى ! وكان الكتاب هو (نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين) للشيخ محمد الخضرى .

ومنذ هذا العهد وولعى بالسيرة النبوية بخاصة وبالتاريخ الإسلامى بعامة لا يهدأ ، وقد شهد والدى أنى أحاول الحفظ مستظهراً من صفحات نور اليقين ، فقال لى سأدلك على ما تحفظ ، وعين لى قصائد لحافظ وشوقى وغيرهما ، مختارة من كتاب (جواهر الأدب) فكنت أصعد إلى (دكة) المسجد كل صباح لأحفظ ما يختاره أبى من الشعر ! وما زلت إلى اليوم أحاول أن أجد لذة المحفوظ كالأمس فلا أستطعم ، وكأن للصبا حاسة تستمرئ وتتذوق وتستطعم ليست للكهولة .

ومن الإنصاف أن أذكر أن خالى الأستاذ الفاضل عبد المطلب أحمد عبدالمطلب كان يرشدنى إلى معانى القصائد التى اختارها أبى ، إذ كان كلفاً بالأدب الرفيع ، يقرأ الرسالة ، ويكتب فى مجلة الإخوان المسلمين ، وقد مات له ولد فرثاه فى جريدة الجهاد رثاء ذا رنين .. كان كلفاً بالأدب ولا يزال .

ثم التحقت بالأزهر ، فبدأت أعرف من قضايا العلم فى الدين واللغة ما يعرفه الأزهرى الصاعد فى مراقى السنوات التعليمية من ابتدائية وثانوية وعالية ، وبدأت فى الوقت نفسه أتصل بعقل والدى اتصالا مباشراً ، فكنت أشهد مجالسه العلمية حين يفتى فى قضايا الميراث والطلاق بالقرية ، بل بدأت ألمس ضعفى حين أجده يناقش أخى الأستاذ محمود فهمى البيومى المحامى فى كثير من نواحى الأحوال الشخصية حيث يخوضان فى شجون من الفتاوى الدينية لا يلم بها أزهرى مثلى على وجهها المطمئن .

وكان أحسن ما يمتعنى أن أناقش والدى فى مسائل النحو والقراءات ، حيث رزق فى هذين العلمين حظوة بالغة يحسد عليها ، وأذكر أنه قرأ إلى درجة الحفظ كتاب (منار الهدى فى الوقف والابتدا) للعلامة الأشمونى ، فعرف الوصل والفصل فى القراءة معرفة ترجع إلى أصولها النحوية الدقيقة ! وكم ناقش علماء الأزهر من أصدقائه فى فنون من الوقوف يقف عندها قراء الكتاب فى الإذاعة ومجالس العزاء دون وجه علمى مريح ، وكم كنت ألتمس لبعض الكبار من فنون التخريج ما ينقذهم من الخطإ ، فلا يستريح والدى إلا إلى الحق السافر دون احتيال أذكر أن ابن عمى الشيخ أحمد محمد البيومى قرأ فى صلاة الفجر آيات من سورة الإسراء ، وتلا فيما تلا قول الله عز وجل : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » ، ووقف فى القراءة عند كلمة نمد ، وبدأ بقوله تعالى : « هؤلاء وهؤلاء » فثار والدى عليه بعد انتهاء الصلاة ثورة ناقدة ، ولكن الشيخ أحمد اعتصم بما جاء فى كتاب (منار الهدى) حيث أجاز الأشمونى الوقف ، فزادت ثورة أبى ، وقال فى حدة : للأشمونى وقوف يجيزها وهى مخطئة وعندى شواهد كثيرة ، وأخذ يضرب الأمثلة ، والحق مع والدى فى تخطئة هذا الوقف ، إذ لا يمزق القول هكذا اعتماداً على تأويل باطل ينكره السياق .

أما دروس أبى بالمسجد فى ليالى رمضان ، فكانت تراعى مقتضى الحال مراعاة تامة ، إذ يتبسط مع سامعيه فى مسائل من الفقه ، وشجون من السيرة ، ونبذ من تفسير آيات الكتاب ذات المنحى الخلقى ، وأذكر أنه قرأ كتاب (شفاء الصدور فى تفسير سورة النور) للشيخ العلامة إبراهيم الجبالى قراءة مستظهرة ، لأن المؤلف

الكبير كان ذا بيان رائع يذكر دارسه ببيان الكبار من أمثال : محمد عبده ، ومحمد مصطفى المراغى ، ومحمد عبد الله دراز ، وقد حفظ والدى كل ما نشره الشيخ الجبالى بمجلة الأزهر عن تفسير سور النور والحجرات والرعد ولقمان ، وكل ما شرحه من أحاديث البخارى ومسلم على صفحات هذه المجلة . وقد ورثت عنه حب هذا العالم العلامة الجليل ! وكان من حسن حظى معه أن يكون شيخاً لكلية اللغة العربية وأنا طالب بها ، ومما لا أزال أذكره جيداً أن والدى قد كتب لى خطاباً ينبئنى أنه سيحضر إلى القاهرة فى يوم محدد ، وأن علىّ أن أستقبله عند وقوف القطار ، فكان لابد أن آخذ تصريحاً بالإجازة من الكلية فى هذا اليوم ، فذهبت إلى فضيلة الشيخ الجبالى أعلمه أن والدى سيحضر غداً ، ولابد أن أكون فى استقباله ، فتبسم الرجل فى هدوء ، وقال : لن تذهب إلا إذا أعربت قول الشاعر :

وكل رفيقى كل رحل وإن هما   تعاطى القنا قوما هما أخوان

ومن توفيق الله أنى كنت أحفظ القصيدة ، وأعرف مناسبتها وقائلها ، وأعلم أين المبتدأ فى أول البيت وأين الخبر فى آخره ، فقلت للشيخ مبتسماً : سأعرب البيت ، ولكن عليك أنت أن تذكر مناسبته ومن قائله ، فنظر الشيخ وقال مبتسماً : جئت بآبدة ! جئت بآبدة ! ! قلت : كل : مبتدأ ، وأخوان : خبر ، وإن هما تعاطى القنا : جملة شرطية معترضة ، فصاح الشيخ فرحاً : فتح الله عليك ، تفضل يا بنى واذهب إلى لقاء أبيك ! وحين حضر والدى وجلست معه حدثته عن سؤال الشيخ لى وإجابتى عليه ، ولا أنسى دهشته واستغرابه وهو يحدق متعجباً ويقول : أتسأل أنت مولانا الشيخ الجبالى ! ! أتسأل أنت مولانا الشيخ الجبالى ! !

وقد تعوّد أبى حين يحضر القاهرة أن يقطع الوقت متنقلا بين مساجد الحسين والسيدة زينب والإمام الشافعى رضى الله عنهم ، فإذا امتد به الوقت فى القاهرة أوى إلى مسجد الدردير بالكحكيين ، وكنت أتعجب لانتظاره الطويل فى هذا المسجد وحده مصلياً وتالياً وداعياً ، فيذكر لى أنه مقلد ، وأن الكبار من الشيوخ يألفون هذا المسجد ، إذ يفوح به أرج لا يشمه إلا المتذوقون ، ولا أذكر أنه كان يتجاوز هذه الأماكن إلا مضطراً لزيارة صديق بمنزل أو عيادة مريض بمستشفى ! وإلا ما كان من زياراته لحديقة الحيوان بالجيزة ، وهى مهوى الكثيرين.

وطرفة أذكرها عن شغف أبى بالبحث ، فقد كنت مع صديقى العالم الأديب الأستاذ توفيق محمد سبع رئيس قسم النحو بكلية اللغة العربية بالرياض نتحدث ذات ليلة ، فحضر إلينا من قال : إنه عائد لساعته من الحرم النبوى بالمدينة ، وقد صلى الفجر به فى اليوم الماضى فسمع قارئاً باكستانياً يتلو فى الحرم آيات من سورة القصص ، وقد قرأ قول الله عز وجل : « وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه » ، فوقف القارئ عند قوله تعالى : « قرة عين لى » ، ثم سكت سكتة لافتة ، وبدأ يقول : « ولك لا » ويرددها كثيراً ، فحصل من الدهشة والروعة ما ملك النفوس ، لأن قوله تعالى : « ولك لا » جاء معبراً عن خاتمة مستقبلة لحياة جبار طاغية ، سمعت هذا القول ، فراسلت والدى به لما أعرف من هيامه بمسائل الوقوف ، فلم تمض أيام حتى تلقيت منه بحثاً شافياً عن سر هذا الوقف نحوياً وذوقياً وروحياً ، فعرضت الخطاب على صديقى الأستاذ توفيق ، فقرأه معجباً ، ثم عرضته على صديقنا الداعية الكبير الأستاذ محمد الراوى رئيس قسم التفسير بالكلية ، فقرأه مستريحاً منوهاً ! وظل حديث الوالد يتردد بيننا نحن الثلاثة أمداً غير قصير .

* * *

هذا غيض من فيض ما يجب ذكره عن والدى وشغفه بالمسجد ودروس العلم وآيات الكتاب ، وقد تلقيت خطابات شتى بعد رحيله ، تفضل أصحابها بتعزيتى ، وكان من بينها ما كتبه خالى الأستاذ عبد المطلب أحمد عبد المطلب حيث قال من حديث مبسوط شاف واف :

(وقد حاولت أن أزوركم بالمنصورة لأقدم واجب العزاء ، فحال دون ذلك شدة القيظ وصيام رمضان ، والضعف الصحى الذى يلازمنى ، وكان يثقل كاهلى أن أكتب عزاء فى أحب الناس إلىّ ، وأكثرهم وفاء ، إذ كان الفقيد بما حفظه الله من المعاصى قوى الذاكرة ، يقظ الانتباه لكل ما يدور بخاطر جلسائه ، ولقد تناقشت معه فى آخر زياراتى فى مسائل من الميراث وأحكام الطلاق ، فوجدته كعهدى به عالماً ملماً بدقائق الأمور ، قوى الحجة ، مستدلا بالآيات البينات ، والأحاديث الشريفة ، لم يوهنه المرض الطويل ، ولم يضعف ذاكرته أو يبدد

بعض معلوماته ، وهو الذى استقى العلم من ينابيعه لا لغرض دنيوى ، أو شهادة علمية يذكرها الناس ، وقد علمت من الشيخ أحمد محمد البيومى أنكم ستكتبون بحثاً عنه تحت عنوان (رجل المسجد) فذكرنى ذلك بطرائف كثيرة وقعت لى معه ، منها أننى كنت أرافقه متنزهين على شاطئ النيل بالقاهرة ، وكان الجو رائعاً ، وقد أذن العصر ، فأردت أن نتابع السير بعض الوقت على أمل أن يصادفنا فى طريقنا مسجد للصلاة ، وإذا بوالدك رحمه الله يزأر زئير الأسد ، ويكشر معلناً غضبه ، مما جعلنى أتلمس السبل لإرضائه وتنفيذ رغبته ، ولم أجد أمامى فى ذلك الوقت إلا مطعماً للفول فدخلته ، واستحضرت حصيراً بسطه صاحب المطعم على الرصيف فأدى والدك الصلاة ، إذ كان متوضئاً ، وواصلنا السير إلى الجيزة ، فذهب إلى المسجد يصلى ثانية ، وقد شعرت بهدوء وسكينة معه فى هذا المكان ، وحدثته عن ذلك فقال : إن ملائكة الرحمة تملأ المسجد ، فلماذا لا تطمئن يا أخى ، والحديث عنه فى ذلك يطول ، فما أذكر إلا أنى ما طلبته فى يوم ما إلا وانتظرته بالمسجد فى الكفر الجديد) .

ولعل خير ما سمعته عنه بعد وفاته ما حدثنى به الأخ العزيز السيد / محمد محمد عماشة من وجهاء القرية ، إذ قال لى فى معرض التعزية : كنت قديماً أشتغل بالخياطة فإذا جاءتنى قطعة من القماش لأفصلها ، ووجدتها زائدة عن مقاسها الطبيعى عرفت أنها من محل والدك ، لأن الفقيد كان يقيس القماش ويلفه على المتر من الناحيتين ليتأكد من استيفاء المشترى حقه ، فكانت الزيادة تأتى من تتابع الطيات .

هذا ما قاله الصديق محمد عماشة ، وكنت أعرف ذلك بما أشهد ، ولكن الاعتراف به من شاهد محايد بعد مرور زمن بعيد صادف منى موضع الارتياح ، فانسكبت من عينى الدموع .

لقد تقدم والدى بصحيفته إلى ربه ، وإن مردنا إلى الله ، فليس لى غير أن أسأل له الرحمة ، راجياً أن يوفقنى الله إلى الاقتداء بسيرته ! وهو رجاء عسير المنال صعب التحقيق ، ولكنه أمل أستشرف إليه من بعيد .

المسجد النبوى

أول مكان تعبد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غار حراء ، إذ خلا إلى نفسه الليالى ذوات العدد يتأمل فيما يكتنف العالم من شرور ، ويضرع إلى ربه أن ينقذه من حيرته ليريه الصراط المستقيم ، حتى أنعم الله عليه بالرسالة ، فجاءه الروح الأمين يهتف بقول الله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ۞ الذى علم بالقلم ۞ علم الإنسان ما لم يعلم » .

ثم صدع الرسول بالحق ، فظل أربعة أعوام منذ خطب على الصفا يعلن أنه رسول الله إلى قريش خاصة وإلى الناس عامة ، وأنه نذير للكون من عذاب شديد ، وليس معه من المسلمين غير بضع وثلاثين نفساً ، كلهم ممن يتصلون به قرابة أو صداقة ! ثم هداه الله إلى دار الأرقم فكانت متعبده الثانى ، وفيها أخذ عدد المسلمين يتزايد ويكثر ، إذ أصبحت مسجده ومدرسته ، مسجده الذى يعبد الله فيه ذاكراً شاكراً ، ومدرسته التى يجلس فيها مجلس المعلم المثقف ، يتلو ما نزل عليه من الوحى ، ويشرح ما فى الذكر من عظات ومثل !

دخل النبى دار الأرقم فى السنة الرابعة من البعثة ، وقضى بها عامين قبل أن يسلم عمر بن الخطاب ، فأصبحت بمقامه الشريف مصدر إشعاع للحق يؤمها كل يوم عضو جديد من أعضاء الجماعة المسلمة ، فيهم من جاء علانية لا يرهب أحداً كعمر وحمزة ، وفيهم من جاء مستخفياً كصهيب وعمار ومصعب بن عمير ! لقد تكاثر العدد حتى تجاوز من هاجروا إلى الحبشة بعد عامين من المقام بدار الأرقم مائة نفس غير من تحملوا معهم من ذراريهم ، وإذا كان المهاجرون مائة ، فلابد أن يكون المقيمون أكثر من الظاعنين ، وبهذا كانت الدار أساساً لأول مدرسة ذات هداية وعبادة ، شرحت بها مبادئ الإسلام ، فإذا قلت : إنها المسجد الأول لأبناء الدعوة لم نبعد ، وإذا كانت الصلاة المفروضة لم تشرع بعد فإن لفظ الصلاة بمفهومه العربى الخالص رحمة ودعاء .

وحين هاجر محمد صلى الله عليه وسلم من مكة بنى مسجد قباء ، وذهب كثير من المفسرين إلى أنه أول مسجد أسس على التقوى من أول يو م ، وكان الرسول أول من وضع حجراً فى قبلته ، ثم جاء أبو بكر فوضع الحجر الثانى ، وتتابع الصحابة حتى تم البناء .

وفى المدينة نزل رسول الله عند مقدمه فى حى بنى عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى نفر من بنى النجار فحضروا يتقلدون سيوفهم قال أنس رضى الله عنه : فكأنى أنظر إلى النبى بينهم على راحلته ، وأبو بكر فى ردفه ، وملأ بنى النجار من حوله ، وقد بركت ناقته الشريفة عند موضع مسجده فاختار هذا المكان مسجداً ، ودامت حركة البناء سبعة أشهر قضاها الرسول فى ضيافة أبى خالد الأنصارى ، وكان المسجد على عهده صلى الله عليه وسلم مبنياً باللبن ومسقفاً بالجريد ، ومضى أبو بكر فلم يزد فيه شيئاً لاشتغاله بحركة الردّة ، وتخطيطه للفتح الإسلامى على قصر فى مدة حكمه ، أما عمر فقد جدد بناءه بعد أن نخرت جزوع النخل ، ثم زاد فيه عثمان زيادات كبيرة وتوالى الخلفاء فآثروه بالتجديد عصراً بعد عصر ، حتى استقر فى زماننا الراهن على أبدع مثال ! وليس من همنا أن نسهب فى تاريخ تشييده القديم ،وتجديده المتكرر ، ولكننا نتحدث عنه باعتباره المدرسة الأولى الحقيقية للتربية الإسلامية ، والثقافية الدينية ، إذ كانت تعقد حلقات الدرس القرآنى والتربية النبوية فى ساحته؛ عامة للرجال والنساء ، ثم شكا النساء مزاحمة الرجال فطلبن إلى النبى أن يجعل لهن يوماً غير يوم الرجال ففعل .

كان لقاء رسول الله لأصحابه إن لم يكن فى سفر أو غزاة بالمسجد ، فهم يتحلقون حوله يستمعون منه ، وتأتى الوفود لرؤيته بالمسجد أيضاً يخطبون ، فيتحدث أكابرهم بما فى نفوسهم ، ويتحدث رسول الله فيرد عليهم ، وقد يكون فيهم الشاعر فينشد قصيدته ، فيعمد إليه مثل حسان بن ثابت فيعارض شعره بشعر مرتجل ، والآثار فى ذلك أكثر من أن تحصى ، ومنها ما روى عن أبى واقد الليثى ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد ، والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله فى مجلسه وذهب واحد قال : فوقفا على رسول الله ، فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ،

وأما الآخر فجلس خلفه ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؛ أما أحدهم فأوى إلى الله ، فأواه الله ، وأما الثانى فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه .

وبهذه المجالس كان المسجد النبوى مصدر الإشعاع العلمى الأول ، إذ كانت المدينة — كما يقول الأستاذ أحمد أمين(١) — مقصد من يريد الإسلام فى عهد النبى من سكان جزيرة العرب ، وكثير منهم كانت تدعوه الحماسة الدينية أن يقيم بجوار النبى يتعلم منه ، ويتعبد معه ويسمع من قوله ، وبعد وفاة الرسول صارت مقر الخلافة ، ومركز كبار الصحابة حتى يحرّم عمر على كبار قريش أن يبرحوها إلا لحاجة ماسة ، وقد اشتهر فيها بالعلم كثير من الصحابة ، كعمر وعلى وزيد ابن ثابت وعبد الله بن مسعود ، وكان ابن عباس يأخذ بركاب زيد بن ثابت ويقول : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء ، وقد قال حسان :

فمن للقوافى بعد حسان وابنه ... ومن للمعانى بعد زيد بن ثابت

وإذا كان صحابة الرسول قد تملأوا من علمه ، فإنهم لم يكونوا على مذهب واحد فى الاجتهاد ، فكنت تراهم فى المسجد النبوى يصدرون عن استقلال عقلى أو اتباع نقلى ، كان فيهم من اشتهر بالاجتهاد فى الرأى على منهاج القياس ، ومن هؤلاء عبد الله بن مسعود ، وعلىّ بن أبى طالب ، ومنهم من يجتهد عن طريق المصلحة كعمر بن الخطاب حين قتل الجماعة بالواحد ، ومنهم من كان يتوقف فى التحديث ، ولا يتوقف فى إبداء الرأى ، وبذلك تعددت الآراء العلمية عن كبار الصحابة ، ولكن كانوا يحترسون احتراساً كبيراً يظهر فى مثل قول ابن مسعود فى إحدى فتاويه : (إنى أقول برأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان !) وعلى نحو من ذلك قال عمر . *

ثم ورث التابعون صحابة رسول الله فى العلم والإفتاء بالمسجد النبوى ، فكان بها أمثال : سعيد بن المسيب ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وابن شهاب الزهرى ، ويحيى بن سعيد ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن فقهاء المسجد النبوى كانوا

---

(١) فجر الإسلام ، ص ٢١٢

يأخذون بالحديث ، وأن فقهاء العراق كانوا يأخذون بالقياس ، وهذا — كما يقول الأستاذ محمد أبو زهرة — خطأ فى لبابه[١] ، لأن الرأى كان بالعراق مع الحديث، وكان الحديث مع الرأى بالمدينة، ولكن مقدار الرأى عند أهل العراق أكثر منه عند أهل المدينة ، ومقدار الحديث عند أهل المدينة أكثر من مقدار الرأى فليست الحدود فاصلة مفرقة .

لقد كان مسجد رسول الله جامعة يلتقى فيها الناس من جميع الأجناس والقوميات ، فأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ من قريش ، وأبو ذر تهامى من غفار ، وأبو هريرة يمنى من أوس ، وضمام بن ثعلبة أزدى من قحطان ، وبلال حبشى ، وسلمان فارسى ، وصهيب ينسب إلى الروم ، وكلهم من رسول الله ملتمس !

وإذا كان عالم المدينة ، وهو مالك بن أنس ، قد خلف مذهباً فقهياً كثير الأتباع ، ومالك تلميذ الأعلام من أساتذة المسجد النبوى ، فإننا نختار أحد هؤلاء الأساتذة الكبار من أعلام الصحابة ، لنشير إلى مكانته فى العلم الإسلامى ، ليكون مثالا حياً لمن أنجبتهم حلقات العلم النبوى ، ذلكم هو عبد الله بن عمر ابن الخطاب ، لأن الصحابة الكبار من أمثال على ، وعمر ، وأبى بكر ، قد وضعت عنهم الأسفار المستقلة ، شارحة مفصلة ، فلا أقل من أن نخصه بفصل من كتاب .

---

(١) محاضرات فى تاريخ المذاهب الفقهية ، ص ١٠٢

عبد الله بن عمر

لازم عبد الله بن عمر مسجد رسول الله قبل زواجه ، إذ كان ينام فيه بعد أداء الصلاة ، ولا يكاد يبرحه إلا لشاغل ضروري من متطلبات العيش . ومن هنا جمع حديث رسول الله ، وأصبح نهراً من أنهار العلم ، وكان يتتبع أحوال رسول الله ويسأل عما لم يشهد من أموره ، ليجعله قدوة نفسه ، وسراج معاشه ، قال تلميذه نافع : كان ابن عمر يتتبع آثار النبي ، فيصلي في كل مكان صلى فيه ، وقد نزل رسول الله عند شجرة فكان ابن عمر ينزل عندها ويتعاهد ريها بالماء كيلا تيبس فيحرم من مجلس جلس فيه رسول الله !

وقال مجاهد : كنا مع ابن عمر في سفر فمر بمكان فحاد عنه ، فسألت : لم فعلت ذلك ؟ فقال : رأيت رسول الله فعل هذا ففعلت :

وقد لفت هذا التتبع الحريص عقول معاصريه ، فكانوا يتعجبون ، حتى قال تلميذه نافع : لو رأيت ابن عمر وهو يتتبع أثر النبي صلى الله عليه وسلم لقلت : هذا مجنون !

وكل ذلك له دلالته العلمية في منحى ابن عمر ، فهو من أعلام المدرسة المدنية التي تتمسك بالأثر النبوي ، والتي لا تميل إلى الاجتهاد في التأويل ، وهي مدرسة كانت ذات تلاميذ يتتابعون حتى انتهوا إلى مالك بن أنس ، فكان رأس هذه المدرسة في اتجاهها التشريعي .

ومن يحرص على الحديث لا يفوته أن يحفظ القرآن وأن يدرك مراميه ، تناقش مع الحجاج ، فاتهمه ظلماً بالعي ، فقال ابن عمر : إن من يجمع كتاب الله ليس بعيي ، فسكن الحجاج ، وقد روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (إنما مثل صاحب القرآن كصاحب الإبل المعقلة ، إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت) ، وكان طويل التأمل لما يقرأ منه ، وله في فهم آياته بصر وسداد ، بدت بواكيرهما في صغره ، فقد روى البخاري في صحيحه : أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وهى مثل المسلم ، حدّثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البادية ، ووقع فى نفسى أنها النخلة ، قال عبد الله : فاستحييت إذ أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم . فقال : يا رسول الله أخبرنا عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هى النخلة ، فقال عبد الله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلىّ من أن يكون لى حمر النعم . *

ومع هذا العلم الغزير ، والتتبع الملح لكتاب الله وسنة رسوله ، كان ابن عمر قليل الفتوى بالنسبة إلى غيره من الصحابة ، خشية أن يزل فيقول برأيه ، قال نافع مولاه : كان ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم ، يجلسان للناس عند قدوم الحاج ، فكنت أجلس إلى هذا يوماً ، وإلى هذا يوماً ، فكان ابن عباس يجيب ويفتى فى كل ما سئل عنه ، وكان ابن عمر يرد أكثر مما يفتى ، وذلك لشدة حذره وخوفه من الخطإ ، قال نافع : سأل ابن عمر رجل عن مسألة ، فطأطأ رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته ، فقال الرجل : يرحمك الله ، أما سمعت مسألتى فقال ابن عمر : بلى ، ولكن كأنكم ترون أن الله ليس بسائلنا عن كل ما تسألوننا عنه ، اتركنا يرحمك الله حتى نتفهم مسألتك ، فإن كان لها جواب عندنا ، وإلا أعلمناك بأنه لا علم لنا به . *

وفى تتابع هذه الأقوال ما قد يوهم أن الامتناع عن الفتوى من دأبه ، ولكن جلوسه للحاج يوماً بعد يوم يدل على أنه مستعد للعطاء الدائم ، ولكنه لا يجرؤ على الفتوى دون تثبت تام ، ولكل وجهة هو موليها .

وكنا نحفظ قول مالك بن أنس : من قال لا أدرى فقد أفتى ، فنظنه أول من قال به ، ولكن القول يرتفع إلى ابن عمر ، وعنه نقل مالك ، قال عقبة بن مسلم : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً ، فكان كثيراً ما يسأل ، فيقول : لا أدرى ، ثم يلتفت إلىّ فيقول : أتدرى ما يريد هؤلاء ، يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم . *

وقد كان يجيب عن السؤال أحياناً بما يظن أنه موضع الإصابة ، ثم يتذكر حديثاً لرسول الله يفهم منه ما قد يخالف الإجابة ، فيسأل عمن أفتاه ويتمنى لو رآه ليصحح له ما قال ، عن إسماعيل بن عبيد قال : قلت لابن عمر رضى الله عنه :

أيكون الطول فى ركوع الصلاة أفضل أم فى سجودها ، فقال : يا ابن أخى ، خطايا الإنسان فى رأسه ، وإن السجود يحط الخطايا ، ثم بدا له بعد ذلك فقال : لو أنى عرفت السائل لأمرته أن يطيل الركوع والسجود معاً ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن العبد إذا قام إلى الصلاة أتى بذنوبه كلها فوضعت عن عاتقه ، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه .

وقد أخذ عليه بعض المؤرخين اعتزاله الفتنة بعد مقتل عثمان وما جد حتى مقتل ابن الزبير ، ولكنه كان صاحب حذر وحيطة ، وقد قال بصدد ذلك : إنما مثلنا فى هذه الفتنة ، كمثل قوم كانوا يسيرون على جادة يعرفونها ، فبينما هم كذلك إذ غشيتهم سحابة مظلمة ، فأخذ بعضهم يميناً وشمالا فأخطأ الطريق ، وأقمنا حيث أدركنا ذلك حتى جلى الله ذلك عنا ، فأبصرنا طريقنا الأول ، فعرفنا وأخذنا فيه ، إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان ، وعلى هذه الدنيا ، ما أبالى ألا يكون لى ما يقتل بعضهم بعضاً عليه ، ولا أقاتل فى الفتنة وأصلى وراء من غلب ، ولسنا بذلك ندعو إلى مذهبه فى اعتزال النزاع ، ولكننا نعلن وجهة نظره ونرى الالتزام بقول الله عز وجل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

لقد هاجر عبد الله إلى المدينة مع والده وسنه لا يتجاوز العاشرة ، ولكنه كان مشوقاً إلى الجهاد الحربى مع الرسول فى غزواته ، فعرض نفسه يوم بدر ويوم أحد فرده رسول الله لصغره ، قال ابن عمر : وجاء يوم الخندق وعرضت نفسى ، وأنا أخشى أن يردنى رسول الله ، ولكنه قبلنى فشنى صدرى ، ولا تعرف بعد الخندق غزوة غزاها رسول الله وتخلف عنها ابن عمر .

وقد ضرب بسهم فى التجارة فربح ، وكثر ماله ، وله مع والده قصة تعطى درساً خالداً فى الورع والحيطة ، فقد روى ابن الجوزى عن ابن عمير التيمى قال : سمعت عبدالله بن عمر يقول : شهدت جلولاء — وقد افتتحت فى عهد أبيه الفاروق — فابتعت من الغنائم بأربعين ألفاً ، فدعانى أبى ، وقال : يا عبد الله ، أرأيت لو انطلق بى إلى النار يوم القيامة أكنت تفتدينى ؟ قلت : نعم يا أبى ، وبكل ما أملك — قال عمر : كأنك كنت تبايع بى وتشترى فى جلولاء ، يقولون : هذا عبد الله بن عمر

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن أمير المؤمنين ، وأكرم أهله عليه فيرخصون عليك ولا يودون الربح ، وسأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش ، ثم أتى منزلى ، وأخرج كل ما لدى ، وتركنى سبعة أيام ، ثم دعا التجار فباع منهم متاعاً بأربعمائة ألف ، فأعطانى ثمانين ألفاً فقط ، وأرسل ثلاثمائة وعشرين ألفاً إلى سعد بن أبى وقاص ، وقال : اقسم هذا المال فيمن شهد الوقعة فإن كان أحد منهم مات فابعث بنصيبه إلى ورثته .

وقد كان لهذا الموقف أثره الرائع فى نفس عبد الله ، قال جابر بن عبد الله : ما منا من أحد إلا مالت به الدنيا ومال بها ، غير عبد الله بن عمر ، وقال السدى : رأيت نفراً من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التى فارق عليها النبي صلى الله عليه وسلم إلا ابن عمر .

وقال نافع تلميذه : كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشئ من ماله قرّبه لربه ، وقد عرف عبيده ذلك عنه ، فربما لزموا المسجد طويلا ، فإذا رآهم مصلين ، راكعين أعتقهم ، فقال له أصحابه : يا أبا عبد الرحمن ، إنهم يخدعونك ، فقال : من خدعنا بالله عز وجل انخدعنا عنه .

وقد مر جماعة من الخوارج بإبل كثيرة فاستاقوها ، وجاء راعيها فقال لعبد الله : إنهم استاقوا الإبل ، فسأل : كيف ذهبوا بها وتركوك ؟ قال : ذهبت معهم أوهمهم أنى تابع لهم ، ثم انتهزت غفلة فهربت ، وجئت إليك ، فسأل : ما حملك على أن تركتهم وجئت إلىّ ؟ قال : أنت أحب إلىّ منهم ، فاستحلفه عبد الله قائلا : آلله الذى لا إله إلا هو أنا أحب إليك منهم ؟ فقال : نعم ، قال : فإنى أحتسبك معها ، اذهب فأنت حر لوجه الله !

ونختم مقالنا عن عبد الله بقول نافع : إن ابن عمر كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد النبوى وبالقبر فزاره ، فإذا اخترناه أنموذجاً لأساتذة المسجد النبوى فهو اختيار صادق لعالم ورع كان أول من تشدد فى الفتوى ، وحرص على النص ، ورفض أن يجيب بما فطن حتى يتيقن ، وتلك خصائص المدرسة العلمية بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المسجد الحرام

قال الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ، وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

المسجد الحرام أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال ، وله من المهابة والتجلة ما ليس لغيره من القصور الشامخة والأواوين الباذخة ، إذ هو مهوى أفئدة المسلمين ، ومتعلق أرواحهم ، وما فارقه مسلم إلا حنّ إلى العودة إليه ، وعدّ لقاءه غنيمة الغنائم ، وذخيرة الذخائر ، وظل حديث رحلته إليه متدفقاً على لسانه مهما تناسلت الحقب ومرت الأعوام .

وإذا كان الطواف والصلاة من شعائر العبادة فيه ، فإن ذكر الله ، ومدارسة العلم من أبرز مزاياه ، فأنت تقدم إليه متى شئت من زمن ، فتجد الذاكر والقارئ مع الطائف والراكع ، بل إن الاستعداد النفسى فى هذا المكان المقدس يجعل المستمع إلى العلم فى المسجد الحرام أشد قبولا للوعظ ، وأصدق تلقياً للعلم ، وإن عينه لتسعد بكل سطر تطالعه ، وإن أذنه لتطرب لكل أثر تسمعه ، فيالها فائدة محققة .

ومنذ فتح مكة ، والمسجد الحرام مدرسة العلم ، فقد رحل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تاركاً معاذ بن جبل فقيهاً يعلم الناس قواعد دينهم فى المسجد الحرام ، ومعاذ وعاء من أوعية العلم ، وقد أوفده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن معلماً ، إذ كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أشدهم حفظاً للقرآن ، وقد زوده بنصائح علمية وخلقية صادفت من نفسه تربة طيبة فزكت ونمت وآتت أكلها الشهى ، وحسبك أن يروى عنه ابن عباس بالمسجد الحرام ، وابن عباس أحد الذين تصدروا للإفتاء والدرس بهذا المسجد ، وسلم

بترجمة موجزة له ، إذ كان من أعلام النبوة هدياً وتوجيهاً ، وإليه يرجع الفضل فى إيجاد مدرسة فقهية بمكة — كما يقول الأستاذ أحمد أمين(١) : حيث تخرج على يده نفر من التابعين مثل : مجاهد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس ابن كيسان ، واستمرت حلقات العلم فى زمن هؤلاء ومن بعدهم قائمة بالمسجد الحرام .

وكلنا نعلم أن الإمام الشافعى رضى الله عنه تلقى العلم أول ما تلقاه فى حلقات المسجد الحرام ، وإذا كان الحج فريضة محتومة على المسلمين ، فإن طلاب العلم كانوا يتنهزون موسم الحج ليقابلوا العلماء بالمسجد الحرام حيث يجتمع رجال الإسلام من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ومنافع علماء الدين هى الفقه فيه ، ورواية ما لا يعلمون من الحديث والأحكام ! وما زال العلماء يتصدرون للإفتاء والتدريس ، فى مواسم الحج فى بيت الله ، وما زالت الحلقات تمتد آهلة بالسامعين وقراءة كتب التراجم والطبقات توقفنا على الأهمية العلمية للحج ، إذ كان بعثة عامة للمسلمين ، ومؤتمراً علمياً للدارسين ، وموسماً دينياً للهدى والتوجيه .

وأصحاب الرحلات من مؤلفى العرب قد دوّنوا على تناسل الأجيال مشاهدهم فى البيت الحرام ، إذ أن أكثر هذه الرحلات المباركة كان الحج سببها الأول ، وفيما دوّنوه ما يصوّر مشاهد العلم فى البيت العتيق من وعظ وخطابة وتلاوة ونقاش وسنروى بعض هذه المشاهد لتكون آية للسائلين .

يتحدث ابن جبير فى رحلته الشهيرة عن بعض مجالس العلم والقرآن بمكة ، فيروى أن كل وتر من الليالى العشر فى رمضان يختم فيه القرآن ، إذ يكون أحد أبناء مكة من الناشئين قد حفظ القرآن فى هذا العام ، واستعد أهله للاحتفال به فى ليلة مباركة من ليالى الوتر بمشهد من العلماء والقضاة ومن يرغبون المشاهدة من الزائرين ، فتنصب الثريات المضيئة على هيئة غصون من الشمع ، وقد انتظمت صفوفاً متراصة ، وامتدت فى أثناء ذلك حبال متينة علقت بها مصابيح زيتية تزيد المكان لألأة وإشراقاً ، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بحلة حريرية غالية ،

---

(١) فجر الإسلام ، ص ٢١٣

فيأتى الإمام (الطفل) حافظ القرآن فى أجمل زينته وحوله أقرباؤه من الإخـوة والأعمام والأخوال فلا يستطيع الوصول إلى المنبر من كثرة الزحام إلا بجهد جهيد فيصعد إليه وقد أعد خطبة دينية يتلوها فى شجاعة وإبداع ، فإذا قال من عظاتها نبـذة معقولة ، سكت وبدأ القراء يتلون من كتاب الله ما أعـدوه ورأوه مناسباً لما جاء فى كلام الخطيب الصغير ، ثم ينهض الخطيب فيتلو نبذة ثانية من وعظـه يتصرف بها فى شئون التذكير والمواعظ وكأنه واعظ كبير متمرس ، فإذا بلغ شوطاً يحسن لديه السكوت قام القراء بالتلاوة كعهدهم السابق فأسمعوا الحاضرين من كلام الله ما يحسن وقعه ويستجاد ، ثم ينتهى الحفل بين العبـادة والتلاوة ، ومدارسة الفقه والحديث .

قال ابن جبير (١) واصفاً لبعض هذه المشاهد : « ثم كانت ليلة خمس وعشرين من رمضان ، وهى ليلة الإمام الحنفى (إذ كان للمسجد الحرام أئمة أربعة يمثلون المذاهب الذائعة بين الناس) وقد أعد ابناً له لذلك، فكان احتفاله عظيماً ، أحضر فيه من ثريات الشمع أربعاً مختلفات الصنعة ، منها مشجرة مغصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، ومنها غير مغصنة ، وصفت أمام الحطيم ، وتوج الحطيم بخشب وألواح ، وضعت أعلاه ، وجلل ذلك كله سرجاً ومشاعيل وشمعاً ، فاستنار الحطيم كله ، حتى لاح فى الهـواء كالتاج العظيم من النور ، وأحضر الشـمع فى أنوار الصفر ، ووضع المحراب العودى ، فجلل دائره الأعلى ، كله شمعاً ، فاكتنفته هالات من النور ، ونصب المنبر قبالته مجللا بالكسوة الملونة ، واحتفل الناس لمشاهدة هذا المنظر النير احتفالا مهيباً ، فختم الصبى المذكور ، ثم برز من محرابه إلى منبره ، يسحب أذيال الخفر فى أثواب رائقة المنظر ، فتسور منبره ، وأشـار بالسلام على الحاضرين ، وابتدأ خطبته بسكينة ولين ، ولسان على حالة الحيـاء مبين ، فكانت الموعظة أبلغ والتذكرة أنفع ، وحضر القراء بين يديه يبتدرون القراءة ، فيسكت خلال إكمالهم الآية التى انتزعوها من القرآن ، ثم يعود إلى خطبته وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أنوار الشمع بأيديهم ، ومنهم من يمسك المجمرة تسطع بعرف العود الرطب ، فعندما يصل إلى فصل من تذكير

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٣٢ ، تحقيق الدكتور حسين نصار (بتصرف يسير)

أو تخشيع رفعوا أصواتهم بيارب يارب ، يكررونها ثلاثاً أو أربعاً ، وربما جاراهم بعض الحاضرين إلى أن فرغ من خطبته ونزل ، وجرى والده الإمام أثره على الرسم من الإطعام لمن حضر المكان ، إما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم » .

وإذا كان هذا الحفل بالمسجد الحرام احتفاء بحفظ القرآن ، فإنه فى الوقت نفسه تمرين على الخطابة الدينية ، وتشجيع للأبناء من الحفاظ أن يكونوا دعاة هداة ، تزهو بهم المنابر والمجالس ، وفى ذلك من الدعوة إلى نشر العلم والهداية ما يجب أن يفتخر به ، أضف إليه ما يتردد من ذكر وتسبيح ومناقشة بين الحاضرين تثمر الثواب من الله ، والهداية للناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) . وقوله عليه الصلاة والسلام : (أفلا يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير من ثلاث ، وأربع خير من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل) . وسيطالع القارئ كلمة عن أحد أعلام المسجد الحرام ، لأن من خطة هذا الكتاب أن يقرن المسجد بأستاذ .

عبد الله بن عباس

كان ابن عباس مفتياً بالمسجد الحرام فى مكة حيناً ، وفى مسجد الطائف حيناً آخر ، فهو أستاذ التشريع فى عصره ، وهو مرجع الوافدين إلى مساجد الله يستفتون .

ومنذ صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام ، نجده حريصاً على التقاط كل حرف من بيانه ، يعيه ويتفهمه ويعتدّه ذخر الدنيا والآخرة ، وقد أنس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه النجابة ، فدعا الله أن يفقهه فى الدين ويعلمه التأويل ، وكان يوصيه بوصايا خلقية هى دستور المؤمن الصادق ، فقد روى الترمذى عن عبد الله بن عباس قال : كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال : (يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لا يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) . وهذا الحديث من جوامع الكلم ، لأنه يرسم طريق المؤمن فى الحياة عملا وإيماناً وعزة ويقيناً .

وقد أوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر فقال فى غير رواية الترمذى : (تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً) .

وقد عرف الفتى الناهض أن المدة التى قضاها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيرة لا تتيح له أن يتملأ من العلم ، فصمم على أن يلقى الصحابة ليأخذ ما يستطيع أخذه مما وعوه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعماله ، وقد تحدث عن نفسه لمولاه عكرمة فقال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم اليوم كثير ، فقال : واعجباً لك ، أترى الناس يفتقرون إليك ، وترك ذلك ، وأقبلت أسأل ، فإن كان ليبلغنى الحديث عن رجل فأذهب إلى بيته وهو فى وقت القيلولة ، ولو شئت أن يؤذن لى لأذن ، لكن أبتغى بذلك طيب نفسه ، فأتوسد ردائى على بابه ، يسفى علىّ الريح من التراب ، فيخرج فيرانى ، فيقول : يا ابن عم رسول الله ، ماذا جاء بك ؟ هلا أرسلت إلى فآتيك ، فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث ، فعاش الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى يسألوننى ، فقال : هذا الفتى كان أعقل منى .

وكان على حداثة سنه ذا أدب بالغ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحدث عن نفسه فقال : صليت خلف رسول الله فأخذ بيدى حتى جعلنى بإزائه ، فلما أقبل على صلاته تأخرت ، فلما انصرف قال لى : ما شأنك ؟ فقلت : يا رسول الله أوينبغى لأحد أن يصلى بإزائك ، وأنت رسول الله ، فدعا لى أن يرزقنى الله علماً وفهماً .

وعمر بن الخطاب فى فراسته لم يغب عنه ذكاء ابن عباس ، وقوة استعداده فكان يحبه ، ويسأله عن الدقائق بين الكبار من الأنصار والمهاجرين ، فقالوا له : ألا تدعونا كما تدعو ابن عباس ؟ فقال : ذاكم فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول . قال ابن عباس : قدم على عمر رضى الله عنه رجل فسأله عن الناس ، فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل أحد عن آى القرآن ، فعبس عمر وانطلقت إلى منزلى ، وقلت : ما أرانى إلا قد سقطت من نفسه ، فبينا أنا كذلك ، إذ جاء رجل ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فأخذ بيدى وسألنى : ماذا كرهت مما قال الرجل ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إن كنت قد أسأت فأستغفر الله ، قال : لتخبرنى عن رأيك . قلت : إنهم متى تنازعوا اختلفوا ، ومتى اختلفوا ضلوا ، فقال : لله أبوك .

وروى البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، وقال : لم يدخل هذا معنا وإن معنا لأبناء مثله ، فقال عمر : إنه من أعلمكم ، ثم دعاهم ذات يوم

فأدخلنى معهم ، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ۝ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ۝ فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً » . فقال بعضهم : أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً ، فقال عمر : أكذاك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله أعلمه الله له ، فقال : إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر : لا أعلم منها غير ما تقول .

وحين بهر الناس ما ترك ابن عباس من الآثار فى تأويل الكتاب ، حاول بعض المستشرقين أن يجعله تلميذاً لكعب الأحبار ، ليوهم الناس أنه حفظ العلم عن أهل الكتاب لا عن رسول الله وصحابته ، وهو وهم رددت عليه من قبل ، فقلت[1] :

إن هؤلاء الوضاعين من اليهود يريدون أن يثبتوا عراقة معلوماتهم الدينية ، فجلعوا ابن عباس راوية عن كعب وأمثاله ليتم لهم ما يريدون ، ومنطق التاريخ يكذب ذلك ، لأن ابن عباس لم يكن ليستمع عن كعب فى عهد عمر ، وقد رحل كعب عن الحجاز عقب مقتل أمير المؤمنين ، إذ استشهد رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ، وقد عاش عبد الله إلى سنة ٧٠ هـ يفتى ويملأ الحجاز علماً ، فكيف أخذ تفسير كعب وعلمه ، وهو فى حياة عمر ينقل عنه ويناقش صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتباره ناشئاً يتفقه ، ثم بعد وفاته ، وكان عمره اثنتين وعشرين سنة ، لم يكن لأهل الكتاب وجود فى الجزيرة العربية ، فليت شعرى كيف أتى هذا العلم من كعب وأضرابه لابن عباس وبينه وبينهم ما بين مكة وفلسطين ، لأن عمر أخرج هؤلاء جميعاً من الجزيرة قبل وفاته إلا من أسلم ، وقد أسلم كعب وانتقل إلى المقدس بعد مقتل الخليفة مباشرة لما لحقه من اتهام تتردد بواعثه لدى المؤرخين ، ثم كيف يروى عن ابن عباس أنه قال :

---

(١) خطوات التفسير البيانى للمؤلف ، ص ٢٤

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم »[1] ، ثم يتصور متصور أنه يرد معين هؤلاء .

وقد حفظت صحف العلم مساجلات ابن عباس العلمية للخوارج وخصوم عليّ ، فدلت على رسوخ قدم ، وثبات فكر ، وقوة حجاج .

ومجلسه بالمسجد المكي ذو اشتهار فائق ، وفيه تخرج كبار التابعين من أمثال : مجاهد بن جبر مولى بني مخزوم ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح مولى قريش ، وأبو الزبير محمد بن مسلم مولى حكيم بن حزام ، ومن تلاميذه سعيد بن جبير ، وقد قيل عنه إنه مات وما على ظهر الأرض رجل إلا يحتاج إلى علمه .

قال عطاء بن رباح : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، وأكثر فقهاً ، وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرون عنه من واد واسع فسيح .

وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس ، قلت : أجمل الناس ، فإذا نطق قلت : أفصح الناس ، فإذا أفتى قلت : أعلم الناس ، وقد سمعته مرة يفسر سورة النور بعد أن قرأها ، فقلت : لو تسمع هذا الديلم لأسلمت .

وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد تحققت فراسة ابن عباس في بعض الأمور : لله بلاء ابن عباس ، إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

ذلكم هو ابن عباس أحد أساتذة المسجد الحرام ! !

---

(١) البخاري : باب الشهادات .

مسجد الفسطاط

من عادة المسلمين حين يفتحون بلداً جديداً ، أن يبدءوا بإقامة مسجد لهم ، مقراً للعبادة والشورى والتعليم جميعاً ، وما فتحت مصر حتى شرع عمرو بن العاص فى إقامة أول مسجد بها ، وكانت مساحته لأول عهده خمسين ذراعاً طولا فى ثلاثين ذراعاً ، وقد وقف على إقامة قبلة المسجد ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة الصامت ، وأبو الدرداء ، وفضالة بن عبيد ، وعقبة بن عامر ، وأبو ذر ، ورافع ابن مالك ، وما برحت وسائل التوسعة والتحسين تتعاقب عليه فى عهود معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، وسليمان بن عبد الملك ، ومن خلفهم على كر العصور حتى أصبح مضرب المثل تشييداً وعمراناً .

ومنذ أنشىء المسجد وهو معهد للعلم ، يدرس فيه النابغون من صحابة رسول الله ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسنخصه بتعريف موجز فيما يلى هذا الفصل ، وأذكر أن محمد بن الربيع الجيزى ألف كتاباً فيمن دخل مصر من الصحابة ، ذكر فيه مائة وأربعين صحابياً ، وجاء السيوطى فارتفع بالعدد إلى ثلاثمائة ، وأكثر هؤلاء قد رجعوا إلى المدينة بعد تمام الفتح بأمد معقول ، وفيهم من ظل يهدى إلى سبيل الرشاد ، فاشتهر بعضهم بالإفتاء ، وبعضهم بالقضاء ، وهما من التشريع الإسلامى فى لباب اللباب ، وعكف تلاميذهم من بعدهم على تلقى العلم ، وفيهم من رحل إلى المدينة والعراق طالباً مستفيداً ثم رجع يذيع هديه فى المسجد الجامع ، ومن أشهر من عرفوا بالعلم من تلاميذ الرعيل الأول : يزيد ابن أبى حبيب ، وابن لهيعة ، وابن وهب ، والليث بن سعد .

أما يزيد بن أبى حبيب فهو بربرى الأصل ، وقد رزق الحظوة فى تفهم العلم ، وكان عاقلا مهيباً حليماً ، ويقول المؤرخون إنه أول من نشر الفقه فى مصر

بعد صحابة رسول الله ، إذ ورث منهم علماً كثيراً أذاعه فى المسجد ، كما روى عن سالم ونافع وعكرمة ، ولم يقتصر على الفقه بل اهتم بالغزوات والفتوح ، فكان الأساس الأول للمدرسة التاريخية بمصر .

وأما ابن لهيعة ، فقد كان والده من العرب الوافدين ، وقد أخذ عنه الحديث ، وأكثر من روايته إكثاراً لم تكن موضع القبول من بعض المحدثين ، وليس هذا بعيب ، فكل عالم يؤخذ ويرد من قوله ، وإذا كان قد تولى القضاء بمصر تسع سنين ، فمعنى ذلك أنه كان ثقة فى أحكامه الشرعية ، يطمئن الناس إلى دروسه بالمسجد ، كما يطمئنون إلى حكمه فى الأموال والدماء .

ولا يمكن أن نغفل ابن وهب ، وهو أبو محمد عبد الله القرشى ، وقد امتاز بكثرة الرحلة وبرع فى الحديث فاختار منه كتاباً سماه (الجامع فى الحديث) رتبه على كتب متوالية ، وقد بلغ من الشهرة العلمية مبلغاً جعل مالك بن أنس يراسله ، ويصفه بوصف المفتى ، ومالك — بعد — أخبر الناس بالعلماء ولا يهتم إلا بذوى النفاذ والسداد .

وسنلم بشذور من حديث الليث بن سعد فيما يلى هذا البحث ، إذ بلغ من الفقه مبلغاً رفعه إلى مصاف الأئمة الكبار من أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى ، وله مناظرات علمية مع الإمام مالك رضى الله عنه سنخصها بالتفصيل لتبرز معدن هذا الفقيه الجهير !

على أن تلاوة القرآن كانت ذات ذيوع بالمسجد ، إذ انتشر به جماعة من القراء يتلون كتاب الله بقراءة ورش عن نافع ، وورش هذا هو عثمان بن سعيد القفطى ، مصرى أصيل ، رحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع تلميذ عبد الله ابن عمر ، ورجع لينشر قراءته بالديار المصرية فى حلقته بمسجد الفسطاط ، وعنه انتقلت قراءة نافع إلى المغرب ، فمازال القوم يقرءون بها إلى اليوم ، وكانت المصاحف تكتب فى مصر بكثرة ليتداولها الحافظون من الكبار والصغار ، وكانت أجزاؤه توضع بكثرة فى المسجد لتكون يسيرة المنال على القارئين .

وقد قرأنا فى تاريخ الحاكم بأمر الله أنه بعث من قصره إلى مسجد الفسطاط

بألف ومائتين وثمانية مصحفاً ما بين ختمات وربعات ، كلها قد كتب بالذهب ومكن الناس من التلاوة فيها تشجيعاً وترغيباً ، كما أرسل نجفاً من الفضة يعلق بالمسجد حتى يتمكن التالون بالليل من القراءة على ضوئه ! ويا لها عناية كبرى حين يكتب المصحف بالذهب ويقرأ فى مصابيح الفضة ! وليس المكتوب عشرة مصاحف بل يقرب من ألف وثلثمائة !

وفى مجال الموازنة بين التعليم بجامع عمرو والتعليم بالجامع الأزهر بمصر يقول الدارسون : إن مسجد الفسطاط وإن سبق الجامع الأزهر فى التدريس العلمى بنحو من أربعة قرون ، ففيه فرق واضح بين التدريس بالمسجدين ، لأن التدريس بجامع القسطاط كان حسبة لوجه الله تعالى ، حيث يندفع المدرس والطالب تلقائياً إلى ممارسة العلم حسبة لوجه الله دون مقابل ما تبذله الدولة ، أما التدريس فى الجامع الأزهر فكان له أجره المبذول للمدرس قل أو كثر ، وذلك فى الأعم الأغلب ، إذ لايمنع أحد عالماً يتبرع بالتدريس فى المسجد حسبة دون راتب ، كما يقولون فى صدد الموازنة بين المسجدين ، أن طلاب الفسطاط يطلقون اسم (الزاوية) على مكان الدرس ، أما طلاب الأزهر فيطلقون اسم (الحلقة) على موضع التدريس ، واصطلاح (الزاوية) يوحى بالإقامة المستمرة بالمسجد ، أما (الحلقة) فتقوم ساعة الدرس ثم تنفض عقب انتهاء الأستاذ .

وبمقارنة الحركة العلمية فى مسجد الفسطاط بمثيلاتها فى مساجد العواصم الإسلامية ، نجد أن حركة الفسطاط لاتتقيد بمذهب لإمام خاص ، فمن علماء المسجد المصرى المالكى والحنفى والشافعى ، والمنفرد بمذهب خاص كالليث ابن سعد ، أما مسجد المدينة فينحو منحى المذهب المالكى وحده ، وكذلك تنحو مساجد الكوفة والبصرة منحى المذهب الحنفى ، لأن تلاميذ الإمامين هناك يتقيدون بمنحى الإمام ، أما فى مصر فلكل فقيه أن يتجه وجهته الخاصة بميله العلمى ، وقد ظلت هذه الحرية بين العلماء حتى بعد وفود الإمام الشافعى إلى مصر والتفاف الناس حوله ، لأن وجود فقيه كبير ، وإمام عظيم كالشافعى رضى الله عنه ، لايمنع الدارس أن يرد ما يختار من موارد العلم ، وكلها ذات رىّ وغذاء .

يقول الأستاذ محمد المدنى رحمه الله : (لقد كان المسجد الجامع يومئذ ، وهو مسجد عمرو بن العاص ، أشبه بنبع صاف فياض يزدحم حواليه الوراد ، بل أشبه بجامعة علمية كأرقى ما نعلم من الجامعات الحديثة ، تلتقى فيها الدراسات ، وتدور المحاورات ، وتعقد المناظرات ، وتعرض الكتب والتآليف والرسائل ، وتنقد المذاهب ، وتمحص المسائل ، فى كنف من حرية الرأى ، واستقلال الفكر ، وأدب البحث ، وعفة المقال ؛ فإذا أفضى الأمر فى شىء من ذلك إلى خصومة فهى خصومة شريفة ، غايتها الوصول إلى الحق ، قد تشتد أحياناً وتعظم ، حتى يخيل إليك أنها حرب عوان ، وهى حرب أى حرب ، ولكن جندها العلماء ، وقادتها الأئمة الأعلام ، وسيفها الحجة والبرهان)(١) .

فمن أعلام المذهب الحنفى بجامع عمرو إسماعيل بن اليسع الكوفى ، وقد وفد قاضياً فى عهد المهدى ، فأذاع فقه أصحاب الرأى ، وتوافد القضاة من الأحناف فى عهود الرشيد والمأمون والمعتصم يعاونون على نشر آراء إمامهم ، على حين كان فقهاء المالكية أولى حظوة فى الدروس العلمية ، وكلهم أعلام أئمة من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز ، وهما من مذهب مالك بمنزلة أبى يوسف ومحمد بن الحسن من مذهب أبى حنيفة ، ثم جاء الإمام الشافعى فأحدث حركة فقهية ذات امتداد ، وكان محور نقاش هادف بين الأعلام الكبار ، وقد أذكى بين المصريين روح المناقشة والجدل ، وانفردت مؤلفات كثيرة بالرد عليه ، وتلتها مؤلفات ترد على ما قيل ، ثم انتقل إلى جوار ربه ، فلم يهدأ النقاش بل امتد بين تلاميذه وتلاميذ مخالفيه ! كان الشافعى رحمه الله غيثاً دافقاً فملأ الأنهار والينابيع .

---

(١) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، ص ٥٩٢

عبد الله بن عمرو
(عالم الفسطاط)

لم ينل عبد الله بن عمرو بن العاص ما يستحقه من دراسة علمية تبرز أثره الكبير فى الثقافة الإسلامية بعامة ، وفى الحركة الفكرية الناشئة بمصر عقب الفتح الإسلامى بخاصة ، لأن الصحابى الكبير كان ذا ثقافة شاملة بالنسبة لزمنه ولزملائه ، إذ أنه مع إجادته الكتابة والقراءة فى معشر أمىّ كان يقرأ بالسوريانية ، وكان يطالع التوراة فاهماً مقارناً ، وقد أسلم قبل أبيه ، لأنه حاول أن يدرس الإسلام فيما يسمع من نصوص القرآن ، فوجد لكلام الله عز وجل بشاشة خالطت فؤاده ، وكأنى به وقد أصغى إلى صدق حججه ، وقوة منطقه ، فلم يستطع صبراً على اعتناقه ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً منيباً ، وقد كان إلمامه بالتوراة أحد دوافعه إلى دين الله .

ففى صحيح البخارى عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، فقال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن حيث يقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظّ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر حتى يقيم به الملة العوجاء) . قال عطاء بن يسار : ثم لقيت كعب الأحبار فسألته عن ذلك ، فما اختلفا حرفاً .

وقد عهدنا بعض الكاتبين يدرس أمثال كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام من مسلمة أهل الكتاب ليبين أثر قارئى التوراة فى المحيط الإسلامى فى الصدر الأول من عهد الدعوة ، ولم نجد فيهم من يشير إلى عبد الله

ابن عمرو بن العاص ، وكأن هؤلاء متعمدون أن يغفلوا دور الصحابة الخلص في سعة الاطلاع ، وقوة الإلمام ، لحاجات في نفوسهم ، وتلك حقيقة نبه إليها الأستاذ صادق إبراهيم عرجون ، حين قال رحمه الله :

(كان يجدر بمؤرخي الإسلام ورجال الحديث وكاتبي السيرة النبوية وعلماء التفسير أن يجعلوا علم عبد الله بن عمرو وأضرابه من الثقات والأثبات ميزاناً لعلم غيرهم من رواة أخبار التوراة ومقياساً لروايات الذين أكثروا من الحديث عنها من أمثال كعب الأحبار ، ونوف البكالي ، ووهب بن منبه ؛ لأن منزلة عبد الله بن عمرو من الصدق والإتقان والفقه ترفعه عن منازل الارتياب ، ولو أن العلماء تنبهوا إلى مثل هذا منذ القدم لأمكن تصفية التاريخ الإسلامي من هذه الأقاصيص الإسرائيلية المهلهلة التي ملأت كتب التفسير والسيرة والحديث ، وإذ فات هذا فلا أقل من أن يجعل الباحثون أحاديث عبد الله وأضرابه بعد التثبت من صحة روايتها وسيلة لامتحان هذه القصص المسطورة في الكتب)(١).

ولقدرة عبد الله بن عمرو على القراءة والكتابة كان أحد الذين دوّنوا حديث الرسول في الصحف سماعاً منه ، فقد لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن أسلم ، واستأذنه أن يكتب حديثه ، فأذن له ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أأكتب كل ما أسمع منك في الرضا والغضب ؟ قال : (نعم ، فإني لا أقول إلا حقاً) .

ونحن نعلم أن أبا هريرة رضي الله عنه كان من أكثر الصحابة رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ حرص على أن يحفظ كل ما يسمع عنه ، ولكنه اعترف بأن عبد الله بن عمرو يحفظ من حديث رسول الله أكثر مما يحفظ ، وعلل ذلك حين قال : (ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله مني إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يعي بقلبه وأعي بقلبي ، وكان يكتب وأنا لا أكتب) .

وأثر عبد الله في تدوين الحديث النبوي لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موضع تردّد من الذين يحاولون أن يطعنوا في رواية الحديث ، إذ يعلنون

---

(١) مجلة الأزهر ، المجلد الحادي عشر ، ص ٦٠٦

أنه لم يدوّن إلا بعد أمد بعيد من رحيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلوا بذلك إلى ما يريدون من هدم لأصل ثابت من أصول التشريع ، ولكن الروايات المتواترة عن تدوين عبد الله لما كان يسمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعلتهم يتململون كراهية ، ولو أخلصوا للحق لاتبعوه حين تظهر دلائله ساطعة دون التباس .

وإذا كان عبد الله من رواة الحديث وحفاظه ، ومن دارسي أخبار الأنبياء والمرسلين فى القرآن والتوراة ، فإن أثره فى مسجد الفسطاط بمصر قد كان من الوضوح بحيث ترك تلاميذه ينهجون نهجه فى المحافظة على المأثور الصادق من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى دراسة أخبار السابقين وروايات التاريخ وقصص الفتن والحروب ، لذلك عدّه مؤرخو الحركة العلمية فى مصر أدل أستاذ لهذه الحركة المباركة ، وعدوه المؤسس الحقيقى للعلم فى هذه البلاد ، إذ أخذ عنه كثير من أهل مصر مكبرين مقدرين ، وكان يسمى صحيفته التى دون فيها حديث رسول الله (الصادقة) ، ويقول عنها : (فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينى وبينه أحد) ، كما كان يحج ويعتمر ويأتى الشام ثم يرجع إلى مصر ، وقد شافه الصحابة ونقل عنهم ونقلوا عنه ، وحرصوا على لقائه ، وما ظنك بأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر وقد علمت بمقدمه ، فقالت لابن أختها عروة بن الزبير أحد الفقهاء السبعة بالمدينة : يا ابن أختى ، بلغنى أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج ، فقم والقه واسأله ، فإنه حمل عن رسول الله علماً كثيراً .

ولم يكن عبد الله عالماً فحسب ، ولكنه كان عابداً من طراز متشدد ، فقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : حدثنى عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ، ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ، فقلت : بلى يارسول الله ، قال : فلا تفعل ، صم وافطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر

كله . قال عبد الله : فشددت فشدد علىّ ، قلت : يا رسول الله ، إنى أجد قوّة ، فقال : صم صيام نبى الله داود ولا تزد عليه ، نصف الدهر ، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتنى قبلت رخصة رسول الله .

ولا يتسع المجال لرصد ما يحمل هذا الحديث من العبر ، ولكن الذى لا يفوتنا منها هو شدة حساسية عبد الله نحو ربه ، إذ ينهض لعبادته صائماً قائماً ، وهو بالأحرى ذو حساسية مفرطة حين يحدث عن نبيه ، وحين يبين الحلال والحرام لمن يجتمع حوله من السامعين .

على أن أهل مصر قد تناقلوا أحاديث ابن عمرو تدويناً وكتابة ، فاقتدوا به فى تسجيل المأثور عن رسول الله ! وذلك ما ينقض المتعارف من إبطاء حركة التدوين إلى عهد بنى مروان ، فقد روى المقريزى عن حيوة بن شريح قال : دخلت على حسين بن شفى الإصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ، فقلت له : ماله ؟ فقال : عمد إلى كتابين كان أبى شفى جمعهما مما سمع من عبد الله عن رسول الله ، أحدهما عن أقضيته ، والثانى عن أنباء يوم القيامة ، فأخذهما وأضاعهما . ومعنى ذلك أن الحديث لم يكن مدوناً فحسب ، بل كان مبوباً وفق الموضوعات ؛ فللأقضية باب ، ولأخبار القيامة باب ، وهكذا . ومعناه الثانى أن مصر قد أسهمت فى رواية الحديث ونقله منذ عهد مبكر ، وأن مقام عبد الله بها قد ترك أثره فى هذا الاتجاه ، وإذا وجدنا أمثال يزيد بن حبيب ، وابن لهيعة ، وابن وهب ، يتجهون وجهة المأثور فى الإفتاء ، فذلك توجيه عبد الله .

وإذا كان الليث بن سعد من أبرز أعلام التشريع فى مصر ، حيث انتهى إليه ما تسلسل منذ عهد ابن عمرو من القضايا والأحكام ، وشاع ذكره حتى عد بين الأفراد ، فإن التاريخ ليحفظ له مناظرة فقهية بينه وبين مالك تصور ما كان يجرى من حوار بين عالم المسجد النبوى وفقيه المسجد المصرى ، وفى الإلمام بها ما يبرز تصاول العقول ، وتبادل الأفكار ، مهما بعد المدى ونأت المسافات .

بين عالم المسجد النبوى

(وعالم مسجد الفسطاط)

الحقيقة بنت البحث ، وللوصول إلى هذه الحقيقة تتصاول عقول وتتنازع أقلام ، وقد يكون المتناظران من أصحاب الضمير العلمى النزيه ، فتسفر الحقائق واضحة بعد الجولات المخلصة دون أن يحجبها غيم ، أو يحول دونها نقاب ، وهذا فى القليل المشاهد ، أما الكثير الملموس لدينا فى تاريخ الجدل العلمى فقد اصطدم بأهواء مغرضة باعدت بينه وبين الصواب الصريح ، لذلك اضطر علماء البحث والمناظرة إلى تقرير آداب علمية تعصم من الشطط والجموح ، ووجد لدينا علم قائم برأسه ، يعرف بعلم آداب البحث والمناظرة ، وقد كان فى علم المنطق بقضاياه ومسائله ما يحول دون الشطط . ولكن وجد من أرباب السفسطة من جعل قضايا المنطق تخب إلى أهوائه ، فامتهن الأقيسة والأشكال امتهاناً إن دلّ على قوة الاحتيال ومرونة الذكاء فقد دل على زيف الخلق وفساد الضمير ، وأذكر أن الإمام الغزالى قد بسط البحث العلمى آداباً خلقية يرعاها المتناظران ، وكأنه يرى الخلق دعامة المنطق يستند إليها أقوى استناد ، وما اضطر الغزالى إلى تسطير هذه الآداب إلا لينقذ ذوى الجدل مما ينفجر تحت أقدامهم من مهاو ذات اتساع ، وكان الظن بأولى العلم أن يبتعدوا عن الشبهات ، ولكن النفوس هى النفوس .

قال أبو حيان : سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرائينى يقول لطاهر العبادى : لا تعلق كثيراً لما تسمع منى فى مجالس الجدل ، فإن الكلام فيها يجرى على ختل الخصم ومغالطته ودفعه ومغالبته ، فلسنا نتكلم لوجه الله خالصاً ، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا إلى الكلام ، وإن كنا فى كثير من هذا نبوء بغضب الله فإنا نطمع فى واسع رحمته ورضاه ، وأبو حامد الاسفرائينى من كبار الشافعية ، وقد وجد من الشجاعة ما دفعه إلى الاعتراف بمزالق الجدل

ومهاوى النقاش ، وهو بذلك يعبر عن حقيقة ملموسة بين أكثر المتجادلين ، حين ينقلب الجدل العلمى من الموضوعية إلى الذاتية ، فتتغلب الأهواء وتسيطر الأغراض ، إلا من رحم ربك ، وهم قليلون .

وقد أردت فى هذا المقال أن أبسط مسألة فقهية كانت إحدى موضوعات الجدل بين إمامين عظيمين من أئمة الإسلام ، لتكون نموذجاً عالياً للأدب الرفيع والخلق الرصين فى المناظرات العلمية ، إذا اتجه نقاشها وجهة خالصة للحقيقة ، وقد ظهر بين المتناقشين الكبيرين من كمال الخلق وخلوص النية وشدة التحرز ما يعصم من الانحدار ، وما ظنك بنقاش فقهى يقوم بين إمام المدينة (مالك بن أنس) وإمام الكنانة (الليث بن سعد) وهما من هما فى تاريخ التشريع .

— ١ —

وقد صدر الإمامان الكبيران عن خلق رصين ونظر نزيه ، لأن مثلهما الإسلامية قد فرضت عليهما آداباً مرعية تصل بهما إلى اجتلاء الحقيقة ، فبرهنا بذلك على أن الخلق النزيه دعامة العالم ، على ضوئه يسير وفى أفيائه يستظل ! وإذا أردنا اليوم أن ننشىء رجال البحث العلمى فى شتى ميادينه ؛ فلابد من تربية إسلامية تعصم الخلق وتضرب المثل ، وقد كانت تربية الإمامين فى دور الطلب مما ساعد على ارتقائهما العلمى والاجتماعى ، فهى الجذور الأصلية التى هيأت للشجرتين الوارفتين أن تساقطا أطيب الثمر وأحلاه ، ولابد من الإلمام ببعض ما ينبئ عن ذلك ، قبل أن نصل إلى موضوع المناظرة ، ليعرف القارئ أى نبع رائق تدفق منه أعذب الماء ، فروى الأفئدة وشفى الصدور .

استمع مالك فى دور الطلب إلى كبار الشيوخ من أمثال : الزهرى وربيعة ونافع وهشام بن عروة وابن جريج ، فأخذ عنهم نظافة المسلك قبل أن يأخذ عنهم رواية العلم ، وكانت أمه تدفعه إلى المذاكرة والصبر ، وقد ألبسته لأول عهده بالدرس ثياباً نظيفة وعمامة طويلة ، ثم قالت له : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه ! . فهى — إذن — أم حصيفة تجعل الأدب أول ما يحرص عليه الناشىء الطموح . وبهذا الأدب ثابر مالك وصابر واصطدم بالعقبات فما

ضجر ، قال ابن القاسم : (أفضى طلب العلم بمالك إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ، ثم أقبلت عليه الدنيا بعد ذلك) .

وحين أنس من نفسه الكفاية العلمية لم يتصدر للفتيا حتى عرض نفسه على أساتذته ليأخذ منهم براءة العلم ، وهو يقول فى ذلك : ما جلست للفتيا حتى شهد لى سبعون شيخاً بالعلم ، ويقول : لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلا .

هذا التشدد البالغ وليد أدب حساس ودليل تقدير تام لمسئولية العالم ، وصاحبه لا يهجم على الفتوى هجوماً دون تبصرة ؛ بل إنه ليتلبث فى بعض الأحوال ثم يقول : لا أدرى وقد ذهب المثل بقوله السائر : من قال لا أدرى فقد أفتى ! وصاحب هذا القول إذا ناظر وناقش لا يحرص على الفلج ، ولا يميل بالدليل إلى غير وجهه ! ولو حرص كل متناظر على الحق حرصه المتحرز لانحسم الخلاف بأيسر دليل .

ومتى وئدت فى نفس العالم شهوة التغاب فإنها تفسح المجال لفضائل رفيعة من التواضع والوقار والحلم والبعد عن المجاجة والمراء ! وهذه بعض أخلاق مالك إذ كان هادئاً رزيناً كثير الحلم ، يشهد الصلوات والجنائز ، ويعود المرضى، ويقضى الحقوق ، ويعدل بين تلاميذه فى حلقات الدرس ؛ فلا يهتم بطالب دون طالب إلا إذا آنس لدى بعض النبهاء حصافة ملموسة ، فإنه يحيل عليه فى تسامح بعض ما يوجه إليه من أسئلة ! وقد يلقى عليه السؤال فلا يجيب لوقته : إذ يرى من الحكمة أن يراجع النظراء فى موضوعه ! وسامعوه يجلونه عن أن يتعجلوا الإجابة ، وهذا ما عناه من قال فى شأنه :

يدع السؤال فلا يراجع هيبة ... والحاضرون نواكس الأذقان

ومع هذا التواضع للعامة فقد كان ذا عزة منيعة لدى الخاصة من الخلفاء والأمراء ، فقد كتب إليه هارون الرشيد يطلب أن يسعى الإمام إلى قصره فيحدثه ، فقال مالك للرسول فى عزة : العلم لا يأتى بل يؤتى ، فاضطر الرشيد إلى أن يسعى إليه ، فجلس فى حلقته مستنداً إلى الجدار ، والطلاب غير مستندين !

فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، إن إجلال رسول الله إجلال العلم . فاستوى الخليفة فى مجلسه وطفق يستمع !

وقد عرف عن الإمام أنه إذا أراد أن يحدث توضأ ، وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته ، وتمكن فى جلسته ، وقد سئل فى ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ! وقد استن سنة حميدة حين حرم على نفسه أن يركب مطيته فى المدينة حتى مع تقدم السن وضعف القوة عن المسير ، فإذا روجع فى ذلك قال : لا أركب فى مدينة بها قبر رسول الله ! ونحن نقرأ فى تراجم الأسلاف عمن استنوا بسنة مالك ، فكانوا يدخلون المدينة راجلين ، وكأن ألسنة حالهم تنشد مع المتنبى :

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة ⁂ لمن حل فيها أن نلم بها ركبا

هذا بعض ما يقال عن مالك ، أما الليث بن سعد فلا بد أن نلم بذور من حديثه ، وإن كان مالك أشهر ذكراً ، وأبعد صيتاً منه ، وقد قال الشافعى — رضى الله عنه — : الليث أفقه من مالك إلا أن قومه ضيعوه ، وكأنى بالشافعى رحمه الله ، لا يقصد إلى الموازنة قدر ما يقصد إلى التنويه بفضل الليث والاحتفاء بعلمه فى بلد ضيعه ؛ فلم يقبل على الاستفادة من فقه ، وتفسير ذلك أن لكل إمام من أئمة المذاهب الفقهية تلاميذ جمعوا مسائله ودرسوا فتاواه ثم استخلصوا من مجموعها قواعد المذهب فى ضوء الاتجاه الفقهى الذى ينتحيه الإمام ، كذلك فعل تلاميذ مالك وأبى حنيفة وغيرهما من الأفذاذ . أما الليث فلم يرزق من تلاميذه فى مصر من عكف على تدوين مسائله واستخلاص قضاياه ؛ فضاع عبيره فى الفضاء الفسيح دون أن يتنسم أريجه غير قلة من الناس ، وهكذا ضاع الليث فى مصر ، كما يفهم من كلام الشافعى رحمه الله ! وقد ذكر مترجموه أنه أدرك نيفاً وخمسين رجلا من التابعين ، فنهل من علمهم وعل ، وقد شد الرحال إلى الحجاز والعراق ليأخذ عن فقهاء الإقليمين ما يشد أزره العلمى ، وقامت له فى دور الحداثة مناظرات تشهد بفضله ونبوغه .

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : ليس فى المصريين من هو أثبت من الليث ابن سعد ، وهو قول مقتصد إذا قيس بقول الشافعى ، ومن تلاميذه : عبد الله

ابن المبارك ، وأشهب وهاشم بن القاسم ، ويونس بن محمد ، وغيرهم ، وقد رزق حظوة فى الجاه والمال لموقف له اشتهر مع الرشيد حيث أفتاه بما أرضى الحق فى مأزق ضاق بالخليفة حتى اتسع على يد الليث ، فأمر له بالجوائز والخلع وبإقطاع كبير فى الجيزة ! هذا من الناحية المادية . أما من الوجهة الأدبية فقد أمر الرشيد عماله بمصر أن يصدروا عن أمر الليث فى مهام الأمور؟ وقد اكتظت رحابه بما منح من الخير ، إذ بلغ دخله السنوى من إقطاع الجيزة مائة ألف دينار ، لم يكن ليخزن منها شيئاً للعام القابل ، بل كان يفرق أكثرها على المساكين والفقراء ، حتى لم تجب عليه فيها الزكاة ، إذ لم تبق فى حوزته سنة كاملة تستحق بها الفريضة ، وقد أحصوا بيوتاً كثيرة لنساء من الأرامل كانت ذات راتب شهرى لدى الليث ، ومع هذه الثروة الطائلة فقد كان الزهد سبيله فى المأكل والمشرب ، فلم يسرف قليلا أو كثيراً فى متع الحياة ، والزاهد الحق من ينصرف عن اللذائذ وهى فى متناول يده ، حيث تتكاثر دواعى الإغراء ، وتتمهد وسائل الترف ، أما من يزهد عن فقر واحتياج فقد اضطر .

وتنقل بعض الروايات أن مالكاً — رضى الله عنه — قد كتب إلى الليث يقول : (إنك تأكل الدقاق وتلبس الرقاق وتمشى فى الأسواق) ، فأجابه الليث بقول الله عز وجل : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ! وأنا أشك فى مثل ذلك ، لأن مالكاً — رضى الله عنه — كان أكثر عمره ذا سعة ورخاء — وإن لم يبلغ فى ذلك مبلغ الليث — وقد كان يأخذ بنصيب طيب من المباح فى المأكل والملبس والمشرب ، ومن أقواله فى ذلك : (ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يظهر أثر نعمته عليه ، وبخاصة أهل العلم) ، وقوله : (التواضع فى التقى والدين لا فى اللباس) ، كما كان له رداء عدنى اشتراه بخمسمائة درهم ، على حين يلبس الطيالس البغدادية والثياب الخرسانية ! فإذا كان هذا شأن مالك فى التمتع بالمظهر اللائق لأهل العلم ، فكيف ينكر ما يفعله على الليث بن سعد .

ولعل من الأوفق أن نشير بهذه المناسبة إلى أن من جلال الفقيه أن يبرز للناس فى زى نظيف جميل ، وفى مظهر طيب فائق ، لأن الأثر الحسى يلقى ظله على الأثر

المعنوى ، وما أتى أكثر المتقشفين من رجال العلم إلا من هوانهم على أنفسهم ، فهانوا على الناس ! ومن المؤسف أننا نخطئ معانى التواضع فنظنها تتخذ سماتها فى الملبس الخشن والظهر المنحنى والصوت الهامس ، مع أن التواضع الحقيقى إحدى المعانى النفسية التى تظهر فى السلوك والمعاملة ، غير متقيدة بسمت خاص يوحى بالتضاؤل والانزواء !

ومن المفيد أن نذكر أن الليث بن سعد كان يغرق مالكاً فى هداياه الكثيرة ، وقد أرسل إمام دار الهجرة إلى صاحبه فى مصر يطلب قليلا من العصفر يصبغ به ثياب تلاميذه ، فأرسل إليه الليث مقداراً كبيراً صبغ ثياب التلاميذ والجيران وبقى منه ما بيع بألف دينار ! كما ذكروا أن مالكاً أهدى إليه طبقاً من تمر المدينة فأعاده مملوءاً بالذهب ! وفى ذلك ما يدل على تمكن الود واتصال الوشائج بين الرجلين ، فلولا أن مالكاً يعرف قدر صاحبه وطهر مورده وكريم سخائه ما قبل هداياه ، ولولا أن الليث يقدر مكانة مالك ويرعى مقامه العلمى ما والى إليه تحفه الغالية !

وقد كان إهداء التمر إلى الليث رمزاً طاهراً لثمر المدينة التى شرفها الله بمثوى رسوله يبعث إلى الكنانة ذات الولع الشغوف بتنسم الأجواء الطاهرة فى منزل الوحى ! فهو رمز روحى يستحق أن يكافأ بالذهب دون مغالاة ، وهذا بعض ما عناه ابن سعد حين تقبل التمر فى شغف وإجلال .

ومع اتصال الهدايا العينية قد اتصلت المراسلات العلمية بين الإمامين ، إذ أن نقلة العلم من المدينة إلى الفسطاط ومن الفسطاط إلى المدينة قد حملوا لإمام دار الهجرة بعض ما أصدره الليث من أحكام فقهية فى مصر كانت مدعاة النظر لديه ، فرأى أن ينبه صاحبه إلى ما عنّ له بشأنها من نظر ، وقد عفى الزمن على هذه المراسلات المتتابعة إلا رسالتين تبودلتا بشأن عمل أهل المدينة ، ومكانه من التشريع ، فقد حفظتهما الكتب المدوّنة — كمثل نادر للرسائل الأخرى ، وقد تأكد لنا ذلك حين رأينا رسالة الإمام مالك تشير إلى كتب سابقة لا نعلم شيئاً عن مضمونها ، ومن الغريب أن رسالة الإمام الليث قد حفظت جميعها دون بتر واختصار ، أما رسالة الإمام مالك فنصها ينبيء عن بعض ما حذف منها

بتصرف الرواة ! وكان الظن أن يتطرق الحذف إلى رسالة الليث دون صاحبه ، لأن لمالك من الأشياع والأنصار من تركوا عشرات الكتب الجامعة ، فبذلوا أقصى ما تتحمله الطاقة فى تدوين كل ما أثر عنه ! أما الليث فقد أضاعه قومه فقيهاً وكاتباً ، فبقاء رسالته وافية شافية تتناقلها الأجيال مما يمنح بعض العزاء لدارسيه المتعطشين .

ويخيل إلىّ أن المودة بين الرجلين قد ساعدت على الصراحة النزيهة فى القول دون غضب أو ملام ، فقد بدأ مالك بتشديد النكير على صاحبه فى مسألة خصها بالحديث جلية دون مواربة ، فعقب عليه الليث بما يرى أنه الحق ، ثم رأى المجال ذا سعة ، فعمد إلى مسائل أخرى — من فقه مالك — يخصها بالنقد والتشريح مشدداً النكير فى قوة ، وهكذا العلماء من الأماثل لا تمنعهم أصالة الود وقوة الإخاء وقديم الصحبة ، أن يتكاشفوا أصدق المكاشفة فيما يصدرون من الأحكام ، وذلك بعض ما أخذ الله عليهم من الميثاق حين منحهم العلم كى يظهروه ولا يكتموه ! وأظن القارئ قد اشتاق إلى معرفة ما دار من النقاش بعد هذا التمهيد .

— ٢ —

كان الليث بن سعد قد أفتى بمصر فى بعض المسائل الفقهية بما يخالف ماعليه العمل بين أهل المدينة المنورة ، بينما يرى مالك رضى الله عنه أن إجماع أهل المدينة وحدهم يكون حجة على من خالفهم فى حالة انعقاد إجماعهم ، فإذا اجتمعوا لم يعقد بخلاف غيرهم ، وهى مسألة أصولية يلتزمها علماء المذهب المالكى ، ويضيفون إليها فوق ذلك أن خبر الواحد من نقل أهل المدينة يرجح ما يعارضه من خبر مخالف تناقله أهل المدن الأخرى . ويعلل مالك هذا التفضيل بقوله : انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من آخر غزواته ومعه نحو كذا وكذا ألفاً من الصحابة ، مات بالمدينة منهم عشرة آلاف وباقيهم تفرق فى البلدان ، فأيهما أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم ؛ من مات عندهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين ذكرت ، أو من مات عندهم واحد أو اثنان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضى عياض .

ولا جدال فى أن الحجاز بعامة والمدينة بخاصة ، كانا مهد الإسلام وموئل الصحابة والتابعين ، وأنه ظل بمنأى عن التأثير الوافد من حضارات أجنبية من إغريقية ورومانية وفارسية فيما يتصل بالتشريع ، لاعتماده على الرواية المتواترة ، والعمل المتعارف ، فإذا اتصل العراق بالحضارة الآشورية والكلدانية والفارسية ، واتصل الشام ومصر بالحضارة الإغريقية والرومانية ، فقد بقى الحجاز إلى عهد مالك خالصاً للقرآن والحديث ، فيما يتعلق بالاستدلال والبعد عن القياس النظرى ، حتى الذين وفدوا إليه من الموالى وتعمقوا فى الدراسة الدينية من أمثال قارئ مكة الفارسى ابن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، وقارئها الرومى إسماعيل بن قسطنطين المتوفى سنة ١٧٠هـ ، وغيرهما من الفقهاء قد اتجهوا إلى المنهج السلفى فى التلقى المباشر البعيد عن كل تأثير أجنبى ، مما يدل على أن المدينة قد احتفظت بالفقه النبوى الخالص ، ولكن هذا كله لا يمنع مناقشة القضية الأصولية التى تبناها الإمام مالك ودافع عنها فى صدق ! وإذا كان مؤرخو التشريع وعلماؤه قد أوسعوا هذه المسألة إيضاحاً وتحليلا فإن الليث بن سعد هو الفقيه الأول الذى تصدى لمناقشة مالك رضى الله عنه فى دعواه ، ومن الواجب أن نذكر أن الليث رضى الله عنه لم يبدأ بالمعارضة ، ولكن مالكاً قد ابتدأ بتحذيره حين أرسل إليه رسالته الناقدة ، فابتدأ المناظرة بقوله :

(من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : عصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية ، وعافانا وإياكم من كل مكروه ، واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذى نحن فيه ، وأنت فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلهم إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ... » الآية ، وقال تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، فإن الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، إذ رسول الله بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ، ويسن لهم فيتبعونه ،

حتى توفاه الله واختار له ما عنده ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ، ممن ولى الأمر من بعده ، فما نزل بهم مما علموا أنفذوه وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك فى اجتهادهم ، وحداثة عهدهم ، وإن خالفهم مخالف ، أو قال أمراً غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره .

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل ، ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً ومعمولا به لم أر لأحد خلافاً للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها . ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا ، ولم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم ، فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك ، واعلم أنى أرجو ألا يكون ما دعانى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده ، والنظر لك والظن بك ، وأنزل بكتابى منك منزله ، فإنك إن فعلت تعلم أنى لم آلك نصحاً ، وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وكتب يوم الأحد لتسع مضين من صفر) .

هذا نص رسالة الإمام مالك ، وهى فوق دلالتها الفقهية تشير إلى جوانب أخرى من مناحى مالك المتعددة ، فهى تصور أسلوبه العلمى فى الجدل ، وكماله الخلقى فى النقاش ، وخشيته الدينية فى الفتوى ، وترسم ما كان للوضوح الناصع من مزية فى جدال العلماء ، وقد خلف بعدهم خلف يجعلون من التعمية بالمصطلحات الفقهية ، والاقتضاب المخل فى العبارة ، نمطاً يحتذى لدى النقاش .

وقد اهتم الليث برسالة صاحبه ، فقرأها قراءة واعية ، ورد عليها فى قوة وجزالة ووضوح ، ولو جرت الكتب الفقهية مجرى الرسالتين فى تحرير النص ومنهج الاستدلال ما أصيب الفقه الإسلامى فى عصوره المتأخرة بهذا الركود الآسن الذى جعل من حواشيه الغامضة ألغازاً وأحاجى تحتاج إلى شروح وتفاسير ، وإذا كان رد الليث مسهباً مطيلا ، فنحن نجتزئ بما يشير إلى طريقته وينم عن منهجه ،

محيلين القارئ إلى الجزء الثالث من أعلام الموقعين ، ليجد النص بكماله الصريح ، قال الإمام الليث بعد أن أوجز المضمون الفقهى لرسالة صاحبه :

(وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى ، والحمد لله رب العالمين الذى لا شريك له ، وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها بين ظهرانيه وأصحابه ، وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعاً لهم فيه ، فكما ذكرت ، وأما ما ذكرت من قول الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » ، فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموهم شيئاً علموه ، وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره القرآن والسنة ، وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمراً فسره القرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا به بعده إلا علموه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة ، ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، وكان من خلاف ربيعة لبعض من

قد مضى ما عرفت وحضرت ، وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه فى الشيء الواحد — على فضل رأيه وعلمه — بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك ، فهذا الذى تدعونى إلى ترك ما أنكرت تركى إياه) .

وقد قلت — فيما سبق — إن نص رسالة الإمام مالك ينبئ عن بعض ما حذف منها بتصرف الرواة ، ودليلى على ذلك أن رسالة الليث تضمنت الرد على أحكام فقهية لليث قد اعترض عليها مالك دون أن نجد ما يشير إليها فى رسالته ! وهو دليل ترجيح فقط ، لاحتمال أن تكون هذه الأحكام مما أنكره مالك فى مجلسه العلمى دون أن يدوّنه فى رسالته فنقله الطلبة إلى الليث عن مالك ، فاضطر إلى الرد عليه صريحاً فى رسالته الشافية ! وسنلم بطرف من هذه الأحكام :

١ — أنكر الإمام الليث أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، فعاب عليه ذلك الإمام ؛ إذ أن العمل فى المدينة قائم على إباحة هذا الجمع ، فاحتج الليث فى رسالته بأن مطر الشام أكثر من مطر المدينة ومع ذلك فإن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام مثل أبى عبيدة بن الجراح وبلال بن رباح وأبى الدرداء ومعاذ بن جبل وخالد بن الوليد وغيرهم ، لم يجمع منهم أحد بين الصلاتين فى ليلة من ليالى المطر ، كذلك لم يجمع بين الصلاتين أبو ذر والزبير وسعد بن أبى وقاص فى مصر ، وعلىّ بن أبى طالب فى العراق ومعه لفيف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — ضرب الليث مثلا لجواز مخالفة أهل المدينة بمسألة القضاء بشاهد واحد مع يمين صاحب الحق ، إذ كان أهل المدينة يرتضون ذلك ، ولكن صحابة رسول الله بالشام والعراق ومصر لم يرضوا إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين ، وقد اضطر عمر بن عبد العزيز إلى العمل بذلك فى الشام بعد أن كان يأخذ بعمل أهل المدينة وهو وال عليها ، إذ لا يرى الإلزام بعمل بلد خاص .

٣ — ضرب الليث مثلا آخر لجواز مخالفة أهل المدينة بمسألة مؤخر الصداق ، إذ أن أهل المدينة يقضون بأن المرأة لها أن تتسلم مؤخر صداقها متى شاءت ، وهى فى عصمة زوجها ، وقد وافقهم على ذلك العراقيون ، أما صحابة رسول الله صلى

الله عليه وسلم بمصر والشام فلا يقضون بمؤخر الصداق إلا حين يفرق بين الزوجين بموت أو طلاق !

ولو اكتفى الإمام الليث بهذه النقاط الثلاث وما ينحو منحاها مما أفاض فيه لأقنع وأفاد ، ولكنه انتقل من الدفاع إلى النقد حين هاجم بعض الآراء الفقهية لمالك مما رآه الليث مخالفاً لعمل أهل المدينة ، أو لما أجمع عليه فقهاء الأمصار ، ومن ذلك على سبيل المثال :

١ — لقد أمر الإمام مالك زفر بن عاصم أن يقدم صلاة الاستسقاء على الخطبة ، وذلك غير ما سار عليه أهل المدينة ، إذ كان فقهاؤها يرون البدء بالخطبة قبل الصلاة ، وقد استنكروا فعل زفر بن عاصم واستهجنوه ؛ إذ جرى على غير ما ألفوه من عمر بن عبد العزيز وأبي بكر بن حزم وغيرهما ! فكيف خالف الإمام عمل أهل المدينة في ذلك ، إلا أن يكون تنازل عن تشدده بعض الشيء في اتباع المدنيين .

٢ — يرى مالك أن الخليطين في المال لا تجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة !

ثم إن عمر بن الخطاب كان ممن يوجب الصدقة دون أن يشترط بلوغ النصاب لدى كل خليط ، وعلى ذلك سار عمر بن عبد العزيز وأفاضل الفقهاء بالمدينة ، فكيف خالفهم مالك ؟

٣ — انفرد الإمام مالك بقوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يتحدثون أنه أعطاه لفرسين ومنعه الثالث ، والأمة كلها على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق ! فكيف يجوز أن يخالف ما أجمع عليه المسلمون لرواية رجل واحد !

ثم قال الليث في خاتمة رسالته : وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، ولما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسي بمكانك ، وإن ناءت الديار فهذه منزلتك عندي ، ورأيي فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب بخبرك ، وحالك وحال ولدك

وأهلك ، وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك فإنى أسر بذلك .. والسلام عليك ورحمة الله !

هذا تلخيص أمين لبعض الفروع الفقهية التى كانت باب المجاذبة بين الفقيهين ، ونقول لبعض الفروع ؛ لأن الأصول الإسلامية بمنأى عن الاختلاف ، وكل ما تغاير فيه النظر بين الفقهاء من الأحكام لا يخرج عن النقاط الفرعية التى تتحمل أكثر من وجه فى الاستدلال ، بحيث يصعب القول بالتخطئة المطلقة ، فالأمر دائر فى نطاق الترجيح وفق ما يوحى به مفهوم الدليل ، وأذكر أن أستاذنا المغفور له الشيخ محمد محمد المدنى قد أشار إلى توجيه ذلك فى بحث نشره عن الليث بن سعد ؛ إذ علل لكل حكم بما يتفق ووجهة نظر صاحبه ، وذلك فى بعض أعداد المجلد الحادى عشر من مجلة الأزهر الشريف ، ونحب أن نمتع القارئ ببعض ما ذكره الأستاذ المدنى عن حكم الجمع بين الصلاتين فى المطر كنموذج دقيق لمنحاه ؛ إذ قال ما ملخصه :

(إن الليث يثبت أن أهل الشام وفيهم الصحابة لم يجمعوا قط فى ليلة ممطر ، ولا ينكر ولا يسعه أن ينكر أن أهل المدينة يجمعون ، فهو إذن يقرر أن الجمع وعدم الجمع كليهما صحيح يستند إلى الصحابة ، ولكن فى المسألة باطناً غير هذا الظاهر حمله على الإنكار حين أنكر ، وعلى الإصرار حين روجع ، ذلك أنه لمح العلة فى إباحة الجمع لليلة المطر ، وهى التخفيف ، ثم نظر فوجد مطر المدينة قليلا متقطعاً لا يلح ، فإذا انهمر دافقاً كان ذلك غريباً بين أهل المدينة ، ووجدوا فيه مشقة لا تؤلف ، أما فى الشام فالمطر كثير ملح ، وقد ألف أهل الشام سحه وتسكابه وأعدوا له ما ينفى المشقة ، فلذلك أبيح من الجمع لأهل المدينة ما لم يبح لأهل الشام نظراً لمشقته فى المدينة دون دمشق ، وهذا أحد المواضع التى تأثر الفقه فيها بالإقليم والمناخ ، أو بعبارة أدق أحد المواضع التى تفيد تقيد التشريع بظروف الإقليم وطبيعة المناخ) .

ونحن بعد عرض هذه المطارحة الفقهية وما تبعها من تفسير وتحليل ندعو علماء التشريع الإسلامى أن يقتدوا بالإمامين الكبيرين فى سعة الصدر ورحابة الأفق وصراحة الحديث ، والعلماء ورثة الأنبياء .

مسجد الكوفة

اشتهر مسجد الكوفة بحركته العلمية ذات التأثير البعيد فى التشريع الإسلامى، لأن عبد الله بن مسعود كان من أنصار الاجتهاد ، وقد أقام بالكوفة أمداً غير قصير معلماً دارساً شارحاً لكتاب الله ، وإذا كان ابن مسعود قارئاً ندى الصوت ، حافظاً لكتاب الله ، حسن التلاوة ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطلب منه أن يقرأ القرآن ليسمع ، إذا كان ابن مسعود كذلك ، فإنه عمل على إحياء مدرسة للقراءة بالكوفة ، تجردت للضبط والإتقان ، وتخصصت فى الترتيل الجيد لهجة ومخرجاً ووقفاً ، فمن رجال القراءات بالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبى النجود ، وسليمان الأعمش ، وحمزة الزيات ، والكسائى ، ومعروف أن ثلاثة منهم ، وهم حمزة وعاصم والكسائى يعدون من أئمة القراءة السبعة الذين رزقوا حظوة بين المسلمين ، فإذا استطاع مسجد الكوفة أن يبرز هؤلاء الأعلام فى مجال القراءات فقد وفق إلى خير كثير .

أما أثر المسجد الكوفى فى مجال التشريع فأوضح من أن يشار إليه ، لأن مدرسة الرأى التى انتهت زعامتها فيما بعد إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، قد نشأت بالكوفة ، وذلك لأن العراق قد ورث حضارة ومدنية ، وانتشر فيه الموالى من سبى فارس ، ولم يكن الفتح الإسلامى سلباً وتدميراً ، ولكنه كان رعاية ومساواة وعدالة ، فواجه المسلمون فيما فتح عليهم من البلاد مسائل جديدة تحتاج إلى أحكام فقهية ، فلا بد من استعمال الرأى ، وهذا ما قام به عمر بن الخطاب ، وما أوصى به عماله وقضاته حين لا يجدون شيئاً من كتاب الله ، ولا صحيحاً من قول الرسول ، وقد أفتى أبو بكر ، وزيد بن ثابت ، وأبىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل بمثل ما أفتى به عمر ، مستعينين بالاجتهاد القائم على القياس ، وبذلك كان السبيل ممهداً لأئمة الفقه فى المسجد الكوفى ، وفى مقابلة المسجد الكوفى كان علماء

المسجد النبوى يقفون عند ظواهر النصوص بدون بحث فى عللها ، ولهم مع مخالفيهم مناقشات وردود .

تزعم المسجد الكوفى الرأى حتى اشتهر كبير علمائه بربيعة الرأى ، وهو فقيه مشهود له بالاطلاع والدربة ، قال عبد الله بن سوار القاضى : ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة بالرأى ، فقيل له : ولا الحسن البصرى ، وابن سيرين ؟ قال : ولا الحسن ، ولا ابن سيرين .

يقول الأستاذ محمد الخضرى فى كتابه (تاريخ التشريع الإسلامى)[1] :

(كان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بأنهم يتركون بعض الأحاديث لأقيستهم ، وهذا من الخطإ عليهم ، ولم نر فيهم من يقدم قياساً على سنة ثبتت عنده ، إلا أن فيهم من لم يرو له الأثر فى الحادثة ، أو روى له ولم يثق بسنده ، فأفتى بالرأى ، فربما كان ما أفتى به مخالفاً لسنة لم تكن بمعلومة له ، أو علمت ولكنه لم يثق بروايتها ، أو عارضها ما هو أقوى فى نظره ، كما روى سفيان بن عيينة قال : اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى فى دار الحناطين بمكة ، فقال الأوزاعى لأبى حنيفة : ما بالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : لأجل أنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شىء ، قال : كيف وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع وعند الرفع ، فقال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شىء من ذلك ، فقال الأوزاعى : أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، وتقول : حدثنى حماد عن إبراهيم ، فقال أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهرى ، وكان إبراهيم أفقه من سالم ، وعلقمة ليس بدون ابن عمر ، وإن كان لابن عمر صحبة أو فضل صحبة فالأسود هو الأسود، وعبد الله بن مسعود هو عبد الله بن مسعود ، فسكت الأوزاعى) .

نقل هذا الحوار ليفهم القارئ أن الرأى لا يعد تحكماً ، وخروجاً على النص ،

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ، ص ١٤٦ — الطبعة الخامسة .

ولكن المسألة تدور حول صحة النص والتيقن من صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا كان الحديث النبوى صحيح الرواية فلا خلاف ! ! ولعل الفيصل فى ذلك كله هو قول أبى حنيفة رضى الله عنه : (آخذ بكتاب الله ، فما لم أجد فبسنة رسول الله ، فما لم أجد فيهما أخذت بقول صحابة رسول الله ، آخذ بقول من شئت منهم وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم أو الشعبى أو ابن سيرين أو الحسن أو غيرهم فقوم اجتهدوا ، وإنى لأجتهد كما اجتهدوا)[١] .

فإذا تركنا علوم الشريعة إلى علوم العربية فإننا نجد مسجد البصرة قد سبق مسجد الكوفة فى مجال اللغة والنحو ، لأن الكوفة كانت أكثر اهتماماً وأولى سبقاً فى مجال رواية الشعر والأخبار ، ولعل الذى قعد بالبصرة عن السبق فى رواية الشعر أنها كانت أكثر اختلاطاً ، وأشد ازدحاماً بالموالى والغرباء ، فكانت الحاجة إلى تعلم النحو بها أوجب وأرعى ، وقد قال الأستاذ يوسف خليف بصدد ذلك[٢] :

(ونستطيع أن نقول إن البصرة كانت مدينة العلم ، فى حين كانت الكوفة مدينة الفن ، وضعت الأولى قواعد العلم العربى ، ووضعت الأخرى نماذج الفن العربى ، وكلتا المدينتين لم تكن بمعزل عن الأخرى فى قانون التأثر والتأثير) .

والموازنة بين المدينتين فى مجال السبق الزمنى فقط ، لأن علماء الكوفة قد نشطوا للنحو واللغة ، كما نشط علماء البصرة للأشعار رواية ودراية ، وللأخبار الأدبية نقداً وتسجيلا ، وإذا كان عيسى بن عمر الثقفى وأستاذه أبو إسحاق الحضرمى أول نحاة البصرة ، وقد توفى الأول سنة ١٤٩ هـ ، وتوفى الثانى سنة ١١٧ هـ ، فمعنى ذلك أن البصرة قد سبقت الكوفة بنحو مائة عام ، حتى نهض بها أبو جعفر الرؤاسى ، وكان معاصراً للخليل بن أحمد ، فكان رأس المدرسة الكوفية ، ويقول ثعلب الكوفى : إن أبا جعفر كان أول كوفى وضع كتاباً فى النحو ، ثم جاء بعد الرؤاسى تلميذاه الشهيران الكسائى والفرّاء ، وبهما قامت المدرسة النحوية فى هذا المسجد ، وامتد لها من الصيت ما ظل أثره متردداً فى كتب النحو إلى اليوم .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٣٦٨/١٣

(٢) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٦١

وقد أكثر الدارسون من الموازنة بين المدرستين ، حتى ألفت كتب مستقلة في الموازنة بينهما ، وجاء ابن الأنبارى ليضع كتابه (الإنصاف فيما بين البصريين والكوفيين من الخلاف) ليكون أبا الحسن لهذه القضية ، وقد وفق إلى اهتداء كبير وإن وجد من يعقب عليه تأييداً ونقضاً ، وتلك سنة الباحثين .

ونذكر فى مضمار البحث اللغوى بمسجد الكوفة أبا عمرو الشيبانى ، وابن الأعرابى ، كما يذكر الكسائى والفراء إذ لم يقتصرا على فن واحد من فنون العربية ، وكلهم ثقة فيما كتب إلا ما يروى عن أخطاء لابن الأعرابى تحامل عليه فى نقدها بعض المؤرخين ، ولكننا فى مجال الحق نرى أن الخطأ لم يسلم منه أحد ، وأن محاولة انتقاص ابن الأعرابى بما وقع فيه من الخطإ ظلم لا مبرر له ، فحسبه أن جاء بصواب كبير .

لقد كان مسجد الكوفة ذا فضل جهير فى نشر الثقافة الإسلامية ، وسنختار عالمه الأول عبد الله بن مسعود مثالا لأحد أساتذته ، لأن ابن مسعود على فضله العلمى قارئاً ومفتياً وفقيهاً ، لم يجد من يخصه بدراسة مستأنية ، فلعل باحثاً ينهض لإنصافه العلمى ، محللا آراءه ، شارحاً قضاياه ، لنعرف من نضاله العقلى ما نعلمه من جهاده الإسلامى بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين .

عبد الله بن مسعود

رزق عبد الله بن مسعود جرأة وشجاعة ، فحين أشرب قلبه الإيمان ، وكان غلاماً رقيق الحال ، يرعى الغنم لأحد العتاة الباغين من كفرة قريش ، جعل يكثر من الذهاب إلى دار الأرقم دون تحرّج ، ولم يجعل إيمانه سراً بينه وبين نفسه ، بل أراد أن يتحدّى به السادة الكبار وهو ضعيف لا ظهير له ، اجتمع يوماً مع صحابة الرسول فأخذوا يقولون : هذا القرآن نتلوه فى دار الأرقم ، وما سمعت به قريش ، فمن منا رجل يسمعه إياهم ؟ قال ابن مسعود : أنا ذلك الرجل ! فتعجبوا لما يرون من ضعف حاله ، وضآلة جسمه ، وقالوا : نخشى الجبابرة عليك وما أحد يحميك ، فقال فى ثقة : دعونى فإن الله سيمنعنى .

وطلع الصباح ونهضت قريش إلى مجلسها من الكعبة فسمعت صوتاً مؤمناً ينبعث من مقام إبراهيم ، وقد جعل يتلو قول الله : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » ، فدهشوا ، وهرعوا إلى صاحب الصوت ، فرأوه عبد الله ابن مسعود ، فسألوه متعجبين ، فأعلمهم أنه قد أسلم ، فاندفعوا يضربونه فى وجهه ، وهو لا يكف عن القراءة حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى المسلمين ودمه يصبغ وجهه ، فقالوا له متألمين : هذا ما كنا نخشاه عليك ، فقال فى ثبات : ما كان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن ، ولو شئتم لغاديتهم بمثلها ، فقالوا : حسبك لقد أسمعتهم ما يكرهون .

اشتد اتصال ابن مسعود برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يفارقه فى منزله أو مسجده ، كان يقوم على خدمته ، يلبسه نعله ويمشى معه وأمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويستمع إلى حديثه بالمسجد مدققاً واعياً ، حتى صار وعاء ملء علماً كما قال عنه عمر بن الخطاب ، وعمر صادق لا يصف أحداً بما ليس فيه ، قال أبو موسى الأشعرى : لقد قدمت أنا وأخى من اليمن ، وما نرى

عبد الله بن مسعود إلا رجلا من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، لما نشهد من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله !

ولما اشتد أذى قريش للمسلمين هاجر ابن مسعود إلى الحبشة ورجع منها ليهاجر إلى المدينـــة ، وله موقف رائع فى غزوة بدر لا ينسى ، إذ جاهـد مع المجاهدين ، فلما انهزم المشركون جعل يتفقد الجرحى باحثاً عن أبى جهل ، استجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجده يجود بآخر رمق ، فوضع رجله على عنقه ، فصاح أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى عظيما يا رويعى الغنم ، فأخبرنى لمن الدائرة ؟ فقال : لله ورسوله وإنى لقاتلك ، فقال أبو جهل متحسراً : إن أشد شىء علىّ قتلك إياى ! ثم جزّ رأسه ، وجاء إلى رسول الله صائحاً : هذا رأس عدو الله ، فقال الرسول ؛ آلله الذى لا إله غيره ، ورددها ثلاثاً ، فقال : نعم ، وألقى برأسه بين يديه ، فحمد الله شاكراً .

روى الترمذى : عن حذيفة أن أناساً قالوا له : حدثنا بأقرب الناس دلا وهدياً من رسول الله ؛ فقال : لقد علم أصحاب رسول الله أن ابن مسعود من أقربهم إلى الله زلفى .

وجاء فى الطبقات عن أبى عطية الهمدانى قال : كنت جالساً عند عبـــد الله ابن مسعود ، فأتاه رجل فسأل عن مسألة ، فقال : هل سألت عنها أحداً غيرى ؟ قال : نعم ، سألت أبا موسى الأشعرى ، وأخبره بإجابته ، فخالفها ابن مسعود ، ثم قام ، فقال أبو موسى : لا تسألونى عن شىء وهذا الحبر بينكم .

وحين أنشئت الكوفة سيره ابن الخطاب مع عمار بن ياسر إليها ، وقال : إنهما من النجباء فى أصحاب محمد فاقتدوا بهما ، وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : لو كنت مؤمراً أحداً من غير شورى لأمرت ابن أم عبد .

وقد حفظ له التاريخ موقفاً رائعاً ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى ؟ قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد أجاب ، وقد حدث فقال : لم يحضر ليلة الجن أحد غيرى ، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون ،

خط لى خطاً ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود عليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً ، حتى خفت على رسول الله ، وغشيته أسودة كثيرة ، حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لى رسول الله : هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم ، رجالا سوداً يلبسون لباساً أبيض ، فقال : أولئك جن نصيبين » .

أما براعة ابن مسعود فى ترتيل القرآن فيخبر عنها ما رواه البخارى عن رسول الله عن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله : اقرأ علىّ ، فقلت : كيف أقرأ عليك القرآن ، وعليك نزل ؟ قال : إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى ، قال عبد الله: فقرأت عليه من سورة النساء حتى إذا بلغت قول الله عز وجل : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » قال لى : حسبك ، فنظرت إليه وقد أغرورقت عينا رسول الله بالدمع ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يقرأ القرآن فليقرأه قراءة ابن أم عبد » .

لذلك كان ابن مسعود يتصدر معلماً للقراءة ويقول : « جودوا القرآن » ، وفى الصحيحين « أن رجلا قال له : إنى أقرأ المفصل فى ركعة واحدة ، فقال عبد الله : هذّا كهذّ الشعر ، إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فلا يقع فى القلب فيرسخ فيه ، لا تنثروه نثر الدقل ، ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة » .

ولعمرى لنحن فى حاجة ماسة إلى تنفيذ هذه الإرشادات ، فأكثرنا يتلو القرآن دون تدبر ، بل يمر به مراً ، وقد قال الله عز وجل : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

اشتهر ابن مسعود بتلاوة الكتاب وحفظه ، وكان الصحابة يسمعون عنه بالمدينة ، فلما انتقل إلى الكوفة جعل يقرأ القرآن ويروى العلم ، ويحدث بأنباء رسول الله ، حتى أنشأ مدرسة فقهية دينية قرآنية تنتمى إليه ، فقد تلقى عنه عاصم ابن ضمرة ، والحارث بن عبد الله ، وزرّ بن حبيش ، وأبو عمرو سعد الشيبانى ، ومسروق بن الأجدع ، وزيد بن وهب ، وعلقمة بن قيس ، وأبو الأسود الدؤلى ، وإلى هؤلاء تنتهى قراءة عاصم وحمزة والكسائى من السبعة القراء ، وقراءة

خلف من العشرة ، وقراءة الأعمش من الأربعة عشر ، وقد اقتصر على ما وافق الرسم العثمانى من قراءته ، واشترطوا فى صحة التعبد بالقرآن أن يكون صحيح السند، وأن يكون موافقاً للرسم العثمانى وموافقاً للعربية بوجه من الوجوه .

ومما يدل على زهد ابن مسعود أنه — رضى الله عنه — فى مرضه الأخير ، عاده عثمان بن عفان فسأله : ما تشتكى ؟ فقال : ذنوبى ، قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى ، قال : ألا آمرلك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لى فيه ، قال : يكون لبناتك ، قال : أتخشى على بناتى الفقر ؟ لقد أمرتهن بقراءة سورة الواقعة كل يوم لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ الواقعة كل يوم لم تصبه فاقة أبداً .

وحين نستعرض تاريخ الحركة العلمية بالكوفة نجد أن ابن مسعود كان رائدها الأول ، لأن علىّ بن أبى طالب قد شغل بأعباء السياسة فى مدة خلافته بالكوفة ، إذ لم يرتح يوماً واحداً من دسائس الوصولية ، وأحقاد الجاهلية ، ولو تفرغ لنشر الفقه والتفسير لكان إمام الأئمة ذا القول الفصل ، لذلك كان ابن مسعود أكثر من حفظت عنه الفتيا بالكوفة ، وكأنما يشعر شعوراً داخلياً بواجبه العلمى ، وأنه بعث معلماً فقيهاً ، فابتنى داره إلى جانب المسجد ، ليكون ذا اتصال بالمصلين فى أقرب المناسبات ، ولعل اتجاهه الروحى فى منحاه الفقهى كان أقرب إلى عمر بن الخطاب ، إذا كان ابن مسعود ناقلا لآرائه ، محبذاً لها .

ويذكر ابن القيم أن عبد الله بن مسعود لم يكن ليخالف عمر بن الخطاب فى شىء أو حكم ، وإذا كانت ميزة الفاروق رضى الله عنه فى فقهه هى الاجتهاد واستعمال الرأى حيث لا نص من كتاب أو حديث موثوق براويه ، فإن هذا الاجتهاد الفقهى كان مشرب ابن مسعود ، وعنه انتقل إلى تلاميذه بالكوفة مع تشدد كبير فى رواية الحديث ، إذ كان مثل عمر رضى الله عنه ، لا يقبله من راو واحد حتى يشهد على صحته شاهدان ...

وفى بعض ما كتبناه فى الفصل السابق ما يشير إلى شيوع هذا الاتجاه فى الفقه الكوفى بتأثير مباشر من أستاذ المسجد عبد الله بن مسعود رحمة الله :

مسجد البصرة

يحتاج مسجد البصرة إلى كتاب برأسه ، فقد قدر لهذا البلد الطيب أن يكون المصدر الأول للحركة العلمية فى أزهى عصور العربية ، وكان علماؤه لا يقتصرون على البحوث الدينية ، بل يتكلمون فى كل ما يتجه إليه العقل من علوم ، بحيث كانت ساحة المسجد الممتدة مدرسة ذات فصول ، والفصول هى الحلقات المتنوعة فى المسجد ، فحلقة للنحو ، وحلقة لعلم الكلام ، وحلقة للفقه ، وحلقة للتفسير ، وحلقة للوعظ والقصص ، وحلقة للتاريخ والأخبار ، والناس يعرفون جميعاً دسامة هذه الحلقات ويخفون إليها من كل صوب ، بل إن الرشيد على جلالة قدره كان يتنكر فى بعض الملابس والأزياء ليشاهد بعض المصاولات الفكرية فى البصرة على حالها الطبيعى دون افتعال ، وكذلك فعل المأمون ، إذ أخذ يصطحب القاضى يحيى بن أكثم إلى حلقات المعتزلة بالبصرة ، لينعم بلذة الصيال الفكرى ، حين يرى رأياً يصول على رأى ، وحجة تقرع حجة ، والناس واعون متيقظون كأنما يسمعون لأول مرة كتاب الله .

وقد انتشرت سمعة المسجد البصرى الجامع فى العهد الأموى ، وإن كان عهده الأول يقتصر على دروس الفقه والوعظ ، ثم اتجه إلى دروس اللغة والنحو حين أخذ عبد الله الحضرمى يقرأ العربية على طلابه ، وقد خطأ كبار الشعراء ومنهم الفرزدق ، فثار عليه الشاعر الصلف وهجاه بأبيات منها قوله المشهور :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وتوالت دروس أبى عمر بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، تقيم للعربية مجداً شاهق الأوج ، رفيع العماد .

وكان للحسن البصرى مجلسه العلمى الرائع ، وفى حلقة درسه نشأ الاعتزال ، حين خاصمه تلميذه واصل بن عطاء ، واعتزل مجلسه إلى مجلس آخر ، وتابعه فى

اتجاهه عمرو بن عبيد ، واشتد الحجاج ، فكثر المعتزلة ، وظهر من رءوسها في المسجد الجامع أبو هذيل العلاف والنظام ، ومهما قيل فى الاعتزال من نقد ، فإن أعلامه الكبار هم الذين تصدوا للزنادقة والملاحدة ، وهم الذين حاربوا أعداء الإسلام بمنطق العقل فكشفوا عوارهم ، وكان اعتزازهم بالعقل مبعث نهوض فكرى ، لم يقف عند العقيدة وحدها ، بل امتد إلى كل بحث علمى .

وبذلك أصبح الفكر الإسلامى ذا ثروة رائعة نقف عليها اليوم فيما كتبه السابقون من تراث يصور أوجه الخلاف بين الفرق المتصارعة ، ولا يعي صاحب العقل البصير أن يتجه إلى ما يرتضيه من الآراء ، مقدراً وجهة نظر المخالف تقديره لوجهته التى يميل إليها ، وفى ذلك من سعة الصدر ورحابة الأفق ما يجب أن يكون على مدى الحياة .

على أن مجالس الوعظ والقرآن بالمسجد الجامع بالبصرة كانت أشد جذباً للعامة من رواد الحلقات ، إذ لا يصبرون على عمق الجدل الكلامى ، وتشعب مراميه ، وقد اشتهر بالقصص التهذيبي والوعظ الدينى نفر كبير منهم أبو ذر الهمذانى الذى قال عنه الجاحظ : ما سمعت أبا ذر يعظ الناس إلا خيل إلىّ أنه قد نفخ فى الصور وقام الناس لرب العالمين ، وما سمعت أحداً يقلده عن غير بصر إلا تمنيت أن يمشق بالسياط تسعين !

أما القاضى ابن سيار الأسوارى فقد كان عجيبة العجائب حقاً ، يقول عنه الجاحظ : إن فصاحته بالفارسية كانت تعدل فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلس وعظه فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن شماله ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، وللفرس بالفارسية ، فلا يدرى العالم باللغتين معاً بأى لسان هو أبين (١) ، وزميله الذى يجاوره فى الحلقة عمرو بن قائد لا يقل مكانة عنه ، وقد قضى ستة وثلاثين عاماً يفسر كتاب الله ، مبتدئاً بسورة البقرة ، ومضى عليه هذا الأمد الطويل دون أن يختم القرآن تفسيراً .

وكان عراك النحاة واللغويين لا يقل روعة عن عراك سواهم من المتكلمين ، فكثيراً ما اصطدم الأصمعى بأبى عبيدة فى حلقات المسجد الجامع ، وكانت الغلبة

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٤٦

فى الظاهر للأصمعى ، لأنه حسن المنطق ، فصيح المخارج ، بارع الفكاهة ، ولكن الذين يدققون فى صميم الحوار ويتعمقونه يعرفون عمق أبى عبيدة وبعد غوره ، وإن صد عنه تلكؤ لسانه ، وضعف بيانه أثناء الجدل .

وقد خاصم الأصمعى سيبويه فى بعض المسائل ، وانتصر عليه بلباقته المعهودة ، حين أخذ يشقق الحديث ، وينتقل من فن إلى فن ، ولكن الأصمعى نفسه كان يدرى أنه يخدع السامعين دون أن يصيب المقتل من صاحبه ، وفيما رواه يا قوت الحموى عن الأصمعى اعتراف صريح يدل على أنه يعرف منزلة من يناظرهم ، ويعلم أنهم يصيبون إصابة لا تحتاج إلى الحجاج لولا ما منيت به النفس البشرية من حب الانتصار وزهو الغلبة .

قال ياقوت(١) : قال أبو حاتم السجستانى : فقلت له — أى الأصمعى — : فى نفسى شىء أريد أن أسألك عنه ، قال : سل ، فقلت : حدثنى بما جرى بينك وبين سيبويه فى المناظرة ، فقال : والله ، لولا أنى لا أرجو الحياة من مرضى هذا ما حدثتك ، إنه عرض علىّ شىء من الأشياء التى وضعها سيبويه فى كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسر ، فبلغ ذلك سيبويه ، فبلغنى أنه قال : لا ناظرته إلا فى المجلس الجامع ، فصليت يوماً فى الجامع ثم خرجت فتلقانى فى المسجد ، فقال لى : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذى أنكرت من بيت كذا ، وبيت كذا ، ولم فسرت على خلاف ما يجب ، فلقت له : ما فسرت إلا على ما يجب ، والذى فسرته أنت ووضعته خطأ ، تسألنى وأجيب ، ورفعت صوتى ، فسمع العامة فصاحتى ، ونظروا إلى لكنته ، وقالوا : غلب الأصمعى سيبويه ، فسرنى ذلك ، فقال لى : إذا علمت أنت يا أصمعى ما نزل بك منى لم التفت إلى قول هؤلاء ، ونفض يده فى وجهى ومضى .

وهذه القصة وإن صورت جموح الأصمعى وشهوة الزهو لديه ، فإنها تصور أيضاً اعترافه بالحق لأبى حاتم ، وتقديره القوى لرأى سيبويه ، كما تصور فى الوقت نفسه عظمة سيبويه حين لم يعبأ بمدح العامة أو ذمهم ، بل قال قوله عن

---

(١) معجم الأدباء (نقلا عن كتاب الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ١٠٧) .

يقين فى صحته ، بل عن يقين فى أن الأصمعى يعلم أنه مصيب ، ولكنه يأبى أن يتراجع ! فسيبويه فى مجال التقدير العلمى أوفى كيلا من صاحبه .

وإذا كان الشعراء فى صدر العصر العباسى يؤمون هذه الحلقات فإنهم لا محالة قد تأثروا فكرياً بالمتكلمين ، وأخذت أفكارهم تعمق ومعانيهم تغزر بالاستماع إلى هذه المجادلات الدقيقة ، وفيهم من بالغ فى ذلك مبالغة اشتهر بها ، يقول الدكتور محمد طه الحاجرى(١) :

« وقد كان من أثر اتصال الشعراء بالمتكلمين وأخذهم عنهم (فى مسجد البصرة) أن جعلنا نرى فيهم من اصطبغ شعره بالصبغة الكلامية ، فعرف بهذا اللون من الشعر ، كأبى عبد الرحمن العطوى ، وهو شاعر بصرى المولد والمنشأ ، وقد ذكره محمد بن داود فى كتاب الشعراء — على ما ينقل عنه أبو الفرج — قال : كان له فن من الشعر لم يسبق إليه ، وذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ، ففارق(٢) جميع نظرائه ، وخف شعره على كل لسان ، وروى ، واستعمله الكتاب ، وأخذوا معانيه وجعلوه إماماً » .

ونختار من أساتذة هذا المسجد الجامع شخصية الخليل بن أحمد ، فنعرّف به على إيجاز ، وإنه الشهير الجهير .

---

(١) الجاحظ : حياته وآثاره ، للدكتور الحاجرى ، ص ١٠٥

(٢) لعلها : فاق .

الخليل بن أحمد

قيل إنه لو اختير عبقريان من علماء الإسلام لكان أحدهما الخليل ، دون نزاع ، كما قيل : لن يجوز على الصراط بعد الأنبياء من هو أدق ذهناً من الخليل ، وهما قولان يجدان مبررهما من واقع الخليل العلمى ، لأن جهده فى شتى ميادين العربية كان من الدهشة والعجب بحيث جاز لدارسيه أن يقفوا أمامه مبهورين .

تلقى الخليل العلم فى مسجد البصرة على أساتذة كبار منهم عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، ولكنهما بالقياس إليه فى منطق العلم الموازن ذوا جهد متواضع ، لأن الخليل مع عبقريته الساطعة قد كافح وجالد وترك البصرة إلى بوادى الأعراب ، ولم يسمع شيئاً من العلم إلا ناقشه وأبدى رأيه فيه تفنيداً أو تأييداً ، وحين ذهب إلى البادية وجمع ما استطاع جمعه من ألفاظ الأعراب، ومواد اللغة ، كان السابق إلى تدوين أول معجم لغوى عرفته العربية ، وقد جعل يقابل فصحاء اللغة فى مواسم الحج بمكة عدة سنوات ، ليقارن ما جمعه بما عند الفصحاء . ثم رسم الخطة لوضع معجم يشمل المهمل والمستعمل معاً فاحتوى على نحو من ١٢,٣٠٥,٤١٢ كلمة عربية بعضها مستعمل وأكثرها مهمل، وقد حدا به إلى تدوين المهمل ما منحه من تفكير عقلى دقيق ، لانه كان يجىء بالفعل فيذكر الاحتمالات فى حروفه كلها ضماً وفتحاً وسكوناً ، ثم يقلب اشتقاقه على شتى وجوهه ، فتأتى صيغ كثيرة منها المهمل ومنها المستعمل ، فيقول عن كلمة : هذه مما استعمله العرب ، وعن أخرى : هذه مما لم تستعمله . ثم أضاف فى مجال الاستشهاد على ما نطقت به العرب كثيراً من غرر الشواهد ، ونوادر الفرائد ، وعجيب القواعد مما يعز وجوده فى معجم غير معجم (العين) ، وقد نسب هذا المعجم إلى تلميذه الليث ، وكل ما فى هذه النسبة أن الليث سمع أستاذه ودون قوله وزاد عليه فى حدود منهجه الذى قرره ، ولسنا نبخس الليث فضله ، ولكن النزاهة العلمية تقول : إن إحضار الأرض ، وإعداد أدوات البناء ، وتشييد القصر كله من عمل الخليل دون

نظر إلى لبنات جديدة وضعها تلميذ أو تلميذان فى عدة جدر من جدران البناء .

وقد بدأ الخليل معجمه بالعين ، ولم يبدأ بالهمزة كما فعل غيره من بعده لأنه رأى هذا الحرف مما يلحقه النقص والتغيير والحذف ، ولم يبدأ بالألف لأنها لا تكون كلمة فى الابتداء ، ولا تكون فى اسم أو فعل إلا زائدة أو مبدلة ، أما العين فهى أنصع الحروف فخصت بالابتداء ، وهناك كتاب يسمى فائت العين ينسب للخليل ، وليس له ، لأنه لو ذكر الفائت لوضعه فى مكانه فى النسخة التى يقرؤها لطلابه ، كما هى عادة العلماء ! ولا بد أن عالماً لغوياً كبيراً استدرك على الخليل بعض ما استعمل من ألفاظ لم تذكر فى (العين) ، وليس ذلك بمستغرب ، فقد قال الإمام الشافعى فى (الرسالة) لا يحيط بكلمات اللغة العربية بشر إلا أن يكون نبياً !

أما كتاب سيبويه الشهير فمن وحى الخليل أستاذه ، لأن الخليل بعقله العلمى قد جاز بالنحو حد الرواية إلى ضبط الأصول ، وبسط الفروع ، واستخراج العلل والأسباب ، ولو تفرغ للنحو وحده لكان قد اهتدى إلى أكثر مما اهتدى إليه ، وبعض الناس يقيمون معركة فى غير ميدان ، فيذهب أحدهم إلى تجريد سيبويه من كل فضل ، ونسبة الفضل فى الكتاب كله إلى الخليل ، وبعض آخر يذهب إلى أن الخليل أستاذ سيبويه حقاً ، ولكنه يشرح النحو دون تأليف ، فألف سيبويه كتابه من جهده وحده ، وكلا الفريقين جانح عن الحقيقة موغل فى الخطإ ، فأثر الخليل فى سيبويه واضح ، وإذا وجد فى الكتاب قول سيبويه (سألته) أو (وقال) فالضمير راجع إلى الخليل وحده ، فما ظنك بمن يسأله سيبويه وينتظر إجابته ! الحق أننا نضع الحق فى نصابه حين نقول إن الكتاب بتوجيه من الأستاذ للتلميذ ، وأن التلميذ كان له جهد يكافئ جهد الأستاذ ، وكلاهما فى النحو ذو مقام عظيم :

ونأتى إلى عجيبة العجائب حقاً ، وهى ابتداع الخليل علم العروض ابتداعاً على غير سابق مثال ، وتفرده وحده لا شريك له بإنشاء علم عربى كامل تام ، إذا صرفنا النظر عن بحر استدركه بعده المستدركون !! ونحن نعرف أن كل شىء مبتكر فى العلم أو الفن يكون مظنة التعثر ، والأخذ والرد أو يكون نواة يضعها المبتكر الأول فى الأرض الجديدة ثم تتوالى الأيام عليها بتوالى الباحثين سقياً ورعياً

وتسميداً وتهوية حتى تنشق الأرض عن الغصن الأخضر ، وينمو الجذع والساق ، وتتهدل الفروع ، وتنضج الثمار ! هذا هو المعهود فى دنيا العلم ، أما أن يكون العروض دوحة فينانة مثمرة ممتدة نشأت فى أرض الخليل وحده وبمعونته رعياً وتهوية ورياً وتشذيباً ، قد بسقت غصونها ، وامتدت ظلالها وجاءت بأشهى الثمر ! أما أن تكون دوحة العروض الوارفة المثمرة كلها من صنع الخليل وغرسه ، فهذا هو الشىء الذى لا ينتهى منه عجب ذوى العقول .

يقول حمزة بن الحسن الأصبهانى :

« إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع العلوم — التى لم يكن لها عند علماء العرب أصول — من الخليل بن أحمد ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض ، الذى لا عن حكيم أخذه ، ولا على مثال تقدمه احتذاه ، فلو كانت أيامه قديمة ، ورسومه بعيدة ، لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا ، وذلك فى اختراعه هذا العلم ، وفى تأسيس بناء كتاب العين الذى يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة ، ثم إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذى هو زينة لدولة الإسلام » .

لقد رأى الخليل فاشية اللحن على أيدى الموالى ، وشاهد من ضعف السلائق ، وبلبلة الألسنة ، ما خشى معه على الشعر رواية وإنشاء ؛ فأخذ يجمع شعر العرب من كل فج ليجعله طوائف وشيعاً ، وليخص كل طائفة بوزن معين تنتمى إليه مئات القصائد ، فاتخذ أصولا ، ووضع لكل أصل تفعيلات متميزة يعرف بها ، وانتهت الأصول إلى خمسة عشر أصلا سماها بحوراً ، وجعل لكل بحر اسماً يناسبه ، وقد أخذ يستخفى عن الأنظار وهو يقطع الأبيات على ما اخترعه من الأوزان ، فيذكر فعولن مفاعلين متفاعلن ، ويكرر ذلك تطبيقاً لما يحضره من الشاهد ، وقد رآه أحد أولاده يقطع الأبيات ، وينطق بالوزن العروضى ، فدهش وحسب أباه مجنوناً ومضى ليخبر أسرته ، ولكن الخليل ابتسم لما علم وقال فى عطف :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وللخليل بن أحمد جهد معلم فى شكل الحروف على نمطها المتعارف الآن ، إذ

أن الخط العربي كان فى صدر الإسلام خلواً من الشكل والإعجام ، فجاء أبو الأسود ليجعل النقط ضبطاً للحروف ، فعلامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة تحته ، وعلامة الضمة نقطة وسطه ، وجعل التنوين نقطتين ، ثم جاء نصر بن عاصم ، فأعاد النظر إلى الخط بتوجيه من الحجاج بن يوسف ، فأشار بنقط الإعجام بعد أن كانت الحروف كلها مهملة ، فوضع نقطة تحت الباء ونقطتين تحت الياء وواحدة فوق النون واثنتين فوق التاء ، وثلاثة فوق الثاء ، وهكذا ، فاختلط نقط الشكل بنقط الإعجام ، ووقع الناشئون والكبار أحياناً فى لبس مما يقرءون ، ولكن الله عز وجل هدى الخليل بن أحمد إلى أن يميز بين الشكل والإعجام ، فجعل النقط للإعجام وحده ، أما الشكل فوضع له ما نعرفه الآن من علامات الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة للمضعف ، والشرطتين للتنوين ، وجعل للهمزة رأس عين (ء) ، فكان مجموع ما تم له وضعه ثمانى علامات هى : الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والهمزة والصلة حرف (صـ) والمدة ، وترك كتاباً يتضمن ذلك ، فلم يزد أحد عما فعل .

ومع هذا العلم الرفيع ، والاختراع المدهش ، فإن الخليل كان متواضعاً كل التواضع ، لم يفخر على أحد بما أحدث ، مع أن من يقرءون كتبه يفخرون تائهين ، لأنهم استطاعوا قراءتها فقط ، وعدوا أنفسهم بها علماء كباراً يشار إليهم بالبنان ، وقد تباعد عن الرؤساء ، فلم يتصل بخليفة أو وزير ، لأنه جعل العلم وجهته ، فقاسى من مشقات العيش ما كان يجب أن يمهد له تلقائياً ليفرغ إلى مجهوده الضخم العملاق ، وقد عاش حتى رآه تلاميذه فى حياته يتكسبون بعلمه ، ويعلمون الناس بما وعوا عنه درساً وتأليفاً ، فتساق لهم الهدايا ، وتفرق عليهم البدر ، وتكال إليهم المناصب ، وهو مقيم بكوخ صغير من أكواخ البصرة ، فإذا غلبته نفسه ، وللنفس غلبة فى أحيان الضيق ، تعزى بما يحفظ من روائع الحكم قرآناً وحديثاً وشعراً ، وأخذ ينشد قول الأخطل :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وقد أدرك حالته التقشفية بعض الولاة من أبناء المهلب بن أبى صفرة ، فأجرى له راتباً ، وكان والياً على فارس والأهواز ، وأرسل إليه يستدعيه ، فأحس الخليل

أنه منصرف لا محالة عما هو بصدده من معالجة شئون العلم نحواً وعروضاً ولغة وموسيقى ، فرد عليه بقوله :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنى غير أنى لست ذا مال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال

وكانت وفاة الخليل فجأة بمسجد البصرة ! هذا المسجد الذى شهد فتوحه العلمية قد قدر عليه أن يشهد مصرعه ، بل مصرع أنبغ من شاهد من العلماء ، إذ يذكر المؤرخون أن الخليل بن أحمد دخل المسجد وهو يفكر فى اختراع نوع من الحساب تذهب به الجارية إلى التاجر فلا يظلمها ، فصدمته سارية (عمود) من سوارى المسجد ، فشجت رأسه وسقط مغشياً عليه ، فعجلت هذه الصدمة القاسية بوفاته رحمه الله ، وإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر .

المسجد الأموى بدمشق

يكاد هذا المسجد يكون أجمل مساجد الدنيا قاطبة ، فقد أحضر له منشئه (الوليد بن عبد الملك) آلاف الصناع ومهرة المهندسين من بلاد الروم ، وبذل فى إنشائه من المال كل عزيز يحرص عليه ، وقد زاره الرحالة على تعاقب العصور ، فكتبوا عنه ما بهر وأدهش ، ومنهم من زار مساجد العالم شرقاً وغرباً ، ورأى اختلاف نماذج العمارة باختلاف المدن والأذواق ، وكلهم أجمع على تفضيل المسجد الأموى بدمشق .

وقد ذكر ابن جبير من عجائبه باب الساعات حيث خصصت غرفه بأعلى بعض الجدر لمعرفة الوقت ، ولتحديد ميعاد الصلاة ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء وفجراً ، وكانت هذه الغرفة النادرة ذات أبواب صغار على عدد ساعات النهار ، وقد دبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من فمى بازين مصورين قائمين على طاستين من نحاس ، ولا يزال البازان يحكمان عملهما بدقة لتسقط الصنجتين فى ميعادهما المحدد كل ساعة ، وبسقوط كل صنجة يغلق الباب ، فإذا أغلقت الأبواب جميعها فقد انتهت ساعات النهار ، ومن أراد أن يعرف فى أى وقت هو أثناء اليوم فعليه أن يعدد الأبواب المغلقة والأبواب المفتوحة ، ليعرف كم مر من الساعات ، وكم بقى ؟ وفى هذا الاختراع النادر بالنسبة لزمنه المتقدم ما فيه من الحنكة والإبداع .

ولا يكاد ينقطع التدريس ساعة واحدة من ساعات المسجد إلا لتلاوة القرآن الكريم ، أو سماع الحديث الشريف من قارئ مجيد ! وقد خصصت بعض الأماكن لتلاوة الكتاب ولتدريس علوم الشريعة واللسان .

يقول ابن جبير فى رحلته[1] بتصرف يسير .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٠ — طبعة دار مصر .

« وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن قراءة دائمة ، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، تقرأ فيها سورة الكوثر وما بعدها إلى الخاتمة ، ويحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن ، وللمجتمعين على ذلك إجراء يومى ، يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم ، فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساء ، وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واســع ، وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم إجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب ما يحدّث به أن سارية من سواريه وهى بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس ، أبصرنا بهما فقيهاً من أهل إشبيلية يعرف بالمرادى ، وعند فراغ المجتمع من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ، ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن ، وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة ، وأهل اليسار من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها ، وسائرهم يأخذها ، وهذا من المفاخر الإسلامية » .

هذا ما قاله ابن جبير ، وقد ذكره ابن بطوطة أيضاً فى رحلته ، وتحدث عن الحركة التعليمية بالمسجد حديثاً ينبئ عن اهتمام والتفات ، وكان مما قاله قوله(١) :

« ولهذا المسجد حلقات للتدريس فى فنون العلم ، والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسى مرتفعة ، وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد ، يلقن الصبيان ويقرئهم ، وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرءون القرآن تلقيناً ، ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب ، وبذلك يجود خطه ، إذ أن معلم الخط لا يعلم غيره » ...

« وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه ، يقبلون على الصلاة والقراءة والذكر ولا يفترون عن ذلك ، ويتوضأون من المطاهر التى

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٧٦ — طبعة وزارة المعارف .

بداخل الصومعة الشرقية ، وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك »(١) .

أما المدارس الدينية حول المسجد الأموى فكثيرة ، وهى فرع منه تنسب إليه ، ويؤمها مجاوروه ، وبها مدارس خاصة بالحديث ، ومدارس خاصة بتلاوة القرآن ، ومدارس تشترك فى جميع فنون العربية ، وكان نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى ومن وليه من بنى أيوب يهتمون كثيراً بهذه المدارس ويعينون طلابها على التفرغ للعلم بما يبذلون من رواتب محددة ، وفى الجزء السادس من كتاب (خطط الشام) للأستاذ محمد كرد على إحصاء دقيق لهذه المدارس شمل عدة صحفات ! وهذه المدارس تتطلب باحثاً متخصصاً يؤرخ لها تأريخاً دقيقاً يكشف عن أساتذتها وطلابها وموادها العلمية ، ومصادر أجورها ، إذ أنها حلقة من سلسلة ذهبية تحتاج إلى صقل وجلاء ، ولا نعرف عالماً جهيراً من علماء العصر الأيوبى والعصر المملوكى فى مصر لم يزر المسجد الأموى ولم يقرأ فى مدارسه ، لأن الرحلة كانت دائمة بين علماء القطرين ، وكان القضاء بأمر السلطان المملوكى ، فهو يبعث إلى دمشق من يعينه ويختاره ، كما ينتدب من علماء الشام من يقوم بالقضاء أو الخطابة فى الديار المصرية ، وقد أسفر هذا التعاون العلمى عن نهضة خصبة حية إذا اتسمت فى أكثرها الغالب بالجمع والاستقصاء فحسبها أنها حفظت مسائل العلم من الضياع .

وللإمام أبى حامد الغزالى قصة مشتهرة بالمسجد الأموى ، إذ أنه فى رحلته التى نهض بها إلى دمشق تزيّ بزى الفقراء ، واتخذ سمة الدراويش من المنقطعين للعبادة ، على أن شغفه بالمذاكرة كان يدفعه إلى حضور الحلقات مستمعاً لا مناقشاً ، وفى مظهره الخارجى ما يدل على أنه ليس على شىء من العلم ، وحسبه أن يستمع ، وقد يكون المدرس من تلاميذ تلاميذه ، ولكنه فى اعتزاله المتصوف قد آثر التخفى والانزواء .

وصادف أن جاء سائل عن مسألة من مسائل الميراث ، فأخذ يعرضها على شيوخ الحلقات شيخاً وراء شيخ ، وكلهم يعتذر ، ويحيل على سواه ، ويطلب من

(١) المهذب ، ص ٧٤

السائل أن يرجع إليه بالإجابة إذا اهتدى إليها ، حتى يئس الطالب وهم بالخروج ، فلحقه أبو حامد وطلب منه أن يقف ليعلم الإجابة ، فدهش الرجل ، وكاد يستهزئ بالغزالى ، ولكنه ابتسم وقال : خذ الإجابة واكتبها بدليلها ثم اعرضها على الفقهاء ! واستجاب صاحبنا ، فكتب ما أملاه الغزالى ومضى به إلى شيوخ الحلقة ، فتجمعوا مدهوشين ، وأخذوا يتساءلون عن هذا الإمام الذى يجاورهم ولا يدرون ! وهرعوا إليه ، فعرفوا أنه حجة الإسلام ، فأكبوا على يده مقبلين ، ورجوه أن يجتمع الأساتذة وحدهم فى المدرسة المجاورة ليقرأ لهم درساً يتباهون به ! ولكن الإمام رحل من الغد إلى بيت المقدس ! وكيف ينتظر ، وقد هرب من الجاه ، فإذا به يهمّ بالرجوع .

وفى المسجد قرأ ابن مالك صاحب الألفية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب مؤلفه عن مشكل أحاديث الجامع الصحيح ، ولذلك حديث تجده الآن .

ابن مالك فى مسجد دمشق

من منا لا يذكر عالم النحاة ابن مالك ؟ لقد رزقه الله حظوة مثمرة فى التأليف ، إذ ذاعت مصنفاته فى الشرق والغرب ، وتعـددت آراؤه فى المعضلات ، ودار حولها الشرح والتأويل والتحليل ، وقد درسنا فى الأزهر على عهد الطلب شروح ابن عقيل وابن هشام والأشمونى على ألفيته مصحوبة بحواشى الخضرى والأزهرى والصبان ، فأخذ منا الرجل فى ميدان النحو جهداً لم ينله سواه ، ثم تابعنا بعـد الدراسة مؤلفاته الأخرى ، فعرفنا أن ابن مالك رحمه الله علم الأعلام فى بابه ، وقد قيل إنه قرن بسيبويه فى مقامه العلمى ، ولسنا بصدد الموازنة العلمية بين إمام وإمام ، ولكننا ننقل ذلك لنصور مكانة الرجل فى نفوس الدارسين .

وإذا كان من القراء غـير المتخصصين من لا يعرف تاريخ هـذا العـلامة الضليع ، فإننا نوجز الحديث عنه حين نذكر أنه ولد فى مدينة جيان بالأندلس سنة ستمائة للهجرة ، ودرس علومه الأولية حيث ولد ، فألم بالنحو والقراءة والفقه ، ثم توجه إلى الشرق فكانت دمشق وجهته الأولى ، بها لقى أعلام العصر وتوسع فى الرحلة ، فزار مدينة حلب ، وحظى باستماع إلى أكابر رجال الشام من أمثال ابن الحاجب والسخاوى الأكبر وابن يعيش ، هذا إلى تقوى وزهد وكثرة عبادة ، حتى قال مؤرخوه : إنه ما كان يرى إلا مصلياً أو قارئاً أو مصنفاً ، وإذا كان النحو مجال شهرته بين الناس ، فإن الحديث النبوى ومتن اللغة وعلم القراءات كانت تحظى بتفوقه البارع فى ميادينها ، وقد ألف فيها مؤلفات طيبة نرجع إليها الآن فى ثقة واطمئنان .

وهذا مما يؤكد أن علوم الشريعة وعلوم العربية تتلاقى وتترادف . وأن أئمـة السالفين قد عرف من بينهم من يتكلم فى التشريع وفى اللغة وكأنهما فن واحـد لا يختلف ، وقد رأينا الآن فى هذا العصر من تضلع فى العلوم اللسانية تضلعه فى العلوم الشرعية ، حتى لتحار أين تذهب به مرجحاً كفة على كفة . ومن هؤلاء

أستاذنا الأكبر محمد الخضر حسين رضى الله عنه ، إذ كان يناقش معضلات اللغة والنحو والأدب ، كما يناقش معضلات الفقه والأصول والتوحيد بشموخ يرتفع عالياً فى الميدانين دون أن تقصر مئذنة عن مئذنة فى سموقها الناهض وارتفاعها البعيد .

قال الشهاب محمود : جلس ابن مالك يوماً وذكر ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهرى فى اللغة غيباً ، من صدره دون رجوع إلى أوراق ، وإذا كانت أجزاء المحكم كثيرة كأجزاء التهذيب ، فإن الذاكر يذكر غيباً (دون الرجوع إلى أوراق مدونة) ما بينهما من الاختلاف فى تفسير الألفاظ اللغوية ، ولابد أنه درس الكتابين دراسة حافظة على سعتهما المحيطة ، وهذا عسير كما يقول الشهاب ، وإذا كان ذلك بعض تضلعه فى اللغة وحدها فكيف بسائر العلوم .

أما النحو فيكفى للدلالة على بعد همته فى تحصيله إنه كان على تواضعه الجم يستصغر الزمخشرى فى مضمار النحو ، إذ يقول عن تلميذه ابن الحاجب : لقد أخذ النحو عن الزمخشرى صاحب المفصل وهو نحوى صغير ! وهذا تحديد كاشف لا تجريح منتقص ، لأن الزمخشرى وقد كان إماماً فى اللغة والبلاغة والتفسير لم يكن لدى أمثال ابن مالك من أئمة النحو ، وتلميذه حينئذ يدور فى فلكه وأحرى به أن يطير إلى سواه .

وإذا اشتهرت من مؤلفاته « الألفية » ، فقد تلاها فى الشهرة كتاب « التسهيل » وله عدة شروح من بينها ، شرح المصنف نفسه ، وقد أكمله ولده بدر الدين وله شروح أخرى لمسائل النحو ، وكتب فى اللغة والحديث ، ومنظوما فى الصرف والقراءات ، وكتب الفهارس تسجل آثار الرجل بما يقنع الباحث ، ولسنا بصدد التعريف بها ، ولكننا نشير إليها لتدل على إمامته الجهيرة ، وقد ظل يدرس مؤلفاته لأعيان العلماء من رجال عصره ، إذ كانوا مع شهرتهم الذائعة ومؤلفاتهم البارعة تلاميذ فى حضرته يؤمون حلقته فى المسجد الأموى بدمشق ، ليقطفوا ثمار فضله ، ومنهم ولده بدر الدين ، الذى كان يخالفه فى حلقة الدرس ، وفيما كتب من مؤلفاته إذا عن له ما يتسع للمخالفة من المسائل ، فلا ترى من والده إلا كل تشجيع ، وهذا ديدن الأستاذ المثالى الذى يجعل صدره فسيح الجنبات لمخالفيه ،

وإن كانوا دونه فى النظر والتعليل ! كما أن من تلاميذه الكبار بدر الدين بن جماعة قاضى القضاة ، وبهاء الدين بن النحاس مفسر عصره ، وأبا زكريا النووى الفقيه الكبير ، وأبا الحسن اليونينى المحدث الشهير ، ولديه نقف ، فما كتبنا هذا الفصل إلا لنصور جميل الصحبة ونبيل العلاقة بين التلميذ والأستاذ ، وكيف ضرب كلاهما المثل العالى للدارسين من رجال العلم جيلا بعد جيل .

كان أبو الحسن اليونينى نجلا لشيخ الإسلام الحافظ المحدث تقى الدين محمد ابن أحمد بن عبد الله بن عيسى اليونينى ، فهو إذن من بيت علم وفضل ، أبوه شيخ العلماء وحافظ المحدثين ، وقد قيل فى تاريخه عنه : « لم ير فى زمانه مثله ، وكان الملك الناصر يهرع إلى زيارته ويتأدب معه ، وله اختصاص جاد بالحديث النبوى ، يحفظ متونه وأسانيده ويناقش علله ومعاضله ، وقد نشأ ولده أبو الحسن على بن محمد اليونينى على نهجه ، فكان اتجاهه الأول إلى الحديث ، وقد نقل ابن العماد فى شذرات الذهب إنه صار شيخاً جليلا ، حسن الوجه ، بهى المنظر ، له سمت حسن ، وعليه سكينة ، ولديه فضل كبير ، فصيح العبارة ، حسن الكلام ، له قبول من الناس ، وكان ممن سعدوا بدروس ابن مالك ، أخذ عنه النحو واللغة ، وعد من كبار تلاميذه ، ثم تخصص فى الحديث ، بعد أن ورد حياض أستاذه ، وقطف من جناه .

وكان ابن مالك رضى الله عنه من علماء العربية الذين يرون صحة الاستشهاد بالحديث النبوى لغوياً ونحوياً ، على حين ذهبت الكثرة من هؤلاء الأفاضل إلى أن الحديث النبوى قد روى بالمعنى فلا يصح الاستشهاد به ، إذ لانقطع تمام القطع أن أفصح البلغاء عليه السلام قد نطق بألفاظه ، ولهم فى هذا المجال صيال ونقاش ، أذكر إنى قد بسطت الحديث عنه فى بعض ما كتبت من قبل(١) ، وقد انتهيت إلى ما رأى ابن مالك وأضرابه من صحة الاستشهاد بالحديث النبوى لغوياً ونحوياً ، وأظهر ما يقال فى تأييد ذلك إن صح أن الراوى قد تصرف فى اللفظ مكتفياً بالمعنى ، فهو صحابى أو تابعى عربى فصيح ممن يستشهد بقوله ، وإنى لأعجب كل العجب كيف نستشهد بكلمة نثرية عابرة يقولها أعرابى مجهول مثل : « نعم السير

(١) يرجع إلى (البيان النبوى) للمولف .

على بئس العير » ، ثم لا يجوز أن نستدل بقول أفصح البلغاء : « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل » ، أو نسمع كلمة عابرة مثل : « أكلونى البراغيث » ، فنجعلها لغة معترفاً بها ، ثم لا نستدل بمثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » ؟!

مهما يكن من شيء لقد هدى الله قلب الإمام محمد بن مالك إلى صحة الاستشهاد لغوياً ونحوياً بما روى عن رسول الله ، وقد أخذ يتتبع كتب السنة المطهرة ليجعلها مجال نظره الاستدلالى ، ولكن حرمة العلم وجلال الالتزام وقوة التبعة ، كل ذلك يحتم عليه أن يقرأ الحديث النبوى قراءة صحيحة كما تداولها أئمة الحديث راوياً عن راو ، فلابد ألا يكتفى بالقراءة الغيبية دون الوقوف على النطق المتسلسل الذى التزم به الرواة منذ كتبت مجموعات الصحاح ! والرجل محدث كبير ، يحفظ الحديث ، وقد كان بعض مواده الدراسية دون نزاع ، ومثله يكتفى بما حصل وألم ، فهو إمام العربية فى عصره ! لكن أنى يطمئن إلى جلال علمه ، وقوة تدقيقه ، وقد نسى بعض الضبط الحقيقى لبعض الألفاظ ! لا بد أن يجلس مجلس المستمع المستفيد من جديد ، ولا بد أن يتلقى صحيح البخارى سماعاً من راوية إمام موثوق بسماعه .

وقد فكر وقدر فرأى أن أكبر محدثى بلدته هو تلميذه أبو الحسن على بن محمد اليونينى الذى يقول عنه ابن حجر — فيما بعد — أنه كان شيخ بلاده والرحلة إليه ، فلا بد إذن من أن يجلس منه مجلس المستفيد ، وهو تلميذه الذى يصغر عنه بأكثر من عشرين عاماً ، إذ ولد ابن مالك سنة ٦٠٠ هـ ، وولد اليونينى سنة ٦٢١ هـ ، ولابد أن يكون المجلس ذائعاً مشتهراً يحضره طلبة العلم من زملاء اليونينى ، وتلاميذ ابن مالك ، ليعم الفضل الجميع ، وهكذا أعلن الإمام العلامة النبيل محمد بن مالك علم الأعلام فى عصره أنه سيجلس مستمعاً إلى الرواية الصحيحة للبخارى ، حيث يقرؤها محدث العصر وحافظه الإمام أبو الحسن اليونينى ، وسيكون هذا الاستماع عاماً جامعاً فى أعظم مساجد دمشق .

وقد جاءت الأنباء إلى التلميذ ، فهرع إلى أستاذه يعلن أنه يفوقه تحديثاً ، كما يفوقه لغة ونحواً ، وأنه قد يستطيع أن يجلس هذا المجلس من شيخه الكبير ، ومن

تلاميذه الذين هم فى الوقت نفسه زملاء أبى الحسن ، ولكن ابن مالك أصر وتشدد ، وحدد اليوم الذى تبدأ فيه القراءة ، ودعا من يتوسم فيه العلم إلى الحضور ، فلم يسع اليونينى إلا أن يشترط على أستاذه أن يتفضل بالسماع فإذا عنّ مشكل لغوى أو معضل نحوى سكت التلميذ ليعلن الأستاذ رأيه فى هذا المشكل ، ثم يقوم المستمعون بتدوين ما يقول إمام النحو لتحتفظ الأجيال بخبرة علمية نحوية تبحث عن مشكلات الجامع الحديث .

وقد تم للتلميذ ما أراد ، فقام هو بالقراءة المضبوطة كما جاءت بها الرواية ، وقام الإمام بشرح المشكل وإيضاح الغامض ، وقام التلاميذ بالتدوين فى أكثر من سبعين مجلساً تمت بها رواية البخارى ، وتم بها فى الوقت نفسه تأليف (شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك) ، وقد كان يزيد عليه ما لا يتيسر له بالمجلس من مسائل تحتاج إلى مراجعة حتى استوى نسيج وحده فى بابه ، وإليه المرجع الآن فيما يدق من وجوه التركيب والضبط لدى المتخصصين .

وحين جاءت الجلسة الأخيرة التى فرغ فيها اليونينى من تلاوته الضابطة رأى الحاضرون أن يقوم الأستاذ والتلميذ معاً بكتابة وثيقتين تسجلان هذا الحدث الرائع لتلحقا بالنسخة اليونينية المضبوطة ، فتكونا تثبيتاً لها فى نفوس الأجيال ، وتخليداً لمجالس نادرة أمينة ، تصلح أن تكون موضع الحذوة ومناط الاقتداء ، فقام الرجلان بكتابة ما يرجوان به الخير مما ننقله الآن فرحين مغتبطين .

كتب ابن مالك بخطه الواضح فى ظاهر الورقة الأخيرة من النسخة اليونينية يقول : « سمعت هذا المجلد من صحيح البخارى رضى الله عنه بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتفنن شرف الدين أبى الحسن على بن محمد بن أحمد اليونينى رضى الله عنه وعن سلفه ، وكان السماع بحضرة جماعة من الفضلاء ، ناظرين فى نسخ معتمد عليها كلما مر عليهم لفظ ذو إشكال بينت فيه وجه الصواب وضبطته على ما اقتضاه علمى بالعربية ، وما افتقر إلى بسط عبارة وإقامة دلالة ، أخرت أمره إلى جزء استوفى فيه الكلام بما يحتاج إليه من نظير وشاهد ليكون الانتفاع به عاماً ، والبيان تاماً إن شاء الله ، كتبه محمد بن عبد الله بن مالك حامد الله تعالى ، اهـ .

ثم كتب الحافظ اليونيني ما نصه : « بلغت مقابلة وتصحيحاً وسماعاً بين يدى شيخنا شيخ الإسلام ، حجة العرب ، مالك أزمة الأدب ، الإمام العلامة أبى عبد الله بن مالك الطائى الحيانى ، أمد الله تعالى فى عمره ، فى المجلس الحادى والسبعين وهو يراعى قراءتى ، ويلاحظ نطقى فيما اختاره ورجحه وأمر بإصلاحه أصلحته وصححت عليه ، وما ذكر أنه لا يجوز فيه إلا إعرابان أو ثلاثة أعلمت ذلك على ما أمر ورجح ، وأنا أقابل بأصل الحافظ أبى بكر ، والحافظ أبى محمد الأصيلى ، والحافظ أبى القاسم الدمشقى ما خلا الجزء الثالث عشر ، والثالث والثلاثين ، فإنهما معدودان وبأصل مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة الحافظ أبى منصور السمعانى وغيره من الحفاظ ، وعلامة ما وافقت أبا ذر (ه) والأصيلى (ص) والدمشقى (ش) وأبا الوقت (ط) فيعلم ذلك . كتبه على بن محمد الهاشمى اليونينى عفا الله عنه » .

هاتان الوثيقتان حجة واضحة تصلح مناراً ساطعاً فى باب العلم ، ونبراساً هادياً فى دنيا الخلق ، وبمثلهما فليعتبر ذوو التشاحن والتحاسد من أرباب المنافسة وعشاق الشموخ ما بين أساتذة وتلاميذ وشيوخ وشبان .

جامع قرطبة

لايزال جامع قرطبة يزار إلى الآن حتى بعد أن تحول إلى كنيسة ، لأن الملامح الإسلامية ما برحت واضحة للعيان ، تدل على أصلها المموّه ، وأساسها المفقود ، وكثير من فضلاء الرحالة المسلمين يذهبون إلى المسجد العزيز ويؤذن لهم بإقامة الصلاة فيه بعد تصريح خاص من القائمين على أمره ، وقد حدثنى العلامة المجرى الشهير الأستاذ عبد الكريم جرمانوس أنه صلى بالمسجد عدة مرات ، لأنه قرأ أن الأمير شكيب أرسلان سافر خاصة إلى أسبانيا ليسعد بالصلاة فى المسجد الجامع ، وقد تنشق فى أرجائه عبير الإسلام .

وكما يزور المسلمون الآن المسجد الجامع كان النصارى فى عهده الزاهر أيام الخلافة الأموية وماتلاها بالأندلس يحجون إلى زيارة هذا المسجد العظيم ، وفيهم من كان يمكث عدة سنوات ليقرأ دروس العلم مع الدارسين ، إذ يشهد التاريخ أن جامع قرطبة كان أول جامعة علمية فى أوربا حين كانت مدن الغرب غارقة فى الظلام ، ولم يجد أهلها مناصاً من زيارة الأندلس ليستفيدوا من حلقات العلم فى الطب والفلك والطبيعة والكيمياء والفلسفة ، فيرجعوا بزاد حفيل . وإذا كانت أوربا جميعها قد استيقظت على صوت ابن رشد حين ترجمت مؤلفاته إلى اللغات المختلفة حاملة ثمار اليونان والعرب معاً ، فإن ابن رشد تلميذ جامع قرطبة رضع لبانه وأصبح المنار الأعلى فى علوم الفلسفة والدين معاً .

وضع الحجر الأساسى لهذا البناء العظيم فى عهد التابعين الذين رحلوا مع جيش موسى بن نصير لفتح الأندلس ومنهم حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الجبلى ، إذ وضعا الأساس بأيديهما وصنعا المحراب وفق رأيهما ، فظل المحراب بالمسجد يعتز به التالون حتى جاء أمير المؤمنين عبد الرحمن الأوسط فنقله من موضعه القديم وركزه فى القبلة الجديدة ، وقد قيل له : إن القبلة منحرفة عن

موضعها الطبيعي ، فجمع أصحابه مشاوراً ، وفيهم من قال : « يا أمير المؤمنين إن مكان القبلة قد عين منذ عهد موسى بن نصير ، وصلى فيه التابعون وتابعو التابعين ، فلا تغير موضعاً قد رضوه ، وإنما هلك الناس بالابتداع ونجوا بالاتباع ». فمال الخليفة إلى هذا الرأى ، وقال : نعم ما قلت .

أما حلقات العلم بالمسجد فكانت متنوعة المعارف متعددة الثمار ، وأكثر علماء الأندلس الذين ذكرهم صاحب نفح الطيب من فقهاء ونحاة ومفسرين ومحدثين وأطباء وفلاسفة وأدباء كانوا من أساتذة المسجد الجامع بعد أن مروا بمرحلة التلمذة فيه . ومن الغرائب أن منهم من جلس إلى تلميذه يستمع إليه فى حلقة الدرس معجباً منشرحاً بعد أن كان أستاذه من قبل ، وكأنه بذلك يضرب المثل الرفيع فى التواضع العلمى النزيه .

وقد توالى خلفاء الإسلام وأمراؤهم متتابعين ، وكل منهم يضيف الجديد إلى هذا المسجد ، توسعة وتزييناً ومعماراً ، ويهمنا أن نذكر ما قيل عن المنصور بن أبى عامر من أنه حين عزم على الزيادة فى المسجد الجامع وأراد أن يأخذ الدور المجاورة له أحضر أصحابها وقال لهم : إنى أريد أن أبتاع دوركم لجماعة المسلمين من مال الله ومن فيئهم ، فاطلبوا ما تشاءون من الثمن ، فإذا ذكر الحد الأقصى ابتسم وزاده إلى الضعف ، وقد قيل إنه أتى بامرأة لها دار بجوار المسجد بها نخلة ، فقالت له : لا أقبل عوضاً إلا داراً ذات نخلة أستظل بها وآكل من ثمرها ، فقال : سأبحث عن مشيئتك ولو ذهب فيها بيت المال ، وعقب القول بالفعل على كرم وسخاء .

ولا نترك الكلام دون أن نعرج على مجلس القضاء بالمسجد الجامع ، إذ كان يمثل أزهى عصور الأمانة والنزاهة فى الحكم الإسلامى ، واحتفظ التاريخ بأمثلة رائعة لعظماء من القضاة صدعوا بالحق دون أن يرهبوا لومة لائم ، ومن أشهر هؤلاء : محمد بن بشير القاضى الذى اصطدم بأمير المؤمنين الحكم فى أكثر من حكم ، وتوقع الناس أن يصدر الخليفة أمراً بعزله ، وأكثروا من الوقيعة فيه تنفيساً عن أحقاد تداخلهم ، ولكن الخليفة كان واسع الصدر ، مطمئن النفس ، فتقبل الإدانة بصدر رحب ، ونزل على رأى القاضى فى كل ما حكم به ، وقال

لمن جلسوا يتحرشون به : « لا يا قوم ، لقد أحسن ابن بشير بنا فيما فعل على كره منا . كان فى يدنا شىء لا نملكه فأعطاه لصاحبه ، وصار ما بقى لنا حلالا طيباً لأعقابنا » .

وقد لاحظ الدكتور حسين مؤنس أن أهل قرطبة كانوا يهتمون بنظافة المسجد ويعده كل واحد منهم منزله الخاص الذى يجب أن يهتم بنظافته ، ثم عقد مقارنة بينه وبين مسجد الفسطاط حين سجل ماروى التاريخ من إهمال أهل الفسطاط لمسجدهم الكبير ، وجعله مرتعاً للبيع والشراء دون حرص على مكانته باعتباره بيت الله . وهى ملاحظة يخفف منها أن المساجد الآن فى مصر صارت موضع الاحتفاء والإجلال .

وفى كتاب (نفح الطيب) أوصاف جميلة لحلقات الدرس وقيام الحراس بحفظ النظام وتأديب الناشزين من الطلاب ، مما يسجل صفحة من صفحات التربية الإسلامية فى عصورها الزاهرات . وإذا كنا قد أشرنا إشارة موجزة إلى موقف القاضى ابن بشير مع الحكم ، فإن المجال يتسع لإيضاح ما يماثل هذا الموقف النبيل ، إذ شهد جامع قرطبة فى مجلس قضائه أمثالا وأشباهاً لابن بشير يعتز بها تاريخ القضاء .

ومن هؤلاء الخطيب الداعية القاضى النزيه المنذر بن سعيد البلوطى الذى نوجز بعض مواقفه من كتابنا (علماء فى وجه الطغيان) وإنها لأكثر من أن تحد .

كان للناصر حظيـة من نسائه ملكت قلبه ، فهام بها ، وكلف برغبتها ، فبنى لها قصراً جميلا ، ثم عنّ له أن يتوسع فى شرفاته ومقاصيره ، فأراد أن يشترى داراً مجاورة لبعض الأيتام ، وعرض بعض المال لذلك ، فقال الوصى : إنه لا ينفذ البيع إلا بإذن القاضى منذر بن سعيد ، إذ أن الأيتام فى حجره ورعايته ، فهو القاضى المسئول عن جماعة المسلمين ، وأولى بالتصرف والإنفاذ ، فبعث الخليفة إلى القاضى يسأله إنفاذ البيع ، فقال البلوطى لرسول الخليفة : إن البيع على الأيتام لايصح إلا لوجوه منها : الحاجة الملحة ، أو الضعف الشديد ، أو الرغبة فى مال من غبطة مرتجاة ، وليس بالأيتام حاجة لنقد ، ولا بالدار ضعف فتزال

وأما الغبطة فهذا مكانها ، فإن أعطاهم أمير المؤمنين كثيراً أنفذت البيع وإلا فلا ، وطار الرسول بالخير إلى الخليفة ، فأبدى زهداً فى شرائها ، وخاف القاضى أن يصمم الخليفة على الشراء ، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها ، فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة فى هدم المنزل وناقشه الخليفة ، فقال له المنذر فى جرأة حميدة : لقد أخذت فى هدمها بقول الله عز وجل: « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » ، ومقومك لم يقدرها بمال معقول ، وقد قبضت فى الأنقاض وحدها أكثر منه ، وبقيت الأرض للأيتام ، فتدبر الخليفة الأمر قليلا وأدرك صدق النية لدى القاضى ، وعلم إخلاصه فى اتباع الحق ، فقال له : نحن أولى بالانقياد إلى العدالة ، وجزاك الله خيراً يا قاضى الجماعة عن العدل والإسلام .

موقف كريم من قاض عادل ، وملك منصف . وبأمثال هذه المواقف الجريئة اعتز الإسلام ، وبلغ فى قرن واحد مالم تبلغه الدولة الرومانية فى ثمانية قرون ، بل إن المنذر العظيم قد رصد نفسه ناقداً لأعمال الخليفة ؛ فهو لا يكتفى بإقامة العدل فى القضاء وحده ، بل يتتبع أعمال الناصر حسنها وسيئها فى رأيه ، فإذا لم يطمئن بعمل ما جاهر بمحاربته على رءوس الأشهاد ، واتخذ من منبر الجمعة مذياعاً يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر ، مهما كانت النتائج ، وحسبه أن يسكن ضميره القلق ، فلا يشعر بوخز يؤنبه على السكوت والإغضاء .

وقد كان الناصر كلفاً بالعمارة والزخرفة ، فبنى الزهراء وأفرغ الجهد فى تزيينها وإبداعها ، وأقام قصورها الشماء على أحسن طراز ، حتى شغله ذلك عن حضور الجمعة فى المسجد الجامع ثلاث مرات متعاقبات ، فأراد القاضى أن يلقى الموعظة الزاجرة ، وانتهز حضور الخليفة للصلاة فى جمعة حافلة ، وبدأ خطبته بقول الله: « أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ». ثم أتبع ذلك بكلام قاس ، ينهى عن الإسراف والتبذير ، حتى بكى الخليفة وندم ، ثم قال لولى عهده ونجله الحكم : لقد أسرف المنذر فى ترويعى وإزعاجى ، والله لا أصلى

خلفه الجمعة أبداً . فقال له ولى العهد ؛ وما الذى يمنعك من عزله وإيقافه . فرجع الناصر إلى إيمانه ويقينه وقال : ويلك ، أمثل ابن سعيد فى ورعه وعلمه وفضله ، يعزل فى إرضاء نفس ناكبة عن الرشاد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون ، وإنى لأستحى من الله عز وجل ألا أجعل بينى وبينه شفيعاً يوم القيامة ، مثل المنذر ابن سعيد . هذا سمو بالغ نذكره بالفخر للناصر .

وقد زاده فى عيون المنصفين قدراً ونباهة ، ولو استمع إلى ولى عهده وعزل المنذر بن سعيد عن الخطابة بالمسجد الجامع لاكتسب جرماً آخر ، وسلقه الناس بألسنة حداد ، فذاع فى الدولة إسرافه وتماديه ، فتذمر من تذمر وتآمر عليه من تآمر ... ولكنه تلافى ذلك كله ، وأرض الله عز وجل فى واعظه ومرشده ، ثم تقبل النصيحة بهدوء وإذعان ، بعد أن سكنت عنه سورة الغضب ، وكان يذكرها للمنذر بمحمدة وإعجاب .

أبو على القالى

أستاذ الأدب واللغة بجامع قرطبة

كان عبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين بالأندلس فى القرن الرابع الهجرى يحاول أن يجعل من قرطبة مدينة مماثلة لبغداد حاضرة الخلافة العباسية ، كيلا تقصر عنها فى العلم والحضارة والعزة والاستقلال ، ومن ثم فقد جعل يبعث الوفود لتلقى العلم بالمشرق ، كما لا يقصر فى بذل المال شراء للكتب وبناء للخزانات العلمية بشتى جوامع الأندلس ، وقد طار صيت أبى على القالى إمام بغداد وكبير علمائها فى اللغة والأدب حتى دوى فى الأندلس ، فرأى عبد الرحمن الناصر أن يستقدمه إلى قرطبة ليجعل مجالسها الأدبية صورة من مجالس بغداد ، وبذل من الوعود ما شجع أبا على على القدوم إلى الأندلس ، حتى إذا شارف البلاد جعل فى كل محله يحل بها وفداً من كبار رجالها يستقبله مرحباً ثم يودعه إلى ما يليها من المحلات الأخرى ، حتى إذا قرب من العاصمة كان فى استقباله ولى العهد الحكم بن الناصر على رأس كوكبة من رجال الدولة فى يوم حافل مشهود .

وأبو على فى مجمل حياته يعتبر وليد عصر الثقافة العربية الزاهرة بالقرن الرابع ، إذ دخل بغداد سنة ٣٠٣ هـ ، وحضر دروس العلم فى كل فن من فنون العربية والشريعة على كبار العلماء الذين ذكرهم ياقوت فى ترجمة أبى على ، وكلهم جهير المكانة عالى المنزلة ، وقد مال أبو على بصفة خاصة إلى علوم اللغة والأدب ، حتى عدّ فيهما إماماً حجة مأموناً ، قال عنه الضبى فى (بغية الملتمس) ص ٢١٧ :

« كان إماماً فى علم اللغة ، متقدماً فيها ، متقناً لها ، فاستفاد الناس منه وعولوا عليه ، واتخذوه حجة فيما نقله ، وكانت كتبه فى غاية التقييد والضبط والإتقان ، وقد ألف فى علمه الذى اختص به تآليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته » .

وقد كان للقالى مجلسان علميان فى قرطبة : أحدهما بالمسجد الجامع الذى

تقدم الحديث عنه ، وثانيهما بمسجد الزهراء الذى بناه الناصر تخليداً لعهده . وفى المسجد الجامع أملى كتابه المعروف بالأمالى .

ويقول ياقوت : إن أبا على حين انقطع بالأندلس بقية عمره أملى كتبه بها وأكثره مما حفظه أبو على عن ظهر قلب ، لأن علمه كان علم رواية ، ومن أسماء مؤلفاته يعرف منحاه العلمى واتجاهه التدريسى .

قال ياقوت نقلا عن أبى محمد بن حزم(١) : « وكتاب نوادر أبى على ، مبار لكتاب الكامل ، الذى جمعه المبرد ، ولئن كان كتاب أبى العباس أكثر نحواً وخبراً ، فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعراً ، وكتاب الممدود والمقصور رتبه على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق ، مستقصى فى بابه ، لا يشذ منه شىء فى معناه ، لم يوضع مثله ، وكتاب الإبل ونتاجها ، وما تصرف منها ، وكتاب حلى الإنسان ، والخيل وشياتها ، وكتاب فعلت وأفعلت ، وكتاب مقاتل الفرسان ، وكتاب تفسير السبع الطوال ، وكتاب البارع فى اللغة على حرف المعجم ، جمع فيه كتب اللغة ، ويشتمل على ثلاثة آلاف ورقة . قال الزبيدى : ولا نعلم أحداً من المتقدمين ألف مثله » .

وكتاب الآمالى هو الذائع المشتهر بين كتب القالى ، وقد تعددت طبعاته ، وهو من الشهرة بحيث ذكره ابن خلدون بين الكتب الأربعة التى يعتمد عليها فى تحصل الأدب ، وهى : الكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والأمالى لأبى على ، وأدب الكاتب لابن قتيبة . وحصر كتب الأدب المفيدة فى هذه الأربعة ظلم لما عداها ، وإلا فكيف يغفل صاحب هذا الاختيار كتاباً ككتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وهو من النباهة بحيث يجب أن يتقدم على سواه .

ولشهرة كتاب (الأمالى) وهم الأستاذ أحمد أمين حين ذكر فى مقدمة كتاب (العقد الفريد) أن ابن عبد ربه صاحب العقد قد حذا حذو صاحب (الأمالى) فى تأليف كتابه ، وهو وهم نفاه الأستاذ محمد سعيد العريان حيث قال :

---

(١) معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ٢٨

« وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح فى أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى على القالى ، وأنه من تلاميذه ، وأن كتاب (الأمالى) أسبق من (العقد الفريد) . وأنه أول ما نقل إلى المغاربة من علم المشرق ... وأرى هذا كله خطأ لا يستند إلى دليل من التاريخ ، فقد كان مقدم أبى على القالى إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر (توفى ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨ ، وكان مقدم أبى على القالى فى إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠) ، وكان تأليف كتابه (الأمالى) بعد مقدمه بسنين ؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموع محاضراته فى جامع قرطبة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه (العقد) فى سنة ٣٢٢ على ما نرجحه ، وقدرنا المدة التى أملى فيها أبو على محاضراته فى جامع الزهراء قبل أن يجمعها فى كتاب ببضع سنين ، كان لنا من ذلك برهان لا يدفع بأن (العقد الفريد) كان أسبق من (الأمالى) ببضع عشرة سنة ؛ فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبى على ، وبأن كتابه على منهاجه »(١) .

وفى مقدمة كتاب (الأمالى) الذى نشرته دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ م فى طبعته الأولى ترجمة جيدة لأبى على ، كتبها الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى ، رحمه الله — أشار فيها إلى مأخذين فى حادثتين مشهورتين لأبى على ، ونحن نذكرهما لنردّ عليهما بما يضع الأمر فى نصابه دون تحيز .

قال الأستاذ الأصمعى (٢) .

« أما الحادثة الأولى ، فهى عدم إقامته وزن بيت من الشعر عند الاحتفال العظيم بقدومه ، وكانوا يتناشدون الأشعار فى مسير ركبه إلى قرطبة ، وقد جمع عدداً من شعراء الأندلس وأدبائها ، فقد ذكر صاحب نفح الطيب أنهم كانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم ويتناشدون الأشعار إلى أن تجاوزوا يوماً وهم سائرون أدب عبد الملك بن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل ، وإنشاده بيت عبدة بن الطبيب :

---

(١) العقد الفريد ، طبعة الأستاذ سعيد العريان ، ج ١ ، ص ١١

(٢) مقدمة الأمالى للأستاذ الأصمعى .

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا على ، فأنشد الكلمة فى البيت :

* أعرافها لأيدينا مناديل *

فأنكرها ابن رفاعة الألبيرى ، وكان من أهل الأدب والمعرفة وفى خلقه حرج وزعارة ، فاستعاد أبا على البيت مستثبتاً مرتين فى كاتيهما أنشده : (أعرافها) ، فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفاً وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس . لا يغلط الصبيان فيه ! والله لا تبعته خطوة ، وانصرف عن الجماعة ... » إلخ .

أما الحادثة الثانية ، فقد وقعت له عندما كانوا يحتفلون لدخول رسول ملك الروم صاحب القسطنطينية بقصر قرطبة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكانوا يحتفون فى لقياه بالعسكر والقواد وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة كالموالى والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة ، وإقامة الاحتفالات الشائعة ، وتلاوة الخطب الرائعة ، بما يدل على فخامة جاه الدولة ، وبيان ما يخطبه الغير من مودتها ، فقد دعى أبو على وهو أمير الكلام وبحر اللغة فى وقته فى هذا الاحتفال الرسمى فأرتج عليه .

قال صاحب نفح الطيب : « لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذى اشتهر ذكره أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه تذكر جلالة مقعده ، وتصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة ، ورمى ملوك الأمم بسهام بأسه ونجدته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم لذلك من الخطباء ويقدمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدم الحكم إلى أبى على البغدادى ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة أن يقوم ، فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم انقطع وبهت ، فما وصل إلا قطع ووقف ساكناً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام قائماً بدرجة من مرقاة أبى على ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة وملأ الأسماع جلالة ... » .

هذا ما جاء فى المقدمة عن الحادثتين ، والحادثة الأولى مستغربة : فثل أبى

على فى علمه الغزير وتدقيقه العميق ، لا يغفل عن كسر عروض فى بيت من أبيات الشعر ، وربما كان القالى حافظاً لهذا البيت وهو ناشىء صغير ، فظل يتردد على لسانه كما كان يحفظه قبل أن يدرس العروض ، وهذا نعهده من أنفسنا ، إذ منا من يحفظ البيت خطأ فى صغيره ، ثم يرويه فى كبره كما حفظ ، فإذا نبه إلى الخطأ عجب كيف فاته هذا الأمر البديهى ، والكمال لله وحده .

أما الحادثة الثانية فأبو على معذور فى عدم توفيقه فى المجال الخطابى ، لأن لكل إنسان تخصصه ؛ فالرجل لم يدع أنه خطيب محافل ومتحدث مجتمعات ولكنه عالم لغة وأدب ونحن حين نؤاخذه على موقفه فى الحفل الكبير نكون كمن يؤاخذ طبيب الحميات لأنه لم يجد فن ولادة النساء ، إذ لكل تخصصه المشهود وقد نجد أديباً يجمع بين العلم والأدب ، كما نجد من يكون مؤلفاً وخطيباً ، ولكن هذا لايوجب أن يكون كل عالم خطيباً جهيراً ، فقدرة البشر محدودة ، ولا يكلف الله نفساً إلا سعها .

ومهما يكن من شىء فقد كان جامع قرطبة أفقاً تألق فيه كوكب أبى على ، وبه اشتهر وذاعت مؤلفاته ، فمن حقه أن ينتسب إليه .

جامع السيدة نفيسة

وثقافة المرأة المسلمة

اسم السيدة نفيسة حبيب لدى قلوب المصريين، فهو من أسماء البيت النبوى التى لا ينطفىء لها بريق مهما تطاول الزمن، هو كفاطمة وزينب وخديجة وعائشة وسكينة ذوات التاريخ الدينى الأثير، وقد اتجه اليوم فريق منا إلى أسماء مستوردة يطلقونها على الإناث، ظانين أنهم بذلك يواكبون القرن العشرين ! ؟ وهكذا تظل تقدميتنا الزائفة منحصرة فى القشور لا فى اللباب .

ودائماً حين أدخل المسجد الطاهر، وأقرأ الآية الكريمة فوق المقصورة : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » تأخذنى هزة اشتياق ووجد، إذ أحس إحساساً جياشاً أنى قريب من شجرة النبوّة، وأنى أمام إحدى ثمارها اليانعات ! وقد كانت نفيسة ثمرة يانعة حقاً، بجهادها العلى، ونضالها السياسى، إذ لم تكن مجرد سيدة تنتسب إلى البيت الطاهر، ولكنها كانت رائدة بين الرائدات .

سعدت مصر بزيارة السيدة الطاهرة، فى وقت سعدت فيه بزيارة الإمام الشافعى، فقيه الإسلام الأكبر، وقد عاشت حيناً ما فى مدينة الفسطاط الإسلامية قريبة من درس الشافعى بالمسجد، فكانت آراؤه التشريعية تصل إليها، فتعلق عليها بما لفت انتباهه، فسعى إلى مجلسها العلمى وناقشهما فى كثير من مسائل الفقه، حتى إذا كان شهر رمضان خفت إلى مسجد الفسطاط لتصلى العشاء وراء الصفوف خلف الإمام الكبير، سعيدة كل السعادة بالائتمام بأكبر فقيه سعدت به هذه البلاد، وحين مات الشافعى أدركت هول الفجيعة فيه، ورثته بعبارة خالدة، ذهب الناس فى تأويلها على غير وجهها وما منهما إلا له مقام معلوم، ويكفى أنها أمرت أن تدخل جنازته إلى بيتها لتصلى عليه، وكانت قد انتقلت من الفسطاط إلى

مكان مسجدها الحالى ، فوقف الناس ينتظرون أداء الصلاة ثم يواصلون التشييع إلى المقر الأمين .. » .

قلت إن السيدة نفيسة كانت ذات نضال سياسى ، فقد واجهت والى البلاد مواجهات ناقدة حين كانت تحس بتجاوزه وتعديه ، وهى تعلم أنها علوية تعيش فى ظل العباسيين من خصوم بيتهما ، ولكنها تقدر كل احتمال ، فتجابه المعتدى فى موكبه العام عند صلاة الجمعة ، وتنهال عليه تقريعاً كى يصحح أخطاءه ، وقد سعى الساعون عليها فى حاضرة الخلافة بعد أن توفى زوجها ، فصودرت أموالها وعاشت على الكفاف ، تستنكف أن يصلها أحد المريدين بمال قلّ أو أكثر ، إذ هى من أهل بيت لا يقبل الصدقة ، ولو كانت فى مظهر الهدية الأخوية ، وهو ترفع زاد من مكانتهما ، فانجذبت العامة والخاصة إليها ، وأخذ كل صاحب مظلمة يتجه إليها ، لتجابه به الوالى بنصرته ، وتلك هى الزعامة حقاً ، إذا أردنا اصطلاح العصر الحديث .

وفى سنواتها الأخيرة أحست بدنو أجلها ، فحفرت قبرها بيدها فى درب السباع ، بمكان المسجد الآهل ، وجعلت تنزل إلى أعماقه وتقرأ القرآن ، وتصلى قاعدة لضعفها ، حتى فاضت روحها فى أول جمعة من شهر رمضان ، وحاول أهلها أن ينقلوا بالرفات إلى المدينة بالبقيع ، فاحتشدت الخلائق وأصرّ المصريون على أن تدفن فى قبرها الذى بنته ، ونهض عبيد الله بن السرّى والى مصر ببناء ضريح على الحفرة الكريمة صار مشهداً عاماً يتوافد إليه الناس ، ثم تجدد البناء على نحو واسع فى عهد الدولة الفاطمية أيام الخليفة المستنصر ، وفى زمن الخليفة الحافظ لدين الله حدث تصدع بالبناء فى القبة العليا ، فأمر بتجديد المشهد وكسوة المحراب بالرخام .

وتوالت عناية سلاطين المماليك بالمزار ، فحرصوا على تجديده الدائم ، حتى كان عصر العثمانيين فى نهايته ، فنهض الأمير عبد الرحمن كتخدا بتهيئة المسجد على وضعه الراهن اليوم ، وشاهد ازدحام الرجال مع النساء عند الزيارة فأمر باتخاذ طريق خاص بالنساء ، ثم انضم إلى وزارة الأوقاف فيما بعد ، فأكملت عمرانه على خير

وجه ، لأن ما حبس عليه من الأوقاف ، وما كان يتجمع فى صناديق النذور كان من الكثرة بحيث امتد خيره إلى مساجد العاصمة بعد أن فاض المال كالطوفان .

وقد كانت كلّية اللغة العربية الأزهرية لعهدى أيام الطلب بالصليبة قريبة من مشهد السيدة نفيسة ، فكانت أكثرية الطلاب من أبناء الأحياء المجاورة يذاكرون بالمسجد الطاهر فى مواسم الامتحانات ، وكان عجباً أن ترى تلميذ المدرسة الابتدائية يذاكر بالمسجد ثم يسأل طالب المدرسة الثانوية إلى جواره عن بعض ما غمض ، ويأتى طالب الثانوية ليسأل طالب الجامعة فيجيب ، وهذا ما شهدته بعينى وقمت به ، وهو نوع من التكافل العلمى أغنى عن وباء الدروس الخصوصية التى تكتسحنا الآن ، إذ كانت المدرسة حينئذ هى المدرسة ، والأستاذ هو الأستاذ ، أما الآن فجسم ولا روح ، وفصول ولا تدريس .

وكتب التراجم تفيض فى مآثر السيدة نفيسة ، وإذا كان كبار الفقهاء فى حياتها يتعاقبون على مجلسها العلمى مناقشين ، فإن هؤلاء قد دأبوا بعد وفاتها على زيارة مشهدها ، ومنهم عبد الرحمن البويطى ، والربيع بن سليمان ، والربيع الجيزى ، كلهم من أصحاب الإمام الشافعى وتلاميذه ! وما تزال مواكب الزائرين من العلماء تتوافد ، وقد كان أستاذى العلامة الكبير الشيخ أحمد شفيع السيد رحمه الله يحرص على الصلاة فى المسجد النفيسى عصر الجمعة ، وكثيراً ما كنت أصطحبه فأجد التزاحم الحاشد والإقبال الشديد .

ثقافة المرأة المسلمة

وقد ظهر فى هذا الزمن من غلاة الكتاب من ينكر على السيدة نفيسة رضى الله عنها مكانتها العلمية ، مدعياً أن المرأة المسلمة لم تصل إلى حد الصدارة فى المسائل العلمية على مدى التاريخ الإسلامى حتى تكون السيدة نفيسة وحدها مثلا فريداً يذكر محوطاً بالكرامات العلمية ، وتلك دعوى خطيرة ، لأن المرأة المسلمة لها مكانها العلمى الذى سجلته الكتب المتعاقبة ، وإنكار ما تواتر فى الصحف المتتالية دون دليل مما يهدم الحقائق بالظنة الخادعة لا بالبرهان القويم ، ونجد مثل هذا الكاتب كثيراً من أصحاب الأقلام ممن لم يقرءوا تاريخ الإسلام على مدى عصوره ،

بل تلقفوا شذرات من معلوماتهم الإسلامية عن كهنة المستشرقين ، فضلوا وأضلوا غاية الضلال والإضلال ، ولو أنه ثقف منهج العلم كما يزعم لنفسه لرجع إلى المؤلفات العربية ليجد ما ينطق بالحق دون حجاب .

ويكفى أن نذكر أن السخاوى صاحب (الضوء اللامع) قد عقد جزءاً خاصاً من موسوعته لتراجم النساء ذات الحيثيات الأدبية والعلمية والسياسية فى عصره ، بحيث لو أردت فى هذا العصر أن تكتب جزءاًخاصاً بشهيرات نسائه فى بلد ما لعز عليك أن تعثر علىقدر كبير منهن يماثل من تحدث عنهن السخاوى فى الضوء اللامع ، مع تقرير حقيقة واضحة هى أن المرأة فى العصر المتقدم كانت تتعلم لذات العلم ، فلم تكن لتعلن عن نفسها فى شىء . فكم من متعلمات غفل عنهن السخاوى ونظراؤه لأنهن لم يشتهرن لدى الكاتبين ، ولأن ذوى الغيرة من أوليائهن يأنفون أن يكون حديثهن موضع الذيوع .

ومع هذا الاحتياط المتشدد فقد شاع ذكر المرأة بالعلم وسجل التاريخ لهن صحائف ناصعات ، ونضع أمام القارئ شاهداً تاريخياً لا يخطئ مبتغاه هو أن الجلال السيوطى معاصر السخاوى وقريعه قد ختم كتابه (بغية الوعاة) بمسلسلات قرأها على فضليات من عالمات النساء كما كان يقرأ على أعلام الرجال سواء بسواء، وقد ذكر ممن قرأ عليهن : الأصيلة الثقة الخيرة الفاضلة الكاتبة أم هانئ بنت الحسن الهورينى ، كما قرأ على السيدات الفضليات : هاجر بنت محمد، وأم الفضل المقدسية ، ونشوان بنت عبد الله، وكمالية بنت أبى بكر ، وأمة الخالق بنت العقبى ، وفاطمة بنت على الفسطاطية ، وأمة العزيز بنت محمد ، وخديجة بنت الحسن بن الملقن ، وغيرهن من كبيرات الفضليات :

فإذا كان الجلال السيوطى أكثر مؤلفى الإسلام كتابة وتصنيفاً قد قرأ على أكثر من عشر أستاذات له ، فمن له اليوم فى عصر نزعمه عصر المرأة المثقفة عشر أستاذات يعدهن ، شهيرات بآثارهن ، رائعات بعلمهن ، كما فعل الجلال ، ولم يكن السيوطى وحده أول من اعترف بأستاذية المرأة ، فابن الجوزى العلامة الذائع ينقل دائماً عن شهرة الكاتبة فيروى عنها الحديث والأدب والتاريخ ، ولها ترجمة جليلة فى وفيات الأعيان يرجع إليها من شاء .

وما لنا نبعد وأمامنا المحدث الكبير أبو مسلم الفراهيدى يروى الحديث فى عصره عن سبعين عالمة من الحرائر والإماء ! أما علاء الدين السمرقندى أشهر عالم فى عصره فقد كانت ابنته الفقيهة العلامة فاطمة العلائية تحفظ تحفته وتشرحها للطلاب والطالبات مع دقائقها الأصولية وخفاياها الفقهية ، وكانت الفتوى الدينية تصدر عن أبيها موقعة بإمضائه وإمضائها معاً ، حتى نهض تلميذه أبو بكر الكاسانى الملقب بملك العلماء فألف كتاب البدائع فى شرح التحفة وقدمه لشيخه علاء الدين ففرح به ، وقرأته فاطمة فأعجبت بعلمه وتخريجه ، وكان من وراء رضا الوالد وإعجاب الفتاة أن نال أبو بكر حظوة قبولها فأصبحت زوجته وشريكة حياته ، قالوا وكانت الفتوى تخرج عقب ذلك من بيت علاء الدين السمرقندى موقعة بإمضاء الشيخ الأكبر وكريمته وزوجها ، فهى ذات ثلاثة توقيعات ! !

وإذا كانت طرائف المرأة المثقفة أكثر من أن تحصر فإننا نكتفى الآن بنادرة رائعة ترويها الكتب الأدبية والتاريخية عن أم على تقية العالمة المصرية الفاضلة ، وكان أبوها أبو الفرج غيث بن على من كبار علماء عصره ، وجاء ولدها أبو الحسن على بن فضل من كبار النحاة والقراء ، وأما هى فقد تتلمذت على الحافظ المحدث أبى طاهر السلفى شيخ علماء الإسكندرية بعد أن حصلت علم أبيها ، وكانت تخلص للحافظ إخلاصاً بعيداً ، وكان ينظر إليها بعين التقدير حتى ليذكر فى درسه بعض آرائها العلمية لطلابه ، وقد زار والدها ذات يوم ، فجرحت قدمه بالمنزل عفواً بتأثير زجاجة صغيرة ارتطم بها فى سيره ، فشق ذلك على تلميذته المخلصة ، وقدت من خمارها شريطاً لقدم أستاذها ، وعصبت الجرح ثم أسعفتها البديهة ، فقالت شعراً ارتجالياً يصور عاطفتها نحو أستاذها ، ومنه :

لو وجدت السبيل جدت بخدى   عوضاً عن خمار تلك الوليدة
كيف لى أن أقبل اليوم رجلا   سلكت دهرها الطريق الحميدة

كما يروى عنها ما هو أطرف وأعجب ، فقد مدحت الملك المظفر بقصيدة بدأتها بوصف مجالس الأنس كما كان المعتاد لدى شعراء عصرها ، فأعجب بها الملك ، ولكنه تبسط مع بعض خاصته فقال : لا شك أن الشاعرة كانت تعرف مجالس الأنس فى صباها فوصفتها هذا الوصف البديع ! وطارت الكلمة إلى

الشاعرة العالمة الحصيفة، فغضبت لنفسها غضباً مهذباً مفحماً، إذ أنشأت قصيدة حربية تصف فيها حابة الهول واصطدام الأسنة ، واشتجار الرماح وصفاً رائع المنحى جيد الصورة ، ثم تقدمت بها إلى الملك المظفر قائلة فى أدب جم : إن علمى بمجالس الأنس كعلمى بحلبات القتال ، فأطرق الملك معتذراً .

نتيجة مهمة

هذا قل من كثر ، مما تفيض به صحف التاريخ العلمى عن نشاط المرأة المسلمة فى الميدان العلمى ، ولكن الذين فى قلوبهم مرض ينكرون على السيدة نفيسة نشاطها الفكرى ، لأنها لم تترك مؤلفاً ، وبالتالى ينكرون على من ذكرناهن من الفضليات جهودهن العلمية ، لأنهم لم يتركن مؤلفات ، ناسين أن طبيعة العصور الماضية كانت تحول دون أن تؤلف السيدة كتباً تذيع بين الناس ، لأن مشاق الوراقة ووسائل الذيوع مما تصان عنه المحصنات فى عرف هذا الزمن ، ولنا أن ننتقل إلى ترجمة عالم فاضل كتب مؤلفه عن الإمام البخارى فى حرم المسجد النفيسى ، وكان صاحب دروس متعددة بهذا المقام الطاهر ، وقد رحل إلى ربه كريماً أثيراً ، فمن حقه أن نجعله مثلا لمن عشقوا هذا المسجد الكريم ، ذلكم هو الأستاذ الحسينى هاشم .. رحمه الله ..

الحسينى هاشم

وكيل الأزهر وأستاذ الحديث الشريف

ربى المسجد الإسلامى أعلام الأمة المحمدية ودعاتها الكبار ، ومنهم دون شك المحدث الداعية الحسينى هاشم الذى نشأ صغيراً فى أسرة طاهرة تجمع عناصر الفتوة الإسلامية الأصيلة ، وتتمسك بتقاليد الإسلام فيما تأخذ وفيما تدع ، وتترجم عن شمائل الطبيعة النقية ، والفطرة الخالصة التى جبلها الله على المودة والحب والتقوى المتحرزة عن الصغار ، الدافعة إلى البذل والإيثار .

لقد زاملت الفقيد فى عهد الدراسة الأولى ، وزرت بيته الكريم فى بنى عامر إحدى قرى الشرقية ، فكنت أجد عميد الأسرة العارف بالله الشيخ أحمد هاشم رائع الهيبة ، فياض البر ، حسن اللقاء ، إذ كان زعيماً دينياً تهوى إليه القلوب من كل فج ، فمسجده الفسيح آهل بالغادى والرائح ، وبيته العامر نافح بالخير والزاد لكل وافد ، وأصوات التسبيح تتردد فى كل مكان ، ومجالس البر والمصالحة والدعوة إلى التئام الشمل لاتكاد تنقطع ، إذ ما يكاد يقع حادث فى قرى الشرقية ، حتى يلجأ المتنازعون إلى الشيخ الكبير وكأنه رئيس محكمة رسمية ، فيفصل فى الأمر الحكم العدل ، ويجد من حلاوة القبول وسماحة الرضا ما يسهل العسير مهما كان شاقاً حرجاً ، والقرى المصرية فى حاجة إلى هذا النمط من الهداة ، يكونون موضع الثقة البالغة من النفوس ، فيجذبون إلى ساحة الخير كل شارد ، ويضمدون بالحكمة والموعظة الحسنة دامى الجراح .

حدثنى عالم كبير من مفكرى أبناء الشرقية فقال : ماعرفت رجلا كالشيخ أحمد هاشم ؛ وقع نزاع بين قريتين ، وسالت الدماء ، وطالب كل فريق بالثأر ، وجاء الخبر إلى العارف بربه ، فهرع سريعاً إلى القريتين ، ودعا السكان جميعاً إلى ضيافته فى قريته يوم الجمعة ، فانهالت الوفود خلف الوفود حتى ضاقت بهم

الأرض ، ووسعهم منزل الرجل سماحة وإيناساً وطعاماً وشراباً ، ثم استمع إلى كل فريق ، وأشار بالصلح داعياً إلى التجاوز ، فتراضى المتخاصمون على كثرتهم المفرطة ، وخرجوا أحباباً يتعانقون !

فى هذه البيئة الكريمة نشأ (الحسينى هاشم) كما نشأ ابن عمه محمود هاشم ، وقد كنا بمعهد الزقازيق الدينى نزور (بنى عامر) فى أيام الخميس والجمعة ، لننتقل إلى جو دينى خالص ، ولنرى مثلا نادراً لايعرفه على حقيقته إلا من شاهده فالشيخ الكبير لايكاد ينام الليل ، فإذا أذن الفجر تقدم الناس إلى الصلاة ، ثم دعا بأكواب اللبن ففرقها بنفسه على الحضور قبل أن يبارحوا المسجد ، ثم يمضى إلى الساحة ليستقبل الناس مستمعاً إلى مايرجون ، وهو لاينى عن التسبيح والذكر ، ومراعاة الوافدين بأكثر مما يستطيع .

النشـأة الأولى

فى هذا الأفق الملائكى الناضر عرفت (الحسينى هاشم) طالباً بمعهد الزقازيق ، فعرفت شمائله التى لازمته صغيراً ، وصحبته كبيراً دون أن يتغير فى شىء ، كان منذ صغره حيياً خجولا ، لايقتحم المجالس ، ولا يرفع الصوت بالمعارضة بل كان يقبل على الدرس فى صمت ، ويسأل أستاذه فى هدوء ، ويتعهد رقيقى الحال من زملائه بالمعونة ، فكان يشترى الكتب الدراسية لبعض من لم يستطع الشراء ، وكان منزله فى عهد الطلب صورة مصغرة من منزله الآن فى عهده الأخير ، يؤمه الزملاء عن محبة راغبة ، وود أكيد ، فلا يجدون غير البشاشة الحانية ، وقد وفقه الله فى ميدان التحصيل منذ نشأته ، متجهاً إلى حقل الدعوة الدينية خطيباً فى المساجد ، وواعظاً فى الندوات ، ثم التحق بكلية أصول الدين .

ولم يشأ أن يقصر دراسته على العلم وحده ، فاتجه إلى الأدب ، ونشر فى الصحف الأسبوعية مقالات تنبئ عن موهبة واستعداد ، وماكان يعرف الزهو فى شىء ، بل كان يعرض نتاجه الأدبى فى حياء بالغ ، وكنت موضع مشورته إذ ذاك ، فجعلت أقارن بين تواضعه الخجول على حسن استعداده وتشامخ غيره على جدب موهبته فأرى عجباً أى عجب .

وقد لا يعرف القارئ أن الحسينى هاشم نشأ شاعراً ، ونظم عدة قصائد لم تحظ بقبوله ، فآثر الإغضاء عنها، ماتت إحدى شقيقاته وهو طالب بكلية أصول الدين ، فبكاها بدموعه ، ثم استجاب إلى قريحته فنظم قصيدة باكية بادر بقراءتها على فى مسودتها المتواضعة ، فأخذتها منه ، ثم تقدمت بها إلى مجلة الثقافة دون أن يعلم فنشرت بالعدد الصادر بتاريخ ٣ يولية سنة ١٩٥٠ ، ومنها هذه الأبيات :

قل للنواعس بعدهــــا ... إن المحاسن فى التراب
قــل للورود تبعثرى ... فالروض أصبح كاليباب
وقـع المصاب وليس كل ... مصيبة مثــل المصــاب
أنا لا أحس من الحيــا ... ة سوى التياع واضطراب
أنا لسـت جباراً فــلا ... أقـوى على حمـل المصاب
يامـوت أنـت فجعتنى ... فامسح بنفسك ذا العــذاب
يكفيك تعـذيب الصغا ... ر ومادروا طعم الشراب
أنقذ وجـودى من حيـا ... ة عيشهـا السم المـذاب
فالقـبر آمـال الــذى ... فقـد الأحبـة والصحاب

وفاجأت الحسينى بالقصيدة على صفحات مجلة الثقافة ، وهى حينئذ من مجلات الأدب ، ذات القدر الرفيع ، ولازلت أذكره ابتسامه الطريف وهو يقول : أنت بعثتها للمطبعة دون أن يقرأها الدكتور أحمد أمين .

فى ميدان الوظيفة

بعد أن تخرج الحسينى من كلية أصول الدين عين أستاذاً للتفسير والحديث بمعهد الزقازيق الدينى ، ثم انتدب إلى التدريس بمعهد غزة الدينى ، وهى يومئذ فى كنف الإدارة المصرية ، ولكنه لم ينس صحبته للكتابة العلمية النافعة بالمجلات الدينية ، وهى صحبة وثيقة الصلة بمشاعره الذاتية ، وكانت المناسبات العلمية تدعوه إلى السجال العلمى بين الأساتذة والنظراء من زملائه ، والسجال العلمى يتطلب إعداداً وجرأة، وهما غير ماطبع عليه الحسينى من تواضع وهدوء، ولكنه عمل

على التوفيق بين النزعات المتضاربة ليسهم بدوره فى تصحيح الأخطاء ، ونصرة مايراه من الحق المبين .

أذكر أن عالماً كبيراً من أساتذته أخرج مؤلفاً علمياً ألم فيه بحديث عن المفسر المؤرخ أبى جعفر الطبرى فلم يضعه موضعه العلمى الصحيح ، بل قاسه بغير ميزان عصره ، وهو شطط يقع فيه من لم يضع الشيء موضعه الدقيق ، إذ لابد من تقدير البيئة العلمية الخاصة فى كل زمان ، وقد قرأ الحسينى ما كتب أستاذه عن الطبرى ، وتحرّج أن يقف منه موقف المعارض ، كما تحرّج أن يسكت عن خطإ يجب تصحيحه ، وأذكر أنه قابلنى حينئذ ، فأشرت عايه أن يقول مالديه دون تحرّج ، فاختلاف الرأى لايفسد قضية الود ، ولكنه سكت قليلا ثم قال : سأنشر فصلا بمجلة الأزهر عن مكانة أبى جعفر الطبرى فى التفسير والتاريخ فأصحح أخطاء الأستاذ دون أن أشير إليه ، فإذا ألم القراء بمقالى عن الطبرى أدركوا ماأعنيه دون أن أجابه أستاذى ، وفعلا ظهر عدد رمضان ١٣٨٣ هـ من مجلة الأزهر يتضمن كلام الحسينى عن الطبرى دون أن يشعر أحد أنه يصحح خطأ رآه .

وهذا السلوك النفسى يكشف عن مشاعر الرجل ، ويصور مذهبه الخلقى الذى التزمه طيلة حياته ، ولوكنت مكانه لنقدت المقال مصرّحاً بخطإ من وقع فى الخطإ فما من أحد ينجو من الاعتراض ، ولكن الطبائع تتعدّد ، وأشرف هذه الطبائع ما اتجهت بصاحبها إلى المسالمة والاحتياط .

ولا أنس موقفاً آخر للحسينى ، فقد كتب أحد زملائه مقالا علمياً بمجلة الأزهر ذهب فيه إلى أن البسملة ليست جزءاً من السورة القرآنية ، وساق أدلة جمعها من أقوال بعض العلماء ، فلم يقع المقال موقع القبول من الحسينى ، وكتب ردا مؤيداً بالحجج نشرته مجلة الأزهر ، وعقب عليه الأستاذ عبد اللطيف السبكى مؤيداً مزكياً ، ولكن الدكتور الحسينى أشار إلى الزميل بوضوح ، وحين سألته عن اختلاف مسلكه فى النقد عما عرفته منه حين كتب مقاله عن الطبرى ، قال إن الأول أستاذى وله حق الإذعان ، والثانى زميلى ، ومن حقه أن يبدى الرأى ومن حقى أن أعقب !

هذا وقد كان الأستاذ خالد محمد خالد نشر مقالا بجريدة الجمهورية عن تعدّد الزوجات فى الإسلام، نزع فيه منزعاً غالياً فرد عليه الحسينى بأدلة مقنعة، ولكن جريدة الجمهورية حينئذ لم تنشر رد الحسينى، فقابلنى ليقدم إلى ما كتب، وليسأل فى تواضع : هل أنا مخطىء ؟ قلت : أنا معك، وابعث بردك إلى مجلة الأزهر، لأن تجلية الحقائق على صفحاتها أكمل وأوفى، وقد كان، فنشر الحسينى رده بعدد شوال ١٣٨٠هـ، وأذكر أن الأستاذ الزيات قد حذف منه بعض الحقائق المشتهرة لذيوعها، وكان صدر الحسينى فسيحاً حين قال لى : إن الزيات يعلمنا كيف نهجر المقدمات وندخل فى الموضوع ! هكذا كان دائماً يرى نفسه تلميذاً يتعلم، دون أن يجمح به زهو أو خيلاء ! رحمه الله.

رسالة الدكتوراه عن البخارى

التحق الحسينى بالدراسات العليا بكلية أصول الدين، وهو مدرس بالمعهد الدينى، ووفق بنجاح حتى حصل على درجة الدكتوراه برسالته العلمية عن الإمام البخارى محدثاً وفقيهاً، وهى أنضج ما كتب الدكتور بحثاً واستقصاء ودفاعاً عن السنة المجيدة.

وقد كانت المناسبة ملحة لصدور مثل هذه الرسالة القيمة، لأن الجو الدينى قد تسمم بكتاب سماه صاحبه (أضواء على السنة المحمدية) وقد لاقى قبولا من زعانف مغرضة لاتعرف عن تدوين السنة شيئاً، وقد سرها أن يكون هذا الكتاب معول هدم للحقائق الثابتة، فأكثرت له الطبل المدوى دون تحقيق، وتخصصت أقلام فى الإشادة به جهلا دون علم، وكان من العجب العاجب أن الذين عدوه بحثاً رائعاً فى بابه ليسوا من رجال الحديث، ولا يكادون يلمون بحقائق العلم الصحيح، وكانت الأمانة العلمية تدعوهم إلى أن يقفوا فى الكتابة عند اختصاصهم، ولكنها مصر التى تفتح باب الحديث عن كتب الإسلام لكل كاتب، علم أو جهل، فجاء كتاب الدكتور الحسينى ليفند ماسيق من لغط لا تراعى فيه الحقيقة، ولاتؤخذ من لبابها الصحيح، والحسينى هادئ الطبع، مهذب النقاش، وهو بهدوء طبعه وسلامة منهجه، يجذب إليه المنصفين ممن ينشدون الاستماع إلى القول دون صخب مفرقع، لأن الضجيج وإن كان فى موكب الحق لايعقب الإقناع الشافى،

ولكن التمسك بآداب البحث والمناظرة فى دفع الحجة ، وإيضاح الدليل ، هو السبيل القريب إلى الإقناع .

وإذا كان البخارى رضى الله عنه قد اشتهر بالحديث وحده فإن الناحية الفقهية فى أثره العلمى كانت فى حاجة إلى مزيد من الجلاء ، وقد قدم الحسينى إمام المحدثين فقيهاً له منحاه الهادئ فى الاستدلال والتوجيه والاعتصام بالأثر النبوى فى الرأى ، والباب الرابع من الرسالة الخاص بفقه البخارى يجمع من الحقائق المتناثرة ما يؤلف موضوعاً جديداً نسج الحسينى خطوطه خيطاً خيطاً حتى استوى ضافى الذيول بهيج الرواء ! وقد أفاض فى الحديث عن نشأة البخارى وحياته العلمية ، وعن حركة تدوين السنة قبل الإمام ، وعن منهج البخارى فى التدوين .

وأذكر أن بعض الناقدين أخذ على الحسينى تعصبه الشديد للبخارى ؟ وهو مأخذ موضع نظر ، لأن المؤلف يتعصب للحق حين يتعصب للإمام ، وماذا عسى ينتظر القارئ من دارس يتحدث عن إمام تناوله الأدعياء بالطعن المغرض ، فزعموا أن الصحيح فى كتابه الخالد قليل قليل ! إنها فرية مغرضة لايكون دفعها تعصباً للرجل بل تعصباً للحقيقة التى أوشكت أن تضيع بين قوم يهرفون بما لايعرفون لقد خص الباحث ثلاثة فصول من كتابه للرد على الشبه الظالمة التى تنسج افتراء حول السنة المطهرة ، وهو فى الوقت نفسه يظهر صحة المنهج الذى احتذاه البخارى فى التدوين .

وإذا كانت هذه الشبهة قد ترددت فى كتب الاستشراق فقد أجاد الباحث تتبعها فى مظانها تتبعاً يقظاً حذراً ، كما سرد بعض الأحاديث التى وجه إليها الطعن وبين خطأ ما قيل ، كما عرض لما قاله الأستاذ الدكتور أحمد أمين فى ضحى الإسلام إذ أشار إلى قلة اهتمام الدارسين بالمتن ، وكثرة اهتمامهم بالسند ، فذكر أن الاهتمام بالسند والمتن معاً كان من دأب المحدثين ، وأظن أستاذنا الخضر حسين رحمه الله قد كتب فصلا خاصاً بهذه الناحية جلا فيه الحقيقة جلاء ساطعاً ، ولعل كثرة الحديث عن رجال الإسناد والحرص على تدوين حيواتهم ، وتتبع ما روى من أخلاقهم تتبعاً دقيقاً لايغفل الهاجسة المستترة هو الذى أكثر الحديث عن رجال الإسناد بصورة جعلت ما قيل عن المتن يبدو فى صورة أقل ! ولكن المسألة ليست

مسألة كم فحسب ، فقد فحص السند كما فحص المتن ، وإذا كان الحسينى قد اهتم بتفنيد كل ما ادعاه المغرضون من ريب ، فقد قام مقاماً كبيراً ، وقد بلغ برسالته العلمية مبلغ الجودة المتقنة ، ذات الهدف النبيل .

أعمـــال شتى

تصدر الدكتور الحسينى بعد الدكتوراه لتدريس الحديث بكلية أصول الدين فى مصر ، وفى كليات مماثلة بالسودان والمملكة العربية السعودية ، وأصدر كثيراً من الكتب لتلاميذه فى هذا المجال ، وقد كان أثيراً لدى تلاميذه وزملائه معاً ، لما حباه الله من خلق نبيل ، أذكر أنه فى أثناء بعثته إلى المملكة العربية السعودية بمكة المكرمة تولى تدريس الحديث لطلبةالدراسات العليا بكلية الشريعة هناك ، وكان بعض أساتذته بكلية أصول الدين بمصر يزامله فى التدريس للمادة ، فى فرقة مماثلة ، وجاء للدكتور الحسينى من أنبأه أن أستاذه يقول إن الحسينى تلميذه ، فكيف يقف معه فى مستوى واحد ولو كان المستمع غير الحسينى لضاق ذرعاً بما سمع ، ولكنه فى اليوم التالى توجه للأستاذ فى قاعة الدرس وجلس فى صفوف التلاميذ ، فدهش الأستاذ ، وتساءل عن موقف الحسينى ، فقال الدكتور فى براءة : أنا تلميذك ، وقد كنت أستمع إليك فى كلية أصول الدين بمصر ، ولابد أن أواصل الاستماع هنا لأستفيد ، فقام الأستاذ وعانقه متأثراً . وأنا أحرص على تدوين هذه المآثر الخلقية ، لأنها نادرة الوقوع فى زمننا هذا ، وإذا صدرت عن مثل الدكتور الحسينى فإنها تصبح مظنة القدوة ، وموضع الاحتذاء ممن يسرهم أن يتمسكوا بالصراط القويم .

كما أذكر أن المحدث الكبير المغفور له الأستاذ أحمد محمد شاكر كان يقوم على إخراج مسند الإمام أحمد بن حنبل فى عدة أجزاء بلغت العشرين ، وقد أوفى على الغاية فى دقة التخريج ، والصبر على المراجعة ، والتوفيق بين الروايات المختلفة بما لا يستغرب من مثله ، ثم انتقل إلى رحمة الله ، فرأى الناشر أن يستعين بالدكتور الحسينى فى تهيئة ما بقى من أجزاء المسند ، وقد كنت فى زيارة الحسينى فوجدته يقول فى حيرة ؛ لقد عهد إلى أن أقوم مقام العلامة الشيخ أحمد شاكر وأين أنا منه ؟ بل أين أنا من تلاميذه ؟ إن العبء ضخم ، والجهد محدود ، فماذا ترى ؟ قلت : إن

حبك لحديث رسول الله سيمدك بالعزم والأيد إن شاء الله ، فصاح الحسيني يقول : والله لقد استحييت من رسول الله أن أرفض هذا العمل ، وسأبذل جهدى ، فإذا قصرت عن الغاية المثلى التى التزمها الشيخ شاكر ، فليغفر الله لى ، وقد نشر الحسيني بعض الأجزاء وتقدير عمله العلمى يرجع إلى ذوى الاختصاص ، ولست منهم ؟

أحاديثه الإذاعية

عرفنا معدن الدكتور الحسيني العلمى فيما كتبه عن البخارى رضى الله عنه ، وكذلك فيما أخرجه عن الوحى الإلهى ، وعن أئمة الحديث النبوى وغيرهما من بحوثه المشتهرة ، وأذكر أنه أصدر كتاباً عن الشاعر العراقى معروف الرصافى ، يلم بمواقفه الاجتماعية والقومية ، مما يدل على أنه لم ينس هوايته الأولى للأدب ، وشغفه بالشعر ، والمقالة الفنية ، أما ما أشير إليه الآن فهو أحاديثه الدينية التى يلقيها فى الإذاعة والتليفزيون ، وقد جمع بعضها فى كتابه « الدين القيم » بجزأيه ، وهى أحاديث سهلة ذات منزع ميسر ، حدده الإمام الأكبر عبد الحليم محمود رحمه الله ، حيث أوصى تلميذه وصهره الدكتور الحسيني بمراعاة حق العامة فى الهداية والإرشاد ، إذ رأى الإمام الأكبر أن فريقاً من كبار المتحدثين لايفرقون بين الكلمة المذاعة والمقال العلمى ، فهم يحدثون جمهرة المستمعين ، وكأنهم يؤلفون كتاباً ، والإمام الأكبر يدعو المتحدث فى مجال عام أن يراعى حق الجمهور فى استيعاب النفع ، ويأخذ على فريق من العلماء محاولة غموض مصطنع لا يصل بالمعلومات الدينية إلى ذهن السامع من أيسر طريق ، وقد استجاب الحسيني فى أحاديثه العامة إلى دعوة أستاذه ، فتعمد التبسيط تعمداً ، وأذكر أنى قلت له فى مجال الحوار الخاص بهذه النقطة : إن الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله كان يرضى حاجة العامة والخاصة معاً ، بوضوحه ودقته ، إذ كان يحسن اجتماعهما معاً ، فسامعه يتشبع بآرائه مهما بلغت درجة ثقافته ارتفاعاً وانخفاضاً ، ذكرت ذلك للحسيني فقال : ومن مثل دراز حتى ينحو منحاه ؟ وصدق فيما قال ، ولست بذلك أضائل من قدر الأحاديث الإذاعية ، ولكنى أعرف أن مقتضى الحال سر بلاغى دعا إليه النقاد ، وأن التيسير أولى من التعسير إذا وجه الخطاب إلى

الجمهور ، والنفوس البشرية تسأم الجد المتعمق ، ومن واجب الداعية أن يمهد لهذه النفوس طريق الإصغاء ، لا أن يدعوها إلى العزوف :

على أن الحسينى لم يقتصر على أحاديث الإذاعة ، إذ كان يزور مساجد الشرقية زيارات متتابعة ليلقى العظات الموسمية ، وإن القرى الهادئة فى مراكز منيا القمح وكفر صقر وأبو حماد وبلبيس وفاقوس وغيرها ، قد سعدت بالراحل العزيز ، واطمأنت إلى وعظه المتكرر ، كما استشعرت حزناً على فقده ، إذ كان مصباح توجيه ، ولواء هداية وإرشاد ! أما مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها فما أكثر ما سعد بدروسه المثمرات .

لقد مضى الداعية العارف بالله الشيخ محمود هاشم إلى ربه ، فكان بقاء الحسينى من بعده عزاء للذين يعرفون مكانة الأسرة الهاشمية فى المجتمع الإسلامى ، وقد شاء الله أن يلحق به ، ليكأ جرحاً لا يجد الاندمال ، ولكن الله لن يضيع قوماً تواصوا بالحق ، واعتصموا بالخير ، وسيهيئ من الخلف من يرعى أمانة السلف . أما وحشتى القاسية لرحيل الحسينى فليس لها غير الصبر الجميل :

خطيب المسجد

مشاهد تاريخية

لخطيب المسجد روعة ومهابة ، لأنه خليفة رسول الله على منبر الجمعة ، يقف موقفه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه ، فإذا كان فصيح العبارة ، كامل التقوى ، نقى السلوك زاد محبة فى معشره ، وكان موضع تبجيل وإكبار :

وقد حرص الخلفاء الراشدون ومن تلاهم من خلفاء بنى أمية وبنى العباس أن يكونوا خطباء المنبر يوم الجمعة ، وكانوا يميلون إلى الإيجاز إيثاراً للسلامة لدى من لم يرزقوا حظوة التدفق والانسياب ، وقد كان عبد الملك بن مروان من بلغاء عصره وناقديه ، ولكنه قال فى اعتراف لا يقلل من مكانته حينما سئل لماذا أسرع إليك الشيب ، فأجاب : وكيف لا يسرع وأنا أصعد المنبر كل أسبوع لأعرض عقلى على الناس .

وفى منتصف القرن الثالث من الهجرة تراخى الخلفاء عن خطبة الجمعة ، وعهدوا بها إلى ذوى اللسن من العلماء ، ولكن خلفاء الفاطميين فى مصر تمسكوا بالخطبة وحرصوا عليها ، حتى قيل إن الحاكم بأمر الله كان يوزع خطب الشهر على أربعة مساجد من مساجد القاهرة هى مساجد: عمرو ، وابن طولون ، والأزهر ، والجامع الحاكمى .

وفى كتب الرحلات مشاهد تاريخية لبعض من شاهدهم مؤلفو هذه الرحلات من الخطباء ، وهى تبين هيبة الخطيب ، وشدة اهتمامه بموقفه ، وكيف ينتظر السامعون مقدمه فى هيبة ، وسنوجز بعض هذه المشاهد نقلا عن ابن جبير ، لأن من تلاه من الرحالة قد حذا حذوه حتى ليخيل إلى فى بعض المواقف أنه ينقل منه ، ولذلك كان الرجوع إلى الأصل الأول أوجب وأحق :

شاهد ابن جبير بيت الله بمكة ، وتحدث عن الخطابة الدينية فى أكثر من

موضع (١) ، فذكر أن منبر الخطيب يقوم على بكرات أربع ليسهل انتقاله ، فإذا كان يوم الجمعة ضم إلى صفح الكعبة الذى يقابل المقام ، ثم يقبل الخطيب داخلا من باب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه عمامة سوداء ، وطيلسان حريرى رقيق ، وذلك من كسا الخليفة التى يرسلها للخطباء ، وقد جعل يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما مؤذنان قويان ، وبين يديه أحد الخدم ، وفى يده عود مخروط أحمر ، قد ربط فى رأسه حبل مفتول طويل ، وفى طرفه عذبة ينفضها بقوة فتحدث صوتاً عالياً ، كأنه إيذان بوصول الخطيب لمن لم يره ، ولا يزال ينفضها بقوة ، فإذا قرب الخطيب من المنبر ، عرّج على الحجر الأسود فقبله ، ودعا عنده ، ثم سعى إلى المنبر ، ووراءه المؤذن ومعه السيف ، فحين يرتقى الخطيب أول درجة من منبره ضرب بسيفه المنبر ، وقد أخذه من المؤذن ، ثم يرتقى الثانية والثالثة والرابعة وهو يضرب بسيفه موقظاً منبهاً ، ثم يستقبل القبلة بدعاء خفى ، ويتلفت عن يمينه وشماله قائلا : السلام عليكم ، ويقعد ، فيبادر المؤذنون بالأذان بين يديه على لسان واحد ، فإذا انتهوا قام للخطبة وتلاها ، وفى أثناء التلاوة تركز رايتان سوداوان فى أول درجات المنبر ، ويمسكهما مؤذنان قويان ، فإذا فرغ من الصلاة بعد الخطبة خرج والرايتان عن يمينه وشماله ، والفرقعة من الحبل المفتول تعاد ثانية على الهيئة التى دخل بها ، وكأن ذلك إيذان بانصراف الخطيب ، ورجوع المنبر إلى مكانه المعتاد .

هذا مشهد من مشاهد يوم الجمعة ، أما غيره من مشاهد الخطابة فنمثل له بما كان يحدث فى العشر الأواخر من رمضان حين يحتفل المكيون كل ليلة بغلام أتم حفظ القرآن ، واستعد والده أن يشهر حفظه فى احتفال مشهود ، كما جرت عادة المكيين .

يقول ابن جبير (٢) : (وجاءت ليلة ثلاث وعشرين ، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار ، غلاماً لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة ، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعاً ، إذ أعدّ ثرياً مصنوعة من الشمع على هيئة الغصون ، وقد

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٧١

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٣٠ بتصرف .

انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، وأعد لها شمع كثير جداً ، ونصب شيء على هيئة المحراب المربع ، وازدان بالقناديل والمصابيح على وجه يبهر العين ، ووضع منبر بمقربة المحراب ، وحضر الغلام المحتفل به فصلى التراويح بالناس ، وهو لا يكاد يرى من كثرة ما أحيط به من الشموع ، ثم برز من محرابه فى أفخر ثيابه ، مكحل العينين ، مخضوب الكفين ، فلا يكاد يسير من كثرة الزحام إلا بجهد ، فيحمله أحد السدنة إلى ذروة المنبر ، فيستوى باسماً ، ويعقد بين يديه القراء يتلون بلسان واحد ، فإذا وقفوا عند انتهاء سورة قام الخطيب فصدع بخطبة تحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع ، لا من جهة التذكير والتخشيع ، وبين يديه نفر يمسكون أحمال الشمع بأيديهم ، ويرفعون أصواتهم : يا رب يا رب ، عند كل فصل من فصول الخطبة يكررون ذلك ، ثم يبتدر القراء تلاوتهم من جديد فيسكت الخطيب إلى أن ينتهوا ليعود فيستأنف خطبة جديدة تحمل الرقائق ، ثم يتحدث عن البيت العتيق وزمزم والمقام مشيراً إلى أمكنتها المباركة ، ويودع الشهر المبارك وينزل محفوفاً بالفرحة والاستبشار) .

واستمر ابن جبير يعرض مثل هذه المشاهد لحفلات ختم القرآن ، وخطب الغلمان ، وبلغ الغاية كل الغاية حين وصف احتفال ليلة القدر فى السابع والعشرين من رمضان ، وبعد أن أسهب فى وصف الشموع والقناديل والمشاعل والأعواد قال[1] — بتصرف — :

(وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة ، وقد وضعت بيد كل منهم كرة من الخرق المشبعة زيتاً ، فجعلت كل طائفة تبارى صاحبتها فى سرعة الإيقاد ، فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة ، لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المتلألئ ، ويرفعون أصواتهم بيارب ، يا رب ، على لسان واحد ، فيرتج الحرم لأصواتهم ، فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر ، كاد يعشى الأبصار شعاع تلك الأنوار ، فلا تقع لمحة طرف إلا على نور ، يشغل حاسة البصر عن استمالة النظر ، فيتوهم المتوهم لهول ما يعانيه من ذلك ، أن تلك الليلة المباركة نزّهت لشرفها عن لباس الظلماء ، فزينت بمصابيح السماء .

(١) ابن جبير ، ص ١٣٤

وتقدم القاضى فصلى فريضة العشاء الآخرة ، ثم قام ، وابتدأ بسورة القدر ، وكان أئمة الحرم فى الليلة قبلها قد انتهوا فى القراءة إليها ، وتعطل فى تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح ، تعظيماً لختمه المقام ، وحضروا للمشاهدة ، وكان المقام قد أخرج من مكانه ، ووضع فى هذا المحل مستوراً بقبته ، فختم القاضى بتسليمتين ، وقام خطيباً مستقبلا البيت العتيق ، فلم نتمكن من سماع الخطبة لكثرة الزحام ، وضوضاء العوام ، فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة التراويح ، وانفضت الجموع ، والنفوس قد استطارت خشوعاً ، والأعين قد سالت دموعاً) .

تلك بعض مشاهد ابن جبير فى مكة ، وفيها دلالة الاحتفاء بالخطيب والخطبة ، وعظيم التقدير والاهتمام بحفظ كتاب الله ، والاحتفال باختتامه فى المسجد فى يوم مشهود ، وإذا كان الغلام قد احتفل بحفظه للكتاب ، فقد أدى أول درس عملى للخطابة على ملإ من الناس ، فكأنه يفتتح عهداً جديداً يبشر بانتمائه للعلم والعلماء ، أما فرحة الأهل بما يبشر به هذا الصبى من غد مشمر بالعلم ، فقد تجلت فيما أعدوا من شموع ووزعوا من خير ودعوا من أناس ! والمسجد بعد ذلك كله هو مسرح التلاوة والخطبة ، وموضع الاحتفاء والبهجة ، وموضع الأمل الموعود لكل أب يرى فى ابنه قرة عين ، وكل ابن يحاول أن يكون كما ظن به الأهل رجل هدى وداعية إسلام .

لقاء الجمعة كما ينبغى أن يكون

يخيل إلىّ أن لقاء الجمعة الأسبوعى يجرى على غير وجهه التام فى كثير من بلاد الإسلام ، فقد أصبح فى أكثر أحواله أمراً آلياً يؤدى كما يؤدى أى عمل تقليدى ، دون أن يثمر فائدته المرجوة المنتظرة ، فكل المسلمين يعلمون أن صلاة الجمعة فرض عين على من توفرت فيه شروطه ، لا يغنى فيه أحد عن أحد ومفهوم هذه الفريضة عند الأكثرية الكاثرة أن يحين وقت الصلاة فيسرعوا إلى المسجد ليستمعوا إلى كلمات تقال ، ثم تقام الصلاة فيؤديها المسلمون ، فإذا فرغت هبوا ينتشرون فى الأرض ، وقد اعتقدوا أنهم أدوا الفريضة الواجبة الأداء ، بل إن بعض الناس ليستمع المؤذن فيتقاعس ، ويظل منتظراً فى مكانه حتى يمرّ وقت يخيل إليه معه أن الخطيب قد فرغ من الخطبة الأولى وانتقل إلى الثانية ، فيسرع إلى الوضوء ليدخل المسجد وقد قامت الصلاة ، إن هذا تصوير واقعى لما يحدث يوم الجمعة ! أفكان ذلك ما عناه الشارع الحكيم حين فرض على المسلمين هذا اللقاء الأسبوعى الهام ؟ أم أننا نغفل روح الفريضة مكتفين بالشكل الظاهرى للأداء ! :

أعتقد أن لقاء الجمعة مؤتمر أسبوعى يحتمه الإسلام بين أهل القرية أو الحى أو المدينة ليتلاقوا جميعاً على حالة يتضح فيها الالتئام المتماسك ، فتتصافح الأكف ، وتتعارف الوجوه ، ويسأل عن الغائب لِمَ تأخر ؟ أمسافر فيعذر ؟ أو مريض فيزار ، أم مأزوم فيسارع لفك ضيقه ، فإذا اكتمل الجمع وأزف الموعد المحدد نهض الخطيب فحدث القوم بما يشعرون به من إحساس ، إذ يبسط مشكلات الساعة فى ضوء القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، وقد يكون الحديث محلياً إذا اتجه لمشكلة تتعلق بالحى ، كانتشار مرض أو اختفاء سلعة أو ترويج إشاعة لا أساس لها ، أو دعوة لإصلاح محصول زراعى ، أو إسهام فى مشروع حيوى ، وقد يكون الحديث وطنياً إذا اتجه إلى أمر يشغل بال الدولة ، وتتلمس فيه أوجه الهداية والإرشاد ، وقد يكون الحديث عن غير هذا وذاك مما يجذب انتباه السامعين ،

ويفسح أمامهم مجال التفكير ، فإذا انتهت الخطبة وفرغت الصلاة نهض المصلون ليتعاونوا على البر والتقوى ، وليبدوا الرأى فيما ذكر الخطيب ، وما يشغل البال من أحداث ، باذلين أقصى الجهود فى تذليل العقاب وتيسير الصعاب ، ومترقبين أن يكون اللقاء القادم تحقيقاً لأمل يرجى ، وارتقاباً بالخير يتاح — بما يبذل من عون ويقدم من مجهود .

هكذا كان اللقاء الأسبوعى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى الصدر الأول من الإسلام ، يخطب القوم صاحب الأمر فيوجه ويرشد ، ويتعاون السامعون على الطاعة فى الخير ، وتتدارس معاضل الفتوح والغزو ، ويلم المسلمون بما يدور حولهم من أحداث ، ويشيرون بما يجب من حلول ، ثم اتسع ظل الإسلام وامتد فأصبح فى كل قرية مسجد ، وفى كل مسجد خطبة ، ولكن الروح غير الروح ، والعمل غير العمل ، وإن بقى الشكل الظاهرى للشعيرة الأسبوعية تقليداً باهت اللون ، خابى الضياء ! .

وإذا كان لكل عصر ملابساته وظروفه ، فليس من المنتظر الآن أن تكون المساجد محافل سياسية ، ومجامع إدارة ، كما كان المسجد النبوى بالمدينة ، ولكن الذى يجب أن يكون هو أن نهيئ لهذا المؤتمر الأسبوعى الكريم ما يكفل جدواه الدينية والاجتماعية ، العلمية والخلقية ، فيصبح مؤكداً لصلات المسلمين ، وداعياً إلى التحاب والتواد ، فيسأل عن الغائب ، ويسعف المحتاج ، ويزار المريض .

قلت إن لقاء الجمعة فى روحه الأصلية ذو جدوى محتومة من الناحية العلمية ، لأن الخطيب يتحدث بلسان الدين ، ويلقى هديه فى ظلال القرآن الحكيم والحديث الشريف وسير السلف الصالح ، فكل مشكلات المجتمع وأدواء الناس تعالج تحت مصباح القرآن وترصد من مجهر شريعة الإسلام ، وقد فرض الإسلام خطبة الجمعة أسبوعياً لغرض ثقافى هادف ، فالمسلم العاقل إذا بدأ الصلاة فى الخامسة عشرة من عمره مثلا ، فإنه سيستمع كل عام إلى خمسين خطبة دينية ثقافية ، فإذا قضى عشر سنوات تالية فلن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى يكون قد أصغى إلى خمسمائة خطبة دينية ، هذا غير ما لا يدخل فى الإحصاء من خطب العيد ومجالس الوعظ فى رمضان وغيره بالمسجد ، وهى مما يحرص عليه الأئمة واعظين والمصلون

موعوظين ، وقد فرضت وزارات الأوقاف فى أكثر بلاد الإسلام هذه الدروس الدينية كل يوم فرضاً ! فأين أثر خمسمائة خطبة دينية ، إذا فرضنا أن أحداً لا يسمع غير الخطبة الإجبارية عند الصلاة الأسبوعية ؟ أين أثر هذه الخطب وهى خمسمائة لدى الشاب المسلم فى الخامسة والعشرين ؟

لقد كان من المنتظر فى مدى سنوات عشر أن يصبح السامع لهذه الخطب ملماً بروح الشريعة الإسلامية ، فاهماً مزايا دينه ، لأن الدين الإسلامى من البساطة والجنوح إلى الفطرة بحيث تتقبله الصدور السليمة بانشراح فى مدى متقارب ، ولقد كان المشرك الكافر يجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بين يدى تلاميذه الأفذاذ من أمثال أبى بكر وعمر وعلى ساعة من الزمن يستمع إلى أهداف الدين الجديد ، فيطمئن قلبه إليه وينطق بالشهادتين على اقتناع ، ويصير داعية طلق اللسان قوى الإيمان ؟

فكيف أصبحنا نرى المسلم يقضى من عمره خمسين عاماً يستمع فيها آلاف الخطب الدينية ، ثم نراه بعد ذلك لا يلم بروح الدين ، ولا يستطيع أن يتحدث عن فضائل الإسلام ، وبذلك تحجر الهدف الأول من إلقاء الخطبة الأسبوعية ، وكادت الخطبة تصبح مظهراً لا روح فيه .

كيف ضعف تأثير الوعظ المنبرى والبيان الدينى فى أكثر ما نسمع الآن ؟؟ إننا نرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى عاملين متعارضين : عامل العى المفرط لدى متكلم يقتضب فيخل ، وعامل الثرثرة الهاذرة لدى متكلم يفيض فى الكلام دون تحديد ، متهاوتاً فى صيغة ترتيلية لا يعرفها فن الإلقاء ، فيطفىء بها ما كان ينبغى أن يضىء ، وما يزال يكرر ما يقول عاماً وراء عام دون أن يحدث نفسه بتغيير منهجه ، ودون أن يقدر تبعته فى تثقيف السامعين ، بحيث أصبح المؤذن العامى ينوب عنه إذا غاب ، فلا يفقد السامعون شيئاً ذا بال ، لأن الخطيب يقول ما يحفظ من كتاب ، والمؤذن يقرأ من صفحات هذا الكتاب نفسه دون اختلاف ! ! .

هذا هو الخطيب العيّ ، أما الخطيب الثرثار فأمره أعجب ، فقد وقر فى نفسه أن جلجلة الصوت وانطلاق اللسان ، وامتداد الزمن ، هى وحدها وسائل التوفيق ، فتراه يهدر بالقول المسهب فى شتى الموضوعات دون تحديد ، إذ ينتقل

من الصلاة إلى الزكاة إلى الصوم إلى الحج ثم يترك العبادات ليكر على الزنا والربا والغيبة فى انثيال ، والسامع اليقظ فى هذا الطوفان المزبد يتطلب الجديد فلا يجد ، أما السامع الغافل فيرى الخطبة إحدى الأركان الضرورية لصلاة الجمعة وسيلة لا غاية ، وعليه أن يصبر لسماعها حتى يؤدى الركعتين فيفرغ من الفريضة ، وبين الخطيب العييّ والخطيب الثرثار ضاعت مزية الخطبة ، وأصبحنا نجد الأمية الدينية صارخة لدى المسلمين ، وأكثرهم ممن يحرص على استماع الخطبة طول عمره أسبوعياً دون أن يجد فى حديث المسجد ما يقشع ظلامه ، وينير ذهنه ، وكأن الأمر لا يعدو كلمات تقال فى مناسباتها دون أن تشرق بمعرفة أو تبصر بتوجيه .

كنت أستمع ذات مرة إلى خطيب جهير السمعة ، طنان الدوى ، فى إحدى مساجد القاهرة الكبيرة ، وقد توقعت بادئ ذى بدء أن أجد لديه المثال الناضج للموعظة البصيرة ، والقول المركز ، والتحديد الهادف ، ولكنى وجدته بدأ بحمد الله وثنى بالصلاة على رسـول الله ، فإذا انتهى إلى القولة الذائعة — أما بعد — تلا قول الله عز وجل : « قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون * ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وبدأ فأخذ يشرح فى اقتضاب معنى فلاح المؤمنين ، وكيف يخشعون فى الصلاة بعد الحث عليها ، وانتقل سريعاً إلى الإعراض عن اللغو ، ثم إلى الزكاة وحكمتها ، ثم إلى صيانة الفروج ومحاربة الزنا إلى حفظ الأمانة وذم الخيانة ، وأعاد القـول ثانية فى الصـلاة حين وصـل لقـول الله : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » ، وجاءت آية الجنة فتحدث عن نعيمها وعن ميراث الفردوس والخلد

فيه ، ثم انتهى إلى خلق الإنسان من نطفة بعد السلالة ، ثم مصيره إلى علقة فمضغة فعظام فلحم فخلق آخر !

فانظر كم طرق من الموضوعات حين ألم بالصلاة والزكاة ومجانبة اللغو وتحريم الزنا ودعا إلى الأمانة والمحافظة على الصلاة ثانية ، ثم اقتضب حديث الخلق منذ الجنين إلى تمام التكوين ! وماذا سيستفيد السامع من دقيقة تتحدث عن الصلاة ودقيقتين تتحدثان عن الزكاة ، وهكذا دواليك !

أنا لا أمنع أن تفسر آية كريمة على منبر الجمعة ، ولكن أوجب أن تكون الآية الكريمة مستقلة بغرض واحد ليتسع المجال إلى شرح معناها وإظهار هـدفها والاقتباس من نورها ، فأنت مثلا تحب أن تسمع من منبر الجمعة إلى تفسير آية ذات منحى محدد مثل قول الله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » لأن الخطيب الموفق يحصر مقاله فى مجال حيوى ، ويجد من الوقت ما يسمح له بالإفاضة فى حديث السخرية المذمومة بين الناس ، داعياً إلى مجانبة اللمز والتنابز ، مستعيناً بما يرفده من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الأخلاقيين ! فيروى ظمأ ويشبع نفوساً ، ويقدم ثمراً مستطاباً إلى نفوس تتطلب الخير وتشتهيه ، أما أن نتكلم فى غير موضوع فوا أسفاه ! .

لا ننكر أن تقدم الزمن قد هيأ السبل لإنشاء كليات الدعوة ومعاهد الوعظ فى كثير من بلاد الإسلام بحيث استطاعت هذه المعاهد أن تخرج أفواج الخطباء من المؤهلين ، وكان الظن بهم أن يرتقوا إلى مكان الجودة الخطابية ، وقد حقق بعضهم كثيراً مما نرجوه دون جدال ، ولكن نفراً من هؤلاء يميلون إلى الدعـة الهادئة ، فلا يبذلون من نفوسهم ما يشرفون به لدى السامعين ، وكأن الذى تلقوه فى معاهد التوجيه شيء والذى يقال فى مضمار العمل الرسمى شيء آخر .

وإذا استطاعت معاهد الدعوة وكليات الوعظ أن تعطى الشهادة على التحصيل الجيد، والحفظ المتشعب، فلن تستطيع أن تعطى الشهادة على الإيمان الحافز والغيرة الملتهبة ! فتلك من صنع الله ، وهذا ما نرجوه أن يتوفر فى الدعاة جميعاً بتوفيق الله :

عبد الرحيم بن نباته

اشتهر بالخطابة الدينية كثير من علماء الإسلام ، ولكنّ ديوان ابن نباته الذى جمع خطبه الرائعة كان ذا حظوة بين الناس ، وقد اهتم به ناقد كبير هو ابن الأثير ، فأثنى عليه ثناء مستطاباً ، وإذا ارتفعت الخطبة الدينية إلى مستوى النص الأدبي الرائع الذى يجذب انتباه ابن الأثير وأمثاله ، فصاحبها إذن أديب كبير .

وقد أخذ الدكتور زكى مبارك على ابن نباته فى الجزء الثانى من النثر الفنى (١) أنه دائماً يقف فى حدود الأفكار السطحية ، وهذا ظلم بين ، لأن مراجعة ما لدينا من آثار ابن نباته تدل على أنه ذو خيال وفكر ! ولكن فكره فكر الخطيب الذى يضطر إلى مخاطبة الناس جميعاً ، وأكثرهم من العامة ، فلو أنه أوغل فى العمق وغلغل فى النظر ما استجاب إليه غير القليل من الأذكياء ، والخطبة الدينية ذات عموم شامل ، ولن يكون صاحبها موافقاً لمقتضى الحال البلاغى إلا إذا ملك قلوب السامعين أو أكثرهم ، والعامة هم الأكثرية ، فكيف لا يبادههم ابن نباته بما يفهمون ، ولعل الدكتور مبارك قد راجع نفسه مراجعة ذاتية ، حين قال فى خاتمة بحثه(١) :

(ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباته أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف تساس العامة ، وكيف يغرس فى قلوبها بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدى الأغراض المرجوّة من مثله فى تعابير فصيحة ، لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت مثالا فى براعة الإنشاء ، وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق فى مخاطبتها عىّ ، والتدلى فى إفهامها إفصاح ، ولكل مقام مقال .

برز ابن نباته فى عصرسيف الدولة الحمدانى ،وهو عصر الجهاد الحربى بين

---

(١) النثر الفنى ، ج ٢ ، ص ١٦٥

المسلمين والروم ، ويتطلب خطيباً يلهب الحماسة ، ويشعل الحمية بين الجمهور ، وقد عرف ابن نباته واجبه الخطابى ، فنهض به على أحسن وجه ، وصادف من التوفيق ما أصبح به مضرب المثل بين النظراء .

والرجل فى أطواء نفسه مخلص ورع تقى ، فكان يمتاح من بئر صافية ذات نبع دافق ، وأنه يبلغ موضع التأثير فى النفوس حين يقول فى منحى الجهاد والاستبسال :

(إن للجنة باباً حدود تطهيره الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقته غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات فى معترك القتال ، فاستشعروا السكينة إذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عقابها ، وأحرّ اللطام ضرابها ، وأمرّ الحمام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعت إليه الجنة أبوابها ، وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خطابها ، وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهوّل باحتشاد عبدة صلبانه ، وضمن لهم ما هو مخفر من ضمانه ، وجاء الحق وبطل النفاق ، وانسدت بجيش العدو الجهان والآفاق ، فأخمدوا هناك بصواعق العزمات وهجه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ، وأضربوا ببيض الصفاح ثبجه ، وأركبوا ببذل الأرواح لججه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه) :

ومثل هذا الكلام المنمق المسجوع لا يكون ارتجالا ، ولكنه أعد إعداداً ، والخطيب الموفق لا يعد أفكاره فقط ، ولكنه يعد ألفاظه وتعبيراته ، ويخلو إلى نفسه ليوشى حديثه بضروب التأثير من سجع وازدواج ، كما يستعين بأدوات الخيال من تشخيص وتمثيل ، والخطيب لم يشذ عن طابع عصره الفنى حين راعى فنون البديع مراعاة داعية ، ولكل عصر سمات ، وبين أيدى الناس كتاب يعرف بخطب ابن نباته مدلس عليه ، وليس له ، إذ أن بعض الوصوليين أراد أن يستغل سمعة ابن نباته التاريخية ، فوضع للعامة خطباً رديئة عزاها لابن نباته كى تروج ، والعامة المعاصرون لا يرتفعون إلى مستوى ابن نباته البيانى ، فزوّر لهم ما يألفون ، وهو عمل لا يقرّه الضمير الأدبى ، ولكننا نشير إليه آسفين .

أما العامة فى عصر ابن نباته فكانوا يهيمون بأسجاعه وازدواجه ، لأن لصلصلة الأسجاع ورنين الازدواج ما يخلب الأسماع ، كما أن لتوالى الصور البيانية على معراج الخيال ما يؤثر فى النفوس فتخضع لأفكار الخطيب خضوعاً يميل بها أنى مال ، وقد كان ابن نباته واثقاً من إخلاصه ، صادقاً فى هديه ، وأحلام المرء دليل على منزعه واتجاهه .

وقد روى صاحب (وفيات الأعيان) حلماً تحدث عنه ابن نباته ، فقال :

« لما عملت خطبة المنام ، وخطبت بها يوم الجمعة ، رأيت ليلة السبت فى منامى كأنى بظاهر (ميا فارقين) عند الجبانة ، فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه ، فقصدت إليه لأسلم عليه ، فلما دنوت منه التفت فرآنى ، فقال : مرحباً يا خطيب الخطباء ، كيف تقول ؟ وأومأ إلى القبور ، فقلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأساً مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذَرَّة ، وآلى عليهم الدهر ألية برة ، ألا يجعل لهم إلى الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرَّة ، ولم يعدوا فى الأحياء مرة ، أسكتهم الله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسيجددهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يعيد الله خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وأومأت بقولى « يوم تكونون شهداء على الناس » إلى الصحابة ، وبقولى « شهيداً » إلى رسول الله ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » .

فقال لى : أحسنت ، ادن ، فدنوت ، فأخذ وجهى فقبله !

ويخيل إلىّ أن الخطيب كان يحفظ خطبه عن ظهر قلب ، وكان مما يحفظ خطبته عن أهل المقابر ، فحين سأله الرسول فى منامه أجاب بما حفظ ، وإلا فكيف استطاع أن يسجل ما قال ، وهو منمق مسجوع بعد أن انتهى من الحلم ، وقام من الرقاد !

ومن روائع ما قال ابن نباته فى مجال التذكير بيوم القيامة قوله (١) :

(١) خطب ابن نباته ، ص ٦٩ وما بعدها .

« أيها الناس ، اقلقوا القلوب عن مراقدها ، واعدلوا بالنفوس عن موارد شهوتها ، وذللوا جوامحها ، بذكر هجوم مماتها ، وتخيلوا فضائحها يوم تعرف بسماتها ، وترقبوا داعياً من جو السماء تنشر به الرمم ، وتحشر له الأمم ، وتزول معه التهم ، ويطول عنده الأسقام والندم ، يا له داعياً أسمع العظام البالية ، ومنادياً جمع الأجسام المتلاشية ، من حواصل الطيور ، وبطون السباع ، وقرار البحور ، ومتون اليفاع ، حتى استقام كل عضو فى موضعه ، وقام كل شلو من مصرعه ، فنهضتم أيها الناس لميقات الكرة ، بوجوه من هبوات الثرى مغبرة ، وألوان من هول ما ترى مصفرة ، حفاة عراة كما بدأكم أول مرة ، يسمعكم الداعى وينفذكم البصر ، قد ألجمكم العرق ، وغشيكم القتر ، ومادت الأرض فهى بما عليها ترجف ، وبست الجبال ، فهى برياح القيامة تنسف ، وشخصت الأبصار ، فما ترى عين تطرف ، وغص بأهل السماء والأرض الموقف ، فبينا الخلائق يتوكفون حقيقة أنبائها وقوفاً ، والملك على أرجائها صفوفاً ، إذ أحاطت بهم ظلمات ذات شعب وغشيهم منها شواظ نحاس ولهب ، وسمعوا لها جرجرة زفير مصطخب ، يفصح عن شدة تغيظ وغضب ، فعند ذلك جثا القائمون على الركب ، وأيقن المجرمون بالعطب ، وأشفق البرءاء من سوء المنقلب ، وأطرق البناء لسلطان الرهب ، ونودى : أين عبد الله وأين أمته ؟ أين المسوف نفسه بخديعته ؟ أين المختطف بالموت على غرته ، فعرف من بين الخلائق بسمته ، وأحضر لتصفح صحيفته ، والموافقة على ما أسلف من مدته ، مطالباً بإقامة حجته ، مروعاً بين يدى عالم خفيه ، بوقع خطاب كالصواعق ، ولذع عتاب كالمقامع ، وشهادة كتاب للفضائح جامع ، وصحة حساب للمعاذير قاطع ، فخاب — والله — من كان على نفسه مسرفاً ، ولم يجد من خلطائه منيلا ومسعفاً بل وجد الحاكم له وعايه عدلا منصفاً ، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً » .

وهذه الخطب وأمثالها فى حاجة إلى ناقد أدبى يوازن بينها وبين خطب على ابن أبى طالب فى نهج البلاغة ليهدى إلى نور مبين :

واعظ المسجد

(مشاهد تاريخية)

كانت مواسم العبادة (فى أيام الجمع ، وشهور رمضان ، وعهود الذكريات الدينية فى ليالى العيد ، وأول محرم وأوقات العصر من رجب وشعبان) محافل دينية فى المسجد ، إذ يتصدر الوعاظ فى الحلقات الغاصة بالجماهير لهداية الناس وتذكيرهم بالرقائق ، ولهم فى كل بلدة أتباع وتلاميذ يلاحقونهم أينما شرحوا ووعظوا ، وفيهم من يتأنق فى ملبسه ومظهره ومن يخشوشن ويتقشف .

فأبو الحسين بن سمعون البغدادى (٣٩٧ هـ) كان واعظاً جهيراً ، وكان من عادته أن يلبس أحسن الثياب ويأكل أطيب الطعام ، فقال له رجل : كيف هذا ، وأنت تدعو الناس إلى الزهد فى الدنيا والترك لها ؟ فقال له : « إذا صلح حالك مع الله فالبس لين الثياب ، وكل أطيب الطعام » ، أما زميله واعظ بغداد أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازى (٤٣٩ هـ) فقد كان مخشوشناً متقشفاً ، يلبس المرقعات ويصحب الفقراء فى مبدأ أمره ، ثم نزع إلى الأبهة وجلال المنظر ، فحشد الناس خلفه ، وصار له أتباع كثيرون[1] .

وكما نقلنا عن ابن جبير بعض مشاهد الخطابة والخطباء ، نروى عنه بعض ما شاهده من مجالس الوعظ والواعظين ، إذ كان رحمه الله ذا اهتمام بكل ما يسمع فى المسجد من خطب ومواعظ ، ومن يشاهد من خطباء وواعظين ، وقد تحدث عن مجلس رائع شهده بالمسجد النبوى وقد زارته بعض زوجات الملوك العظام وجلست من وراء الستر تسمع إلى وعظ رئيس الشافعية صدر الدين الأصفهانى فى أوائل العام من المحرم (٥٨٠ هـ) ، فقال رحمه الله :

---

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ترجمة الدكتور أبو ريدة .

« وقد أعد لرئيس العلماء كرسى بإزاء الروضة المقدسة ، فصعده ، وحضر قراؤه أمامه ، فابتدروا القراءة بنغمات عجيبة ، وتلاحين مطربة مشجية ، وهو يلحظ الروضة المقدسة فيعلن البكاء ، ثم أخذ فى خطبة من إنشائه سحرية البيان ، وسلك فى أساليب من الوعظ باللسانين (اللسان العربى واللسان الفارسى) وأنشد أبياتاً بديعة من قوله ، منها هذا البيت ، وكان يردده فى كل فصل من ذكره صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى الروضة :

هاتيك روضته تفوح نسيماً صلوا عليه وسلموا تسليما

واعتذر من التقصير لهول هذا المقام ، وقال : عجباً (للأعجم كيف ينطق عند أفصح العرب) وتمادى فى وعظه إلى أن أطار النفوس خشية ورقة ، وتهافتت عليه الأعاجم معلنين التوبة ، وقد طاشت ألبابهم ، وذهلت عقولهم ، فيلقون نواصيهم بين يديه ، فيستدعى جلمين (مقصين) ويجز الشعور ناصية ناصية ، ويكسو عمامته المجزوز من الناصية ؛ فتوضع عليه للحين عمامة أخرى من أحد قرائه ، ممن عرف منزعه الكريم فى ذلك ، فبادر بعمامته ، لاستجلاب الغرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم ، فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى إلى أن خلع منها عدة ، وجز نواصى كثيرة .

ثم ختم مجلسه بأن قال : يا معشر الحاضرين ، قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله عز وجل ، وهذه الليلة بحرم رسوله ، ولابد للواعظ من كديه ، وأنا أسألكم حاجة إن ضمنتوها لى ، أرقت لكم ماء وجهى فى ذكرها ، فأعلن الناس كلهم بالإسعاف ، وشهيقهم قد علا ، فقال : حاجتى أن تكشفوا رءوسكم وتبسطوا أيديكم ضارعين لهذا النبى الكريم فى أن يرضى عنى ، ويسترضى الله لى عز وجل ، ثم أخذ فى تعداد ذنوبه والاعتراف بها ، فأطار الناس عمائمهم ، وبسطوا أيديهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، داعين له ، باكين متضرعين ، فما رأيت ليلة أكثر دموعاً ، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة »(١) .

وعادة حز النواصى وحلق الشعور عند الوعظ مشتهرة فى التاريخ ، وقد

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٨٧

شاهدها ابن جبير مرة ثانية فى بغداد ، كما شاهدها فى المدينة حيث حضر مجالس الوعظ التى يعمرها الإمام ابن الجوزى ووصفها وصفاً بديعاً متعدداً ، وقد تحدث عن عظمة ابن الجوزى بما بهر وأدهش ، فقال(١) :

« شاهـــدنا مجلس رجـــل ، ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد ، آية الزمان ، وقرة عين الإيمان ، رئيس الحنبلية ، إمام الجماعة وفارس الصناعة . . . وبعد ما أفاض كثيراً فى مثل هذه النعوت الباهرة قال : ومن أبهر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد المنبر ، ويبتدئ القراء بالقرآن ، وعددهم نيف على العشرين قارئاً ، فينتزع الاثنان منهم والثلاثة آية من القراءة يتلونها على نسق بتشويق وتطريب ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات ، فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلا مبتدراً ، وأفرغ فى أهداف الأسماع من ألفاظه درراً ، وانتظم أوائل الآيات المفردات فى أثنـاء خطبته فقراً ، وأتى بهـا على نسق القراءة لهـا لا مقدماً ولا مؤخراً ، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها ، فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف فى تسمية ما قرأ القراء آية آية لعجـــز عن ذلك ، فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ، ويورد الخطبة الغراء بها عجلا ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، « إن هذا لهو الفضل المبين » ، فحدث ولا جرح عن البحر ، وهيهات ، ليس الخبر كالخبر ، ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ ، طارت لهـا القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعياً له ، ومنهم من يغشى عليه ، فيرفع فى الأذرع إليه ، فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول القيامة ، فلو لم نركب ثبج البحر ، ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجـالس هذا الرجل ، لكانت الصفقة الرابحـة ، والوجهة الناجحة » .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٨

وأفاض الرحالة فى وصف مجلس وعظ آخر لابن جبير لا يقل عنه روعة ، وكان قد تحدث عن مجلس وعظى رائع للإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية ، وقد وصف المجلس بما فيه ومن فيه وصفاً بالغاً روعته ، والجديد فى مجلس الإمام القزوينى أنه بعد الانتهاء من درسه[1] دُفعت إليه عدة رقاع ذات أسئلة ، فجمعها فى يده وجعل يجيب عنها رقعة رقعة ، وينبذ بها إلى أن فرغ منها ، وهو نظام تعرفه بعض الجامعات الآن ، وقد ابتكره هذا الواعظ الكبير .

هذه بعض المشاهد التاريخية لمجالس الوعظ الدينى ، ونريد الآن أن نتحدث القارئ عن واعظ متواضع شهير رأيناه رأى العين ، وشاهدنا مجالس وعظه بالجامع الأزهر ، وقد انتقل إلى رحمة الله بعد أن ترك فراغاً قلَّ أن يملأه ، وقد توالت كراماته ، وبنى له مسجد خاص به بأعلى الدراسة من القاهرة المعزية ، ذلكم هو الداعية الشهير الشيخ صالح الجعفرى رضى الله عنه وأرضاه ، وسيرى القارئ أنى أسهبت كثيراً فى الحديث عنه بالقياس إلى من تحدثت عنهم من أساتذة المساجد فى هذا الكتاب ، وذلك لأن الرجل لم يترجم له أحد غيرى ، فلا مناص من أن أشبع الحديث عنه تمثيلا واستشهاداً وخبرة ، أما هؤلاء فكتب التاريخ تكفلت بتراجمهم ، ولكل باحث أن يرجع إليها متى شاء .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٦

الشيخ صالح الجعفرى

داعية الجامع الأزهر الشريف

انتقل إلى رحمة الله داعية الجامع الأزهر الشريف المغفور له الشيخ صالح الجعفرى ، فترك فى مجال الدعوة الإسلامية فراغاً كبيراً ، وكنت ودعته بكلمة موجزة فى جريدة الأخبار اليومية ، لم تشف ما فى نفسى ، لأن خواطرى عنه وعن دعاة الأزهر فى بلاد الإسلام تزدحم وتجيش ، وتتطلب تنفيساً فى مجال يتسع بعض الشىء للإشادة بقوم دعوا إلى الله على بصيرة ، ورحلوا إلى جوار ربهم دون أن يقوم مؤرخ منصف بتسجيل آثارهم ، على حين نرى مؤلفات متعددة عن مطرب أو مطربة أفسدا الجيل بأكثر ما خلفاه من مبتذلات ! ولكن أجر الله أجل وأوفى فى الدار الآخرة لمن وفى بعهده ، ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل بالتى هى أحسن ، وأولئك يجزون أجرهم بغير حساب .

شهد الأزهر على مرّ عصوره أعلاماً من أبنائه يجوبون مشارق الأرض ومغاربها ، رافعين راية الإسلام ، وفى زماننا الأخير أنشأ الأزهر طائفة ممتازة من رجال الوعظ ، حملوا راية الدعوة الإسلامية كتاباً وخطباء ومحاضرين ، ومدرسين فى أقسام الدعوة والوعظ ، ولا زلنا نذكر جهود الأساتذة الكبار : على محفوظ ، ومحمود خليفة ، وعبد ربه مفتاح ، ومحمد أحمد العدوى ، وزكى الدين سند ، وعلى الجربى ، ممن سبقوا إلى رحمة الله ، كما نذكر اليوم الشيخ صالح الجعفرى خاتمة لهذا العهد الحافل بالجهاد ، ولا أعنى أنه خاتمة رجال الدعوة ، فلا زال لها بحمد الله أعلامها المخلصون ، وما منهم إلا له مقام معلوم .

وفد الشيخ صالح الجعفرى إلى الأزهر منذ خمسين عاماً ، وقد حكى عن نفسه فى مقدمة كتابه (السيرة النبوية المحمدية) أنه تأثر بالأساتذة الأعلام محمد حبيب الله الشنقيطى ، ومحمد بخيت المطيعى ، ومحمد إبراهيم السمالوطى ، ويوسف الدجوى والغنيمى من كبار علماء الأزهر ، وأبناء الجليل الحاضر لا يعرفون أن

هؤلاء الأعلام الكبار ، وفيهم من أخذ مكانه عن جدارة فى جماعة كبار العلماء — كانوا يلزمون أنفسهم بدروس يومية عند جماعة ، وأسبوعية عند جماعة آخرين بمساجد القاهرة الكبرى ، حسبة لوجه الله ، بعيداً عن مجالهم الوظيفى فى الفتوى والقضاء والتدريس المنتظم بالقسم العالى بالجامع الأزهر ، وذلك تقليد كريم يجب أن يعاد ، فتعمر مساجد القاهرة بكبار العلماء ، ليعطوا العلم خالصاً لمن يريد !

كان الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى يقرأ صحيح مسلم بشروحه فى الجامع الأزهر بالقاهرة وفى مسجد الخازندار بشبرا ، وكان الشيخ محمد بخيت المطيعى الحنفى مفتى الديار المصرية يشرح حكم ابن عطاء الله السكندرى بعد صلاة العصر بمسجد الإمام الحسين فى كل رمضان وفى أيام الجمع فى غير رمضان ، وكان الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى يقرأ صحيح البخارى عصراً فى مسجد الحسين ، وسحراً فى مسجد السيدة زينب ، أما الشيخ الغنيمى الذى ذكره الشيخ صالح فلا أدرى من هو ، ولعل أحد عارفيه يكتب عنه ، وما أظنه المرحوم الأستاذ محمد الغنيمى التفتازانى ، لأنه كان صغير السن من ناحية ، ولم يكن يدرس فى حلقة علمية جامعة من ناحية ثانية ، وأما الشيخ يوسف الدجوى فكان يقرأ كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى بمسجدى الأزهر والحسين .

وقد وفد الشاب صالح الجعفرى إلى القاهرة فوجد هذه الحلقات العامرة بعلمائها المخلصين ، فأخذ يترصدها فى كل وقت ، ويعد نفسه ليكون مدرس حلقة وداعية جماعة ، وقد التحق بالدروس المنتظمة فى الجامع الأزهر لتكون بابه الواسع إلى الهداية والإرشاد ، وثابر وجالد حتى نال شهادة العالمية الأهلية ، وأخذ شهادة مماثلة من كلية الشريعة الإسلامية ، وهو لا يفكر فى منصب ، حتى ساقة الله عفواً دون سعى ، وكأن الله قد حقق له رغبته حين هيأ له أن يكون مدرساً بالجامع الأزهر للعامة ، فأصبح كما يبتغى داعية هاتفاً بشريعة الإسلام ، وشارحاً مجيداً لأخلاق السلف ، وقدوة ممتازة فى السلوك الإسلامى النبيل .

نشأ الشيخ فى أسرة متصوفة ذات نسب شريف ، فشب كما يشب أبناء التصوف الحقيقى ممن يرون فيه جهاداً داخلياً للنفس حتى تطهر من شوائب الشهوات ، وحتى تستعلى على غرائزها الهابطة ، ناشدة مثلا رفيعة ذات ملذات وجدانية

تقوم مقام الرغبات الدنيوية الشائعة ، كما يرون فيه جهاداً خارجياً لإنقاذ من تورطوا فى الاستجابة إلى الرغبات الوضيعة حين سيطرت عليهم غرائز السوء فقادتهم إلى ضروب من الأنانية والطمع والكيد والنهم ، مع الانغماس فى ملذات تتجدد وتتكرر دون سأم ، ويظل صاحبها أسيراً لحاجاتها القاهرة ، وفيها ما ينهك الجسم ، ويشرد الأمن ، ويقلق البال !

نشأ الشيخ هذه النشأة التى هدته إلى قراءة كتب الطبقات لأعلام النابهين من رجال الفضل فى الإسلام ، ومع أنه كان مالكى المذهب ، قد عشق الإمام أحمد ابن حنبل عشقاً بلغ به مبلغ الكلف ، ورأى فى زهده وترفعه عن الرغبات أكبر مثل يحتذيه ، وصدع بالحق كما صدع ، فكم من مسائل شائكة تتعلق بالسياسة المتربصة سئل عنها الشيخ صالح فى حلقات الدرس ، حين عذِّب المجاهدون فى سبيل الله وتقاذفتهم المنافى السحيقة لا لشىء إلا أن يقولوا ربنا الله ! كم سئل الشيخ عن هؤلاء المجاهدين وفيهم تلاميذه وأصدقاؤه ، فصدع بكلمة الحق ، وخلع عمامته وتوجه إلى السماء رافعاً كفيه أن ينصر حماة دينه ، وقد انتقل بالدروس ذات عشية لهذه المناسبة من موضوعه الأصلى — وكان فى الزكاة — إلى تفسير قول الله عز وجل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين دخلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » حيث أفاض الله على لسانه ساعتئذ من روائع المعانى ونفائس الحكم ما أعتقد أنه كان فوق مستواه ، وأن مدداً روحياً قد تدفق على لسانه مرتفعاً من زواخر قلبه المتلاطمة .

وكم للشيخ فى ساحات درسه من وثبات وجدانية لا ندرى من أين جاءت ! فقد قرأنا ما يقرأ الناس من كتب التفسير ، وصحائف الحديث ، ولكننا لم نر هذا الشرح المتدفق النابض لأحد من سابقيه فى هذه الآية الكبرى ، وقد رزق الشيخ حلاوة فى الصوت تجعل سامعه يتخيل أنه أمام موسيقى تصدح لا أمام إنسان يتكلم ، والصوت الندى إذا استلهم القلب العاطفى المتقد جاء ببدع من فنون البيان يبحث عن تأثيرها أساتذة فن الإلقاء فلا يهتدون إلى أصولها الحقيقية ذات الولوج الناشب فى مطاوى الأفئدة ولفائف الأحشاء والكبود .

والحديث عن أثر هذه النشأة فى حياته الزاهدة يعرفه كل من اتصل به ، وقد عبر عنه تلميذه الأستاذ أحمد الأسوانى حين قال عنه فى جريدة الأهرام يوم ٢٧ / ٤ / ١٩٧٩ :

« عاش الشيخ حياته كلها فى غرفة خشبية ضيقة برواق المغاربة بالأزهر الشريف ، إذ قضى به خمسين عاماً من عمره الذى لم يكمل السبعين ، فكان يحرص رغم مكانته العلمية على مشاركة خدم الجامع الشريف فى أعمال النظافة ، ويحيا حياة البساطة والشظف ، فلا يزيد طعامه المعتاد على قطعة من الجبن وكسرة من الخبز » :

هذا ما قاله الأستاذ الأسوانى ، وأزيد فأقول : كان للشيخ أتباع من كبار الموسرين يعرضون عليه الإقامة فى الشقق الفاخرة ، ويرون فى تنوع مجرى حياته وسيلة إلى استبقاء صحته ، ولكنه كان يتخذ من هذا العرض الودود سبباً إلى موعظة حسنة فى الدرس ، إذ يشرح حياة الرسول وقد راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم ، ثم ينتقل إلى سير الصحابة الأعلام فيفيض فى زهد عمر وعلىّ ويقرأ فى صوت خاشع وفى تمثيل مؤثر حى نابض قول الإمام علىّ كرم الله وجهه : (يا دنيا غرى غيرى ! ألى تعرضت ؟ أم إلىّ تشوقت ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثاً ، لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وأثرك حقير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق) !

وكان أتباعه من عشرات المسلمين فى شتى ممالك الإسلام يرسلون إليه الهدايا الصوفية الثمينة فى كل موسم ، فكان يدفع بها إلى أحد معارفه من كبار التجار بالقاهرة ، ويطلب منه أن يشتريها بثمنها الحقيقى وأن يستبدل به أقمشة متواضعة متينة من الكستور أو الدبلان ويعلمه كم عدد الأمتار ، فإذا تم ذلك أخذ الشيخ يستعرض المحتاجين من رواد درسه ، وعشاق موعظته ، ليعطى كلا منهم كوبوناً ممهوراً باسمه ، وبه مبلغ من الأمتار يحدده الشيخ وفق ما يتلقاه من إجابة مريده الفقير عن عدد أسرته ، وصفتهم من الأنوثة والذكورة ، ثم يبعث به إلى صديقه التاجر ليأخذ ما يحتاج من الرصيد المدخر .

وقد جاءه مال وفير فدفعه إلى أحد مريديه من المقاولين ليقوم بتعمير بعض المساجد المتهدمة فى هذا الحى الإسلامى من قاهرة المعز ، ووجه الشيخ يفيض

بالنور ، ويتلألأ بالبشر حين يجيئه صديقه المقاول فيخبره أن البناء قد تم على أحسن نظام ، فيسرع مع أتباعه إلى مشاهدة المسجد فرحاً مستبشراً ، وكأنه يستعرض قصراً ملكياً أهدى إليه ، ثم ينهض إلى أداء تحية المسجد ، وخلفه صفوف من مريديه ، فإذا تمت الصلاة بدأت الموعظة ، وإذا انتهت الموعظة بدأ الذكر وإذا انتهى الذكر بدأ الشيخ يقرأ السيرة النبوية بصوته الطروب ، فإذا قلت لك إن المغرب يتصل بالعشاء وإن العشاء يشارف السحر ، والناس مع الشيخ فى تواجد حنان ، وفى طرب مياد ، وفى أنس لا انقطاع لبهجته ، فاعلم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

نعم كان الناس مع الشيخ فى تواجد وانجذاب ، فقد أوسع لهم من نفسه ما لم يجدوه لدى سواه ! يجيئه المصاب فى ولده باكياً متفجعاً ويظن أن السموات قد انطبقت على الأرض لفقد حبيبه ، فيبتسم الشيخ فى هدوء ، ويقول له : أبشر يا بنى فإن الله قد اختارك لابتلائه والكرام مرزءون ! إن رسول الله وهو أحب خلق الله إليه جميعاً قد ابتلى بفقد أولاده فى حياته ما عدا فاطمة ! وما كان الله ليبتليه بذلك إلا وهو يدخر له أعظم المثوبة فى جنات الرضوان .

ويجيئه المحزون لمعصية ارتكبها فيسر إليه بخطئه ، فيقول له الشيخ : قم واغتسل وقص شعرك وأظافرك وعد وسأخبرك ، فإذا أتم المذنب ما أشار به عليه خف إلى الشيخ فتهلل للقائه ، وقال له : أبشر ، هذه توبة لن تكون مقبولة لدى الله إذا عدت إلى فعلتك السابقة ، ها أنت ذا قد نزعت كل أثر فى جسمك للمعصية حين تطهرت وحلقت ونظفت ، لقد ولدت من جديد ، وسيعفو الله عما سلف ، وإياك ثم إياك ، ثم يقرأ قول الله : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ❊ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » ، فيستمع المذنب مستبشراً ويخرج عازماً على الطاعة ، نادماً على الزلة ، وخيال الشيخ الكبير فى خاطره يراوحه ويغاديه ، فهو يعتقد أن الشيخ موضع سره ، وأنه سنده فى النائبات .

وحين كنا نشيع جنازته بالأزهر ، وقد ماجت الحشود المتراصة خلف نعشه ،

رأينا عشرات الباكين من المواطنين البسطاء ، الذين قد وسعتهم نفس الشيخ فأغدق عليهم من مدده النفسى ما كان نعم الزاد لهم فى رحلة الحياة ، وفيهم من ند عنه صوابه ، فأخذ يقول : كنت سارقاً وتبت على يد الشيخ صالح ، ومن يقول : كنت سكيراً وتبت على يد الشيخ صالح ، ومن يقول : لقد تعرضت أسرتى للتشريد لولا عزيمة الشيخ صالح ! وقد انتهت الجنازة ، وخواطرى توحى إلى أن من الضرورى الحتم للناس أن يكون لهم من العلماء الصادقين بلاسم شفاء ، ومراوح نسيم ، تقيهم لفحات الحياة عند الزلل ، وقد كان الشيخ صالح شجرة وارفة ذات ظل ، تسقط الثمر وتحمى من القيظ وتؤذن بالإسعاد ! فهل من بديل ؟

كان الشيخ صالح قريب الدمعة ، يخيل إليك حين تسمع وعظه أن غديراً من الدموع يحتبس وراء حنجرته ، بل إنك حين تنظر إلى عينه تجد صفاء ندياً كأن خيالا يرى للماء يكاد يتقاطر من المحاجر ، وهذه النظرات العذبة الصافية تلهم رائيها خشوعاً لا يكاد ينجو من تأثيره دون جهد جهيد ، ومن مواقفه التى بلغ التأثير فيها روعته الخالبة ، موقفه فى رثاء أستاذه الكبير الشيخ يوسف الدجوى رضى الله عنه ، فقد كنا طلاباً فى كلية اللغة العربية ، ونادى الناعى منذراً بوفاة الشيخ الكبير ، ومحدداً ميعاد الجنازة ، فسارعت إلى توديعه ، وكان المشهد مؤثراً تتقدمه جماعة كبار العلماء برئاسة أستاذهم الأكبر مصطفى عبد الرازق .

وحين بلغ الموكب نهايته عند القبر ، انتفض الشيخ الصالح خطيباً يرثى أستاذه ، فبدأ مرثيته مستشهداً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبضة العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا) . ثم أفاض فى إيضاح منزلة العالم الفقيد ، وأشاد ببعض مواقفه الجريئة أمام المبتدعة والملاحدة ، وكان جلال الموقف ، ورهبة المناسبة ، واحتشاد الجموع ، مما جعل نفس الراثى ممتداً يتسع ويتدفق ويجيش ، وكان لصوته الحزين هزة تحرك النفوس وتعصف بالألباب .

وما انتهى الخطيب من مرثاته حتى سأل عنه الأستاذ الأكبر معجباً ، ثم بادر بتعيينه مدرساً فى الجامع الأزهر ، فأضفى عليه تعيينه الرسمى رسوخاً أخرس أنسنة

من كانوا يضيقون بسلفية الشيخ لحاجة فى نفوسهم ، ويرونه يتجاوز الوضع المناسب لمثله حين يتصدر للوعظ يومياً دون ملال ، وهم قلة قليلة عرفت خطأها المتحامل ، فاستكانت إلى الحق بعد جموح .

حفظ الشيخ كثيراً من أشعار المتصوفة ، فجرى لسانه بقصائد عبد الرحيم البرعى وعبد الغنى النابلسى وعمر بن الفارض ويوسف النبهانى ، وكان للإمام البوصيرى لديه منزلة أى منزلة حيث عارض كثيراً من قصائده النبوية ، ولا أكتم حقيقة واضحة هى أن الشيخ قد نظم الشعر محاكياً فحسب ، فمدح الإمامين الحسن والحسين بقصيدة حاكى بها قصيدة البوصيرى الشهيرة ، وقد تابعه متابعة صارخة حتى ليكاد ينقل كثيراً من ألفاظ البيت الأصلى عند المحاكاة ، وكادت مدحته أن ترد إلى أصلها التى صدرت عنه فى كل فقرة ، والشيخ لا يعاب فى ذلك لأنه لم يدع الشاعرية المبتكرة ، ولكن حبه دفعه إلى النظم على طريقه شاعر أعجب به ، وأراد أن يسير فى ضوئه ، وهو بعد يكتب للعامة شعره ، ولا يهمه غير أن تجيش نفوسهم بحب الرسول وآل بيته ، سواء أتى ذلك الحب عن طريق شعره أو عن طريق سواه ، ونقدم للقارئ مثال من بردة الشيخ الحاكية :

ظلمت نفسى إذا لم تأت زائرة ... ضريح أهل الهدى والنور والهمم
وشد جدهمو أحشاءه وطوى ... على الطوى مهجة مملوءة الحكم
وراودتهم ملوك الأرض عن ذهب ... كيما يكونوا لهم طوعاً لأمرهم
فالصبر فى حسن والحلم شيمته ... يكفيك ما قد جرى من صلح جيشهم
فاق الخليقة فى أيامه فغدا ... كأنه حيدر فى الناس كلهم
دع أنه مرسل وانسب له شرفاً ... وقل له يا ابن خير الخلق والأمم
فإنه بحر علم طاب مورده ... كم جاد للناس من علم ومن كرم

وأذكر أنى منذ أكثر من عشرين عاماً حاولت أن أقترح على الشيخ قراءة دواوين الشعراء الكبار من أمثال أبى تمام والشريف الرضى والمتنبى ، لأرتفع بمعانيه عن المحاكاة المحتذية ، حيث تمده دواوين الفحول بروح جديدة ، ولكنى وجدت منه إعراضاً نافراً ، إذ يعتقد أن شعر المتصوفة وحده هو الشعر ، وقد قلت له ذات مرة : إن شعر أبى تمام يحفل بكثير مما يبتغى من روائع الاستشهاد

المنبرى فى مواقف الوعظ ، فسألنى مستطلعاً : مثل ماذا ؟ قلت : مثل قوله فى الحنين ، وقوله :

وأنجدتمو من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

وقوله :

ومما هيج البرحاء أنى شكوت فما شكوت إلى رحيم

فصاح : أعد البيت الأول ، فأعدته ، فأخذ يردده بصوته المغرد ويبكى ، ويقول : هذا نفس عال ، هذا نفس عال ، ألديه كثير من مثل هذا ؟ ثم سمعته فى اليوم نفسه يردد البيت فى عظة العشاء ، والغريب أنه رفض البيت الثانى بحسه الدينى ، وقال : إن الرحيم جل جلاله حى موجود ، والشكوى له وحده واجبة ومفروضة ، فكيف يزل الشاعر فى قوله ، وهو نقد لا يصدر مثله إلا من مثله .

وقد كتب قصة للمولد النبوى يحاكى بها الذائع من الموالد النبوية على نحو ما قال البرعى والبرزنجى والمناوى ، فلاقت رواجاً لدى مريديه ، وإن كانت لا ترتفع فى نظرى إلى ما أنشد من مثال ، وبخاصة وقد كتبها الشيخ بعد أن أصدر الأستاذ عبد الله عفيفى (المولد النبوى المختار) فى عبارة أدبية مختارة ، وفى سلاسة بيانية ترتفع بهذا اللون الأدبى إلى مستوى الأصلاء من البلغاء ! وكل ميسر لما خلق له ، فالشيخ قد خلق واعظاً أداته اللسان ، وموقفه المنبر . والخطباء فى كل زمان يسمعون ولا يقرءون ، وكم سمعنا من خطبة رنانة هزت الأعطاف حين كان للخطابة فى مصر عهد مزدهر فى الأربعينيات وما فوقها ، ثم قرأناها مكتوبة فى الصحف السيارة ، فلم نجد بها من البريق الخاطف ما أحسسنا به لدى السماع ، ولا يعيب الداعية ألا يكون كاتباً أو شاعراً ، وحسبه أن يجيد فى ميدانه المختار .

آثر الشيخ الخلوة فى أخريات أيامه ، فكان لا يقابل الناس إلا عند الصلوات وفى مجالس الوعظ ، وقد كرمه الله بمواصلة الحج أعواماً متتالية حيث كانت الرحلة الحجازية تذهب أسقامه وتجدد نشاطه ، ثم جاءت الرحلة الخاتمة إلى رحاب الله ، فالتاعت وراءه قلوب ، ودمعت من خلفه عيون ، وتدافعت الجموع مسرعة لوداعه ، وهى جموع متلاطمة لم يدفعها سائق ، ولم يغلظ عليها مناشد ، ولم تهيأ لها أجور معلومة كى ترائى الناس بالتشييع فى الموقف الأخير ، وهو موقف الحق الذى لا باطل فيه ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون .

الوعظ الدينى

تصادف كلمة الوعظ ثقلا لدى بعض الناس ، إذ توحى إليهم بادئ ذى بدء سيلا من النصائح العامة التى يعرفها السامع قبل أن ينطق بها القائل ، حتى أصبح مألوفاً لديك أن تسمع ممن توجه إليه بعض النصائح صيحة متبرمة يلخصها فى قوله : لا أريد وعظاً .

والوعظ الذى نتحدث عنه اليوم هو الوعظ الدينى ، وهو شىء آخر غير العلوم الدينية ، فالشيخ الذى يشرح للعامة فى المساجد مسائل الفقه والتشريع من عبادات ومعاملات ليس واعظاً فى درسه التشريعى بل معلماً ، ولكنه إذا حثهم على الفضائل والآداب ، وحضهم على التمسك بالمثل العلياء ، فهو داعية يعظ ، وهو من نعنيه بالحديث ..

لم يكن الوعظ فى مطلع هذا القرن وظيفة رسمية ، وإنما كان عملا اختيارياً يقوم به نفر ممن يعلمون واجب الإسلام فى هداية النفوس ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وأذكر أن الاحتلال الأجنبى قد عمل على تنشيط التبشير بالمسيحية فى بعض البلاد المصرية ، فأحس علماء العصر بخطر التبشير ، وهبوا تلقائياً يذودون عن معتقدهم الإسلامى ، وألفت الجمعيات الدينية للدعوة إلى الإسلام ، وهداية العامة بالوعظ المباشر ، وقد اشتهر من العلماء حينئذ طائفة مخلصة جعلت قيادتها إلى المرحوم الشيخ زكى الدين سند ، ومن بينها رجال دعاة من أمثال عبد الوهاب النجار ، ومحمد عبد العزيز الخولى ، ومحمود محمود رحمهم الله ، وبعض الذين تخرجوا فى مدرسة الإرشاد ، وهى مدرسة أهلية قام بأمرها حيناً من الدهر صاحب المنار السيد محمد رشيد ، وكان اتجاه الدعاة جميعاً إلى العامة حيث كانوا مظنة الوقوع فى حبال المبشرين ، فأخذت خطب الجمعة ، ودروس المساجد تصاغ على نمط سهل ميسر ، وقارئ الدواوين المنبرية ، لذلك العهد

يلمس روح الإخلاص دون نزاع ، وإن أخذ على مؤلفيها سهولة الحديث وتشعب الموضوع دون تحديد ، كما فى خطب الجنبهى ، والشرنوبى ، ومصطفى الحمامى .. وغيرهم من المؤمنين .

ثم أنشىء قسم الوعظ بالأزهر وقام على توجيهه نفر من كبار العلماء من أمثال الأساتذة : على محفوظ ، ومحمد أحمد العدوى ، وعبد ربه مفتاح ، رحمهم الله ، وكان مدعاة إنشائه لدى الحكومة أن يقوم الوعاظ بهداية الشعب خلقياً وإصلاحياً فى ضوء القرآن الكريم ، لأن حوادث الثأر فى بعض البلاد ، وشيوع السرقات فى بعضها الآخر ، مما دعا وزارة الداخلية أن تجند نفراً من رجال الدين لمكافحة الجريمة ، والدعوة إلى أخلاق الإسلام ، فالعامة هم المقصودون حينئذ بالتوجيه ، ومراعاة لمقتضى الحال أخذ الوعاظ يصوغون أحاديثهم فى أسلوب يناسب العامة ، ويجمع أحاديث الترغيب والترهيب ، ولا مانع من تعدد الموضوعات فى الموعظة الواحدة وهو ما لا نزال نشكو منه إلى اليوم لدى قلة لم تراع ارتفاع المستويات العقلية وفقاً لتطورات الزمن ، أما الكثرة فقد أخذت بأسباب التركيز والتحديد .

أردت بهذه المقدمة التاريخية الموجزة أن أبين أسباب الانخفاض الملموس فى المستوى العلمى الذى يتجه إليه واعظ الأمس ، إذ كان العامة وحدهم مسرح نشاطه ، فكان مضطراً إلى أن يقدم إليهم ما يهضمون ويتمثلون ، وقد كان ذلك معقولا مستساغاً فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، إذ كان المثقفون — أو أكثرهم — لا يرحبون بسماع الوعظ الدينى ، وكان بريق أوروبا يجذبهم إلى ثقافة الغرب والاكتفاء بها دون غيرها ، إذ هى ثقافة الحضارة المزدهرة ، والمدنية الزاهية بمخترعاتها العلمية ، وتقدمها الصناعى والفكرى والاجتماعى ، فكيف يتركونها إلى مواعظ المساجد ، وخطب المنابر ، ولكن دمار أوروبا فى الحرب العالمية الثانية بتأثير هذه الحضارة الخادعة وبقنابل رؤسائها الأنانيين ، وقذائف مفكريها المتنابذين ، قد فتح العيون النائمة فى بلاد الإسلام على ما جهلوه من خطر التمدن الأوربى ، وفساد المجتمع الغربى ، وتقهقر الخلق الإنسانى هناك إلى مستوى الوحوش المتصارعة فى الغابات ! والنمور الهائجة فى الأدغال ، فاتجهت النفوس إلى

الإسلام من جديد تلتمس فى نوره الهداية ومن معينة الارتواء ، وكان الظن برجال الوعظ أن يعدوا للموقف عدته ، فيخاطبوا العائدين خطاب المثقف المستنير .

ولا أكذب الحق حين أقول أن من بين هؤلاء الأفاضل من حلق فى رسالته ، وأبدع فى توجيهه بما وعى من ثقافة ، ودرس من مذاهب ، وخبر من نفوس ، فكان ذا لواء مرفوع ، واسم ذائع ، على حين ظل نفر آخر يخاطب الخاصة خطاب العامة ، ويدعى للمنابر الجهيرة فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون ، فيقول عندها ما قاله فى قرى الريف ، ونجوع الصعيد ، دون أن يقدر موقفه التوجيهى فى عصر متعدد المذاهب ، متباين التيارات ، متضارب الأهواء .

ولا أكذب الحق مرة ثانية حين أقول أن دراسات عليا قد أعدت لتكوين هؤلاء الدعاة ، وإلمامهم بفنون جديدة فى علوم التربية والنفس والاجتماع ، وأن كتباً خاصة بالدعوة والدعاة قد كتبت لهم على منوال معاصر يكشف عن طبيعة عملهم ، ويغوص إلى أعماقه ، ويطير فى آفاقه ! هذا حق لا مرية فيه ، ولكن قليلا من هؤلاء من انتفع بدراساته العليا وبثقافته الجديدة ، فكان واعظ عصره ، وداعية زمنه ، وكثيراً من هؤلاء من لم ينتفع ، لأن الدراسات العليا وما يتبعها من الكتب ، لم تصادف منه دراسات سابقة مركزة ، تحيط بثقافة العصر ومتطلبات الأهواء ، وحسبك أن تعلم أن علم للكلام القديم بمسائله قد كان كل حصيلته العقلية فى مضمار العقيدة ، مضافاً إليها شذرات من فلسفات يونانية ، عن الكون والطبيعة والخلق والإيجاد، وكلها غريبة تماماً عن شبهات عصره التى تفد إلى المسلم من الصحف والإذاعات والكتب متحدثة عن إلحاد جديد ملأ الغرب ، ووجد له الأذناب فى الشرق ، والواعظ المسيحى — وأقولها بكل أسف — فى أوروبا أكثر إلماماً بمنحرفات عصره من الواعظ الإسلامى ، فهو على التوجيه أقدر ، ولعلى أبرهن على ذلك بالمثال ..

كتب الأستاذ عباس محمود العقاد مقالا جيداً تحت عنوان : (كيف يعظون) تحدث فيه عن واعظ أوربى أعجبته ألمعيته المتوقدة فى النقاش ، وحسن تأتيه فى الجدال ، وإدراكه البصير لطبيعة من حوله من الناس ، فقال العقاد ما ملخصه :

فى أثناء الحرب العالمية المدمرة ، وقف بعض الواعظين يتحدث فى مصنع أوربى ، فصاح به أحد العمال فى تبرم : ما هذه الجرأة منك على الوعظ باسم إله المحبة والرحمة ، وهذه الحرب الخبيثة تطحن الناس ؟ فأجاب الواعظ فى هدوء صابر : إنك يا أخانا لقاس على الأقدار ، فهبك فى مكان القدر ، فما عساك تصنع بالدنيا ، لا أحسبك كنت تخليها من الخطيئة ، لأن النفس مريدة حرة ، ولابد أن تخطئ وتصيب ، وإلا كانت مجبورة مسيرة ، وأنت إذا أردت لها شيئاً ملزماً هدمت تكوينها النفسى باعتبارها نفساً مكلفة ذات حرية وتقدير ، فإن لم تصنع هذا فماذا أنت صانع ؟

فقال العامل — وكان على نصيب كبير من الإدراك الثقافى — على أية حال لا أدع إنساناً يألم فى حياته لجريرة غيره ، وذنب غير ذنبه ! فعاجله الواعظ يقول : يا لها من حياة سخيفة تلك التى تريدها ، فماذا تنوى أن تصنع بالأمهات مثلا ، أتريد بأم أن يذهبوا بابنها للموت أو ابنتها للعار ثم تضحك بعد ذلك راضية لأنها لا تحس الألم فى ذاتها الشخصية ، بل هو ألم موجه إلى الإبن أو البنت ؟ أتريد لها أن تقول أن الذنب ذنب غيرى فلا أكترث به ؟ إن الدنيا حينئذ تخلو من أنبل العواطف وأرفع المشاعر إذ تكون خلواً من فضائل الأمهات والآباء والصديقين والشهداء ! ! .

هذا مثل جيد لواعظ بصير ، وآية الجودة فيه أنه يخاطب العقل فى نفس المستمع ، ويقدر الأحوال المحيطة به قبل أن يأتى ببرهان ليجىء رده مطفئاً كل ما يعتلج بالنفوس من حرارة الشك ، ولن يصل إلى ذلك غير إنسان مرن تثقف بثقافة العصر ، وكشف عن أعماق النفوس ، ونحن فى زمن لا ينجح فيه الواعظ المسلم نجاحاً معترفاً بتأثيره فى المحيط الإسلامى إذا اقتصر على سوق الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مجردة عن حرارة القائل وبعد نظره ، وصدق تفسيره ، ولطف مدخله ، لأن العقول مظلمة ، ونريد لعلاجها من كتاب الله أن يظهر على حقيقته الربانية واضح الهدف ، نير الإيحاء ، كما كان يتقبله السلف ، وقد خلصت النيات وصفت السرائر ، فالواعظ مسئول عن موضع الاستشهاد ومناسبته ، وتوجيهه ، والتأكد من انطباقه على موضوعه دون افتعال فى الربط أو اعتساف فى البرهان !

هذه ناحية عقلية ، نتركها إلى ناحية خلقية وهى جانب القدوة المثلى الذى يجب أن يعرف داعية الإسلام أنه من أخص الخصائص لرسالته ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، وقد يبلغ العمل الواحد من التأثير ما لا تبلغه آلاف الأقوال ، وأنا أعلم من الدعاة الكبار قوماً كانوا يؤثرون بالسلوك وحده دون أن يتصدروا للنصح والإرشاد .

وثقافة العصر بمدارسه وجامعاته وكتبه وإذاعاته تحتم على الواعظ المستنير أن يلمس عيوب الوعظ القديم فيتركها إلى ما يفيد ، ولكن الواقع المؤلم غير ذلك ، فأنت لا تزال تسمع نفراً من الواعظين يغمرون الأسماع بالأقاصيص الواهية والروايات المصنوعة ، ويحشدون من الإسرائيليات وأشباهها ما يغرق السذج فى لجب لا نجاة من شره ، ونحن لا ننكر أن الحرص على التشويق ، وجذب الأسماع إلى المواعظ أمر مطلوب ، ولكننا نريد بالتشويق المؤثر أن يتم فى ميدانه الطبيعى حين يرتفع الواعظ عن التسلية السطحية إلى التثقيف الموجه ، فهو ذو مصباح لابد أن يبدد ظلام الشبهات ، وغياهب النفوس ، فإذا لم تستطع أشعة وعظه أن تهدى النفوس بغير الملفق من الأقاصيص فقد حاد عن الطريق ، وإذا كان المدرس فى حقل التربية والتعليم يتخذ من وسائل الإيضاح فى درسه ما يمهد به سبيل المعرفة إلى عقول التلاميذ ، فالواعظ مدرس فى هديه ، وعليه أن يهتم بوسائل الإيضاح النافعة كداعية أمين .

هذا والإيجاز لدىّ أبلغ من الأسهاب ، إذ ألف نفر من الدعاة أن يقوموا الساعة والساعتين صائحين متكلمين ، وكأن امتداد الزمن وحده وسيلة التأثير والإقناع ! مع أنه داعية الاستطراد من القائل ، والملل من السامع ، والسامعون طبقات مختلفة ، منهم من يثابر على الفهم والاستماع ، ومنهم من ينصرف إلى شجونه الداخلية ، وإذا كان الإطناب مملا مع جودة المعنى وإصابة الغرض ، فكيف به مع التفاهة والحشو والاستطراد ! .

لقد كان الحسن البصرى أبلغ الدعاة فى عصره ، وكان يقابل خطب الحجاج بعبارات موجزة تحير الحجاج وتوقعه موقع الاضطراب فلا يستطيع أن يجيب ،

وما كان الحسن رضى الله عنه يزيد فى وعظه عن فقرات يسيرة ، تهب على المؤمنين روحاً وريحاناً ، وتصب على العصاة شواظاً من لهيب ..

عاد الحسن ذات صباح مع العائدين من تشييع جنازة لأحد كبراء البصرة ، فالتفت إلى أصحابه ، ونظر طويلا ، فشخصوا إليه منتبهين ، ثم سأل فى تؤدة : لو رجع هذا الميت ثانية إلى الحياة أكان يحرص على الطاعات ؟ فقال السامعون فى صوت واحد : نعم ، فحدق فيهم الحسن متفرساً ثم قال فى تمهل : أما نحن فقد رجعنا فلنحرص إذن ؟! .

إن السؤال المقتضب الذى وجهه الداعية الكبير ، والرد الموجز الذى تلقاه ، ثم ما شفعه به من التعقيب ، كل ذلك لم يستغرق أكثر من دقيقة ، ولكنه ترك فى النفس أبلغ ما يتركه واعظ جهير تحدث عن الموت ساعة كاملة دون انقطاع ، وما تم ذلك إلا لحرص الحسن على انتهاز الفرصة المواتية ، فسقط حديثه كما يسقط الغيث على المرعى الجديب ، وليس الحسن وحده إمام الوعظ البصير ، بل شاركه أئمة وأعلام ، فقد تحدث بعض الأدباء عن عمر بن ذر الهمذانى حين يعظ ، فقال : لقد خلت والله أن نفخ فى الصور وقام الناس لرب العالمين ، فجعلت أمر بيدى على وجهى كأنى أذود عنها حرارة اللهيب يوم الميزان ! .

كيف ارتقى الحسن فى إقناعه ؟ وكيف اهتدى ابن ذر فى إبداعه ؟ سؤالان إجابتهما ميسورة تتلخص فى صدق القدوة ، وبلاغة التأنى ، والبصر بالنفوس .. أما العلم وحده فما أكثره ! .

قاص المسجد

عرف المسجد من يقصّ به أحاديث السابقين ، لأن كتاب الله عز وجل ، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، يحفلان بالقصة ، حيث هى موعظة وعبرة ، يقول الله عز وجل : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، والواضح أن النفس البشرية تميل إلى القصة ، وتحرص على سماعها ، وروايتها ، إذ بها من التشويق والفائدة ، وسير السابقين ، وزروعة الفجاءة ، وحسن السلوى ، ما يجذب كل انتباه ، والحديث العلمى ينسى ، كالقصيدة الشعرية ، أما القصة فتدور على الألسنة دون انقطاع .

ورجال التاريخ يذكرون أن القصة قد عرفت فى صدر الإسلام ، إذ يروون عن ابن شهاب أن تميم الدارى رضى الله عنه أول من قصّ فى مسجد رسول الله ، وكان قد استأذن عمر بن الخطاب فى القصص ، فأبى عليه ، ثم استأذن عثمان بن عفان بعد رحيل الفاروق ، فأجابه ، وأخذ يقص .

ولعمر بن الخطاب وجهة نظره التى ترى أن قصص القرآن معروف معلوم لايحتاج إلى رواية ، فالتعرض له من قبيل تحصيل الحاصل ، أما قصص أهـــل الكتاب من اليهود والنصارى فموضع أخذ ورد ، ولا يجوز أن نشغل به المسلمين ، فتحدث بلبلة بين ما قد يتعارض من حدث أو قول مع ما جاء فى كتاب الله عز وجل ، ومثل الفاروق فى عبقريته يعلم أن الوضع كثير ، وأن أمثال كعب الأحبار ومن يتصدرون للرواية التاريخية عن قصص بدء الخلق ، وبعثة الرسل ، وتكوين الرياح والسحاب والرعد ، يخطئون ويصيبون ، فإغلاق الباب أولى وأرشد ، ولعل وجهة نظر عثمان أن تميماً الدارى مسلم صادق الإيمان ، ومثله لابد أن يميز بين الخطأ والصواب ، والمعقول والبعيد عن التصور ، فلا يسمـــع المسلمين إلا كل صائب سديد .

يقـول الأستاذ أحمـد أمين : (وصورة هـذا القصص أن يجلس القـاص فى المسجد ، وحـوله الناس ، فيذكرهم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى ونحو ذلك ، لا يعتمد فيها على الصدق قدر ما يعتمـد على الترغيب والترهيب ، قال الليث بن سعد : « هما قصص العامة ، وقصص الخاصة ، أما قصص العامة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية إذ ولى رجلا على القصص ، فإذا سلم من صلاة الصبح ، جلس وذكر الله عز وجل ، وحمده ومجده ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة » . وقد نما القصص بسرعة لأنه يتفق وميول العامة ، وأكثر القصاص من الكذب حتى رووا أن علىّ بن أبى طالب طردهم من المساجد ، واستثنى الحسن البصرى لتحريه الصدق فى قوله) (١)؛

هذا ما قاله الأستاذ أحمد أمين ، ويخيل إلىّ أن ما نقله عن الليث بن سعد ، يحتاج إلى بعض الإيضاح ، لأن قوله عن قصص العامة أنه مكروه ، يجعلنا ندل على علة الكراهة ، فنذكر أن العامة تستهويها الغرائب ، ولا ترتاح إلى الواقـع قدر ما ترتاح إلى الخيال ، وقد يلتبس الواقع بالخيال ، فتصور السامع أن كل ما جاء حق لا شك فيه ، ومن هنا كانت الكراهة عند قوم والحرمة المانعة عند آخرين ، وعلىّ بن أبى طالب كعمر بن الخطاب فى منع هؤلاء ، أما من تختاره الدولة فلابد أن يكون منفرداً بميزات عقلية تحول بينه وبين الشطط ، فإذا كان كذلك فلا مانع من قصه ، فإن ظهر غرضه فى التعصب إلى وجهة غير وجهـة الحق ، فمؤاخذته واجبة .

وقد كتب الأستاذ جولد زيهر فصلا عن القصاص فى الإسلام ، ذكر فيه أن بعضهم قد اشتهر بتفسير القرآن ، ومن هنا جاءت الإسرائيليات الكثيرة ، لأن القاص يستهوى الأسماع بما يروى من العجائب ، وهو مدفوع إلى ترديد ما عرف من الإسرائيليات ليكون موضعه من سامعيه حبيباً خميداً ، ولعل ما ازدحمت به

---

(١) فجر الإسلام ، ص ١٦٩

بعض كتب التفسير من هذا اللون كانت مجالس القصاص فى المساجد أكثر ينابيعه ، وليس هؤلاء جميعاً على حد سواء ، ففيهم المتحرز والمتساهل ، وقد كان موسى الأسوارى ، وعمر بن قائد الأسوارى قصاصين بارعين .

ويقول الجاحظ عن الأول : إن فصاحته بالعربية توازن فصاحته بالفارسية ، وأنه كان يجلس المجلس المشهود ، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن شماله ، ثم يقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها بالعربيّة للعرب ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين ، يقول الجاحظ : (واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد ، أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسوارى) .

أما عمرو بن قائد الأسوارى فكان يفصل فى التفسير ، حتى أنه قص ستاً وثلاثين سنة ، فابتدأ بتفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ووجوه التأويلات ، فربما كان يفسر الآية الواحدة فى عدة أسابيع [١] .

والنفور من القصاص فى المساجد شائع لدى الباحثين ، وعلته هذا الكذب المدخول على الحقائق ، ومع هذا الكذب المفضوح فقد رزق الحظوة فى القبول لدى العامة ، حتى قال المسعودى فى مروج الذهب : (وتفقد العامة فى احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهر إلا مرقلين إلى قائد دبّ ، وضارب بدف على سياسة قرد ، أو متشوفين إلى اللهو ، أو مختلفين إلى متعبد ممزق ، أو مستمعين إلى قاص كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أووقوفاً حول مصلوب ينعق بهم فيتبعون ، ويصاح بهم فلا يرتدعون) .

ونحن ننقل ذلك لأننا لا نزال نرى فى عصرنا الراهن من يستهوى العامة بالأكاذيب الملفقة ومن يظل يسرد القصص الخادع وكأنه حق لاشك فيه ، مع أن الأولى بمجالس الوعظ أن تكون دروس أخلاق وسلوك ، فإذا تعرض الواعظ لقصة ما فليأخذ منها العبرة الخلقية والعظة السلوكية على أن تكون ثابتة صادقة إلا إذا كانت من قبيل الرمز على لسان الطيور والحيوانات ، ولكل مقام مقال .

ولسنا نقول إن جميع القصاص من طراز منتقد ، فقد كان منهم أفاضل المتحدثين وأئمة النابهين ، وسنخص أحدهم بالحديث فيما يلى هذا الباب .

---

(١) الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٠٤ عن قوله مقتبس من (جولد زيهر) .

القاصّ الورع

(الحسن البصرى)

تعرض الأستاذ أحمد أمين إلى قصاص المساجد ، ونقل عن الغزالى رأيه فيهم ، ثم خلص إلى الحسن البصرى فقال عنه[1] :

(والحق أن الحسن البصرى كان قاصاً من نوع آخر ، فلم يكن ينحو منحى الذين يعتمدون على الإسرائيليات والنصرانيات ، إنما كان يعتمد على التذكير بالآخرة ونحوها ، ويستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث ، فقد كان يجلس فى آخر المسجد بالبصرة ، وحوله الناس يسألونه فى الفقه ، وفى حوادث الفتن التى كانت فى عهده ، ويحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم ، فما أثر من قصصه قوله : « يا ابن آدم لا ترض أحداً بسخط الله ، ولا تطيعنّ أحداً فى معصية الله ، ولا تحمدنّ أحداً على فضل الله ، ولا تلومنّ أحداً فيما لم يؤتك الله ، إن الله خلق الخلق فمضوا على ما خلقهم عليه ، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه فى رزقه فليزدد بحرصه فى عمره ، أو يغير لونه ، أو يزد فى أركانه أو نباته ، يا ابن آدم لم تكن فكنت ، وسألت فأعطيت ، وسئلت فمنعت ، فبئس ماصنعت ») .

والحسن البصرى ولد بالمدينة ، وكان أبوه من سكان مدينة ميسان ، ثم سبى عام ١٢ هـ أثناء حملة خالد على العراق ، فنقل إلى المدينة حيث غدا مولى لزيد بن ثابت ، فولد الحسن ليجد المدينة أرجة بعبير الصحابة ، وكان فيه منذ صغره نجابة وذكاء ، فتتلمذ على أنس بن مالك ولقى سبعين ممن شهدوا بدراً فتحدث إليهم وروى عنهم ، ويقول مؤرخوه إنه حفظ القرآن وهو دون الرابعة عشرة من عمره ! ومثل هذا العمر الصغير فى زمن الحسن حيث لا فقيه منتظم يقرئ الناس ،

---

(١) فجر الإسلام ، ص ١٩٩

إنما هو تلقى السورة والآية عن صحابى أو تابعى مع ما يفهم من تأويلها على وجهها الصحيح ، مثل هذا العمر الذى استقصى القرآن حفظاً وفهما يدل على استعداد الناشىء وطابعه العلمى الأصيل .

شاهد الحسن الخلاف الحزبى بين الأمويين والشيعة والخوارج ، فكان يتألم لما يرى من دماء تراق فى غير علو ، وتطوع فى الفتوح الإسلامية حيث اشترك فى حرب كابل ببلاد الأفغان ورجع من الجهاد ليشغل إلى أمد قصير موظفاً عند الأمويين ، ثم آثر الاعتزال والقيام بالوعظ والإرشاد فى مسجد البصرة إلا ما كان من ولاية القضاة مدة قصيرة أبى أن يأخذ عنها أجراً ، لأن إصدار الحكم الشرعى فى الإسلام لا يباع .

ولم يسكت الواعظ الكبير عما كان يرى من مظالم الأمويين بعامة وما يشهد بعينه من آثام الحجاج فى البصرة بخاصة ، ولكنه كان لبقاً كيساً ، لا يصادم بما يهدر الدم ، بل يراعى المقتضى المناسب دون أن يؤثر السكوت كمن استكانوا إلى المناصب غانمين ، ودون أن يجاهر بالثورة حيث لا أمل له فى النجاح :

وقد اشتهر الحسن البصرى بالتصوف حين كان زهداً إسلامياً خالصاً يستمد أصوله من كتاب الله ، وسنة الرسول ، وصنيع السلف الصالح من صحابة رسول الله ، وقبل أن تتخلله مزاعم الثقافات الوافدة من الهند وفارس واليونان ، فهو إذن ينحو المنحى الإسلامى النقى ، ولو عرف المسلمون أن مذهبه هو المذهب السلفى المأثور ، ما صاروا فى التصوف هدفاً للثقافات الوافدة ، وما ضل الكثير منهم فيما ادعوه من اتحاد وحلول ووحدة وجود ووحدة شهود وغير ذلك من ألفاظ تبحث عن أصولها فى كتاب الله وسنة رسوله فلا تجد .

وهو فى علم الكلام كما كان فى التصوف يقف عندما يوحى به النص القرآنى بعيداً عن التأويل ، ولذلك اعتزله واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، ومن ألفوا لهم مذهباً جديداً تحت الاعتزال ، وفى بعض كتب الكلام آراء تنسب إلى الحسن تعتبر دخيلة عليه ، إذ لو كانت هى آراؤه ما اعتزل مجلسه المخالفون من تلاميذه ، على أنه شاء أن يبعد بمجالس العلم فى المسجد الجامع عن لجاجات علم الكلام ،

وأن يقتصر على الصريح الجلى من كتاب الله ، وبعض الكاتبين يحاول أن يجعله الموجه الأول لرابعة العدوية فى حبها الإلهى ، ورابعة زاهدة عابدة ، وهى سيدة فاضلة ، سهلة العقيدة ، ساذجة الفكرة ، ومحاولة جعلها ذات مذهب صوفى يهدف إلى حب الله وحده دون خوف من نار أو طمع فى جنة مما لا يتلاءم مع مستواها ، والذين ينسبون إليها ما يدل على ذلك ينسون فينسبون إليها ما يخالفه ، إذ أجمع الذين يؤرخون لها أنها قالت :

وزادى قليل ما أراه مبلغي ... أللزاد أبكى أم لطول مسافتى
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى فيك أين مخافتى

ولكن المغربين من المستشرقين يحاولون أن ينسبوا لها ما يجعلونه شبيهاً بمذهب آخر فى دين آخر ، ليكون لهم اطلاعهم الزائد من ناحية ، وتحقيق مآربهم فى إلغاء كل أثر للإسلام فى الزهد النفسى والصفاء الروحى ! وإذا كان الحسن موجهاً لها فى قول بعض هؤلاء فأين هى أقوال الحسن فى تهوين العقاب والثواب ، وكل أقواله المحفوظة ترهيب ووعيد .

وأجمل ما يؤثر عن الحسن البصرى أقوال مأثورة رددها فى مجالس وعظه ، ويعد بعضها من جوامع الكلم ، لأن نور النبوّة يلوح فى صفحتها ، ونستطيع أن نختار منها هذه الروائع البليغة :

١ — اقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، واعصوها ، فإنكم لو أطعتموها نزعت بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور .

٢ — إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

٣ — يا عجباً لقوم قد أمروا بالزاد ، وأذنوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعرى ما الذى ينتظرون .

٤ — إن الله قد جعل الصوم مضماراً لعباده ، ليستبقوا إلى طاعته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، ولعمرى لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسىء بإساءته ، فاجعلوا الدنيا كالقنطرة تجوزون عليها ولا تعمرونها .

٥ ـ تلقى أحدهم أبيض بضاً ، يملخ فى الباطل ملخاً ، ينفض مذرويه ، ويضرب أصدريه ويقول هأنذا فاعرفـونى ، قـد عرفناك فمقتك الله ومقتك الصالحون :

٦ ـ ابن آدم ، نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليلك ، إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك .

٧ ـ المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان بأمر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ، وإنما يتبدل المنافق ليستأكل كل يوم ، ولا يزال العبد بخير ما دام له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عماله ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشر ما استعمل التسويف ، واتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح فى الأمانى .

لقد كان الأصوب فى رأيى أن يوجه الباحثون اهتمامهم إلى حصر أقواله ، وتحديد منحاها الخلقى ، وطريقها السلوكى ، وباعثها التربوى لتكون منهجاً إرشادياً للإنسان المؤمن ، أما محاولة الزج به فى مجال التصوف الفلسفى ـ حيث لم يعرف فى عصره ـ أو محاولة جعله رأس الاعتزال ، إذ تفرع عنه مدرسة تدين لـه وإن خالفته ، فذلك ما لا يسير مع الحق فى طريق ، وآفة بعض الباحثين أنـه يكتب لا ليصل إلى الحق ، بل ليظهر ثقافته المتشعبة (العميقة ! !) ولن تكون الثقافة متشعبة عميقة فى رأيه إلا إذا اتصلت بالهند والفرس واليونان فى القديم ، ودعك من تشعبها الخرافى فى العصر الحديث ..

بين المسجد والمدرسة الدينية

كانت الدروس بالمساجد تحدث جلبة ومحاورة وأخذاً ورداً ، وفيها ما يجلب النقاش الحاد إذا كان الدرس يتحدث عن الفرق الدينية أو المذاهب الكلامية ، وكل ذلك مما يعوق من أداء الصلوات على وجهها المطلوب خشوعاً ، واطمئناناً ، حتى أن بعض المساجد فى أول إنشائها خصصت أياماً للتدريس ، فالأزهر مثلا فى عهده الأول جعل لصلاة الجمعة وحدها ، وهو يوم عبادة ، وخصصت الأيام الباقية للتدريس دون صلاة ، وهذا التحديد لم يحل المشكلة ، لأن المساجد لو حذت حذو الأزهر جميعها ، ما وجد المصلون مكاناً للصلاة ، ولو تركت موزعة بين التدريس والصلاة لحدث من الضوضاء ما يمنع الخشوع ، ولوجد المصلى نفسه مضطراً إلى الالتفات إلى ما يرتفع حوله من أصوات ، وخاصة إذا حمى النقاش ودارت رحى الاعتراض والدفع . ثم إن العلوم تطورت واتسعت وأصبح السماع وحده لا يغنى ، فلا بد من تهيئة مكان للنفع التام .

والذين يتحدثون عن أولية إنشاء المدارس يجعلون غرضها دينياً لنصرة مذهب على مذهب ، كما سنفصل ذلك فى البحث التالى عند الحديث عمن اشتهر بإنشاء المدارس ، ولكن ذلك لا يمنع أن تكون هناك مبررات أخرى لإنشاء هذه المدارس ، وقد تجمعت الأسباب لتحفز ذوى النظر إلى البحث عن أمكنة ثانية لا على أنها تكون بديلة عن المساجد ، لأن المساجد لم تنقطع عن تدريس العلم فى وقت ما ! ولكن على أنها تكون جدولا آخر ، يضاف إلى المسجد ، فيساعد على انتشار الثقافة ، وتنوير الأذهان .

والحق أن أوجه الخلاف بين المدرسة والمسجد فى العهد الأول من الضيق بحيث يحار الإنسان ، فلا يعرف أهو أمام مدرسة أو أمام مسجد ، لأن المدرسة تكون على هيئة المسجد تقريباً ، ويعين لها المؤذن ، ويقام بها منبر الخطابة ، كما أن المسجد يجمع المدرس والمكتبة وأدوات النسخ .

وقد قال الدكتور أحمد شلبى بهذا الصدد ما نصه :

(إن التمييز بين الاثنين - المدرسة والمسجد - يكتنفه عند النظرة السريعة شىء غير قليل من الغموض ، ومرجع ذلك أننا نجد مسجداً يعين به مدرس ، كما نجد المدارس يعين بها مؤذنون ، أو تقام بها منابر للخطابة ، ولكننا نرى أن هناك خواصاً للمدرسة لا تتخلف ، وأهم هذه الخواص هو الإيوان ، وهو الاسم الذى يرادف قاعة المحاضرات فى التعبير الحديث ، وما كانت المدرسة تخلو منه ، فهو أبرز مرافقها وأهمها ، ومن خواص المدرسة أيضاً المساكن التى تبنى ليعيش بها الطلاب ، والمدرسون الذين ينتسبون إليها ، وقد حفلت أغلب مدارس المسلمين بهذه المساكن ، وبما يتبعها من المرافق ، كالمطبخ وحجرة الطعام وما شابهها) :

ويقول ابن العجمى : (لما ملك نور الدين مدينة حلب ، وحوّل مسجد السراحين إلى مدرسة ، جدد فيها مساكن يأوى إليها الفقراء وإيواناً ، ثم بالإضافة إليها ، كان المدرس معيناً من قبل صاحبها ليعلم بها ، بخلاف المسجد الذى طالما جلس به مدرسون ، دون أن يعينوا للتعلم فيه ، ومن جهة التلاميذ فقد كان عددهم محدوداً غالباً فى المدارس دون المساجد ، كما كان ينالهم دائماً نصيب من الأوقاف التى توقف على المدارس) .

والفرق فى عصرنا الراهن واضح بين المدرسة والمسجد ، ولكنه لم يكن كذلك فيما قبله من العصور ، مما يجعل كلام الدكتور أحمد شلبى موضع تعليق ، إذ ليس صحيحاً أن المدرسة قد اختصت بالإيوان والمساكن ، لأن للمسجد أيضاً إيوانه الواسع الذى يزدحم فيه الطلاب ، كما أن كثيراً من المساجد تلحق بها مساكن لطلبة العلم ، ولننظر الآن إلى جامع السلطان حسن مثلا لنجد به الإيوان ، وأماكن السكنى ، فهو مدرسة وهو جامع دون فرق ! وما الجامع الأزهر ببعيد ، ونحن نرى إيوانه الواسع ، ونشهد ما يضم إليه من أروقة كانت مساكن الطلاب منذ سنوات ؟

وقد كان الطالب الأزهرى المغترب قبل أن تنشأ مدينة البعوث لا يعرف لنفسه مكاناً غير الأزهر ، فهو يأتى الحلقة نهاراً ، وينحرف قليلا ليجد نفسه فى

الرواق ، فيأكل وينام ويستريح ! وإذا كانت المدارس يعين لهـا المدرسون ، فكذلك كانت المساجد يعين لهـا الأئمة وهم فى واقع أمرهم مدرسون !

وشبيه بالمدرسة بالنسبة إلى المسجد ما يعرف (بالخانقاه) وهى مكان لطلب العلم والعبادة والسكن جميعاً ! وقد انتشرت الخوانق فى العصرين الأيوبى والمملوكى على نحو واسع ، ووجد من الكبراء من عملوا على إنشائها حسبة لوجه الله ، ليجتمع من يريد الصلاة والعبادة ، ومن يرغب فى العلم والثقافة ، وأكبر ميزة لهـا عن المسجد والمدرسة أن الأماكن الملحقة بها للسكنى منازل حقيقية ، يختص كل من يأوى إليها بحجرة أو حجرتين ، وفيهم من يتزوج ويسكن مع زوجته وأولاده ، وفى الأوقاف الكثيرة ما يغنيه من تبعات العيش ليظل متفرغاً للعبادة أو العـلم أوهما معاً !

وقد ألحقت بالمساجد والمدارس مكتبات تضم ما يحتاجه الطلبة فى شئون العلم ، وأكثر ما بها من الكتب قد كتبه الطلاب سماعاً ، إذ أملى عليهم فى الأكثر الغالب وبعض الأساتذة لم يكن يشجع الإملاء ، ولكنه كان يلقى الدرس دون أن يعين مملياً إذ يجلس على مكان عال ليردد ما يقول فيسمعه القريب والبعيد ، ولا يقـدم من طلابه من يعقبة سريعاً ليكتب كل ما قال ، ثم يرجع إلى زملائه الذين يحذون حذوه ، ليستدرك كل ما فاته من النقص ، حتى يلتئم النص على وجه كامل لا ثغرة فيه ! ومن هنا جاء الاختلاف فى بعض المخطوطات ، إذ ربما تركت نسخة ما دون مراجعة دقيقة ، وربما زاد الطالب شيئاً من عنده يساعد على جلاء العبارة ، وهى احتمالات قوية يعرفها الناشرون والمحققون .

وإذا كان نظام الملك صاحب اليد الطولى فى إنشاء المدارس الدينية ، فإليكم كلمة تطول بعض الشىء ، لأن الرجل غير مشتهر لدى الكثيرين .

نظام الملك والمدارس الدينية

اكتملت فى الوزير نظام الملك الطوسى مواهب عديدة ، فهو أولا ، عـالم بارع ، تفقه فى الشريعة الإسلامية ، والحديث النبوى ، ودرس اللغة والأدب ، ولم يكن اطلاعه محدوداً يقتصر على المطارحة والمشاركة ، بل عمد إلى اللبـاب الدسم فى مختلف العلوم ، فاكتنه سره ، وكشف غامضـه ، وحسبك أنه تصـدر للتدريس فى حلقاته العامرة ، فنوقش وجودل ، وأظهره الحوار على حقيقته عالماً أصيلا يحمل برهانه ، ويملك إقناع معارضيه ، وهو — ثانياً — إدارى حازم نظم شئون الملك ، وجهز الجيوش الغازية ، ورسم الخطط الموفقة ، وأعد المؤن والذخائر ، وجعل لسلطانه هيبة مرهوبة ، فأمره نافذ مسموع ، وأعداؤه ينكمشون ويتضاءلون مشفقين من صرامته وسعة حيلته ، مع ما لديه من عتـاد صاعق ، وبأس رهيب ، وهو — ثالثاً — مصلح كبير قضى على الاختلافات المذهبية بين الطوائف الإسلامية ، وأكثر من المدارس النظامية ، ودعا إلى الوحدة المتماسكة بين المسلمين فى عصره تنوعت فيه الفرق ، وتعددت الخلافة من عباسية وعبيدية وأندلسية ! ! وبجهوده الممتازة رجعت للدين مكانته فى القلوب ، وللسلطان هيبته فى النفوس ! !

كان أبو الحسن بن إسحاق بن العباس الطوسى من أبناء الدهاقين ، وقد توفيت أمه وهو رضيع ، فلاقى والده مشقة فى تربيته وحضانته ، إذ كان يطوف به على المرضعات ، ويسهر طيلة ليله فى قضاء حوائجه ، وما أن شب عن الطوق حتى دفع به إلى معلم مخلص يثقفه ويهذبه ، فحفظ القرآن الكريم ، وتفقه فى الحديث الشريف ، وشارك فى علوم عصره ، وكانت المعرفة لعهده مختلفة الينابيع متنوعة الجداول ، فأخذ من كل فن بطرف ، وأخلص إخلاصاً حميداً فى التحصيل حتى تألق نجمه ، وذاع صيته ، فاتصـل بخدمة على بن شاذان ، وأظهر لديه كفاية تامة وخبرة واعية وخلقاً كريماً ، فقدمه إلى الملك السلجوقى ألب أرسلان ، ولم يلبث

أن صار صاحبه الأثير ، فتسنم الوزارة ، وبلغ بها مرتبة سامية أتاحت له أن ينفذ آراءه الإصلاحية ، ويقوم بمجهود ممتاز فى شتى الميادين .

كانت عصامية نظام الملك مفتاح تفوقه ونبوغه ، فقد قرأ تواريخ الوزراء وذوى المكانات المرموقة فى الدولة الإسلامية ، فوجد الحظوة السابقة قد واتتهم عن طريق الدرس والتحصيل ، فأكب على العلم يقتطف ثماره اليوانع ، ولم يحصر أفقه فى فرع خاص منه يتفرع إلى التعمق فى مسائله والتبحر فى أصوله ، حتى يصبح أستاذه الملحوظ ، ولكنه جعل من اطلاعاته المتنوعة نبراساً يهديه إلى حل مشكلات عصره ، وتفهم حوادث زمنه ، ومعالجة ما قد يعضل من الأدواء ، ومن هنا ربط علمه بالحياة ربطاً ساعد على فهمها ودراسة مجتمعها ، وعناصر التأثير فيها ، وتكوين صورة خاصة لكل عظيم يتصدر ناحية من نواحيها الكثيرة ، وكانت أخلاق الرجل سلما آخر لمجده ، فبها تدرج فى معارج الرقى ، وانجذبت إليه الأفئدة والأهواء ، وقد ورث عن عائلته صوفية شافة ، فمال إلى الفقراء ، وصاحب أهل الزهد والورع ، ونأى فى وزارته عن الترف والملاذ ، ووجد فى مطارحة العقول ومجالسة الفحول لذائذ مغرية ، فحرص على التبصر والتأمل ، وأبدى رأيه فيما يسمع ويقرأ ، ولذلك عمر مجلسه بأئمة العلم وصدور الشريعة من أعلام الإسلام ، وكان يبدى من تعظيمهم وتبجيلهم ما يدفعهم لزيارته والتردد عليه ، بل إنه كان يزن كل عالم بميزان دقيق ، فيعرف له مكانه الذى يجب أن يوضع فيه .

كان مجلس الوزير دائرة ثقافية متنوعة الأفانين ، وحسبك أن تعلم أن إمام الحرمين أبا المعالى الجوينى ، وأبا القاسم القشيرى ، وحجة الإسلام الغزالى ، وعبد السلام القزوينى ، وأبا على القارمذى ، وغيرهم من أئمة الفضل ، كانوا شموس مجالسه وبدور آفاقه ، وكانت صوفيته السليمة النبيلة تدفعه إلى المفاضلة بينهم على أساس من الورع والتقوى ، فهو يستشف أسرار النفوس ، ويصل إلى الأغوار الكامنة من معادن الناس ونياتهم ، فليست سعة العلم وحدها أساس المفاضلة فى رأيه ، ولكنه يجمع إليها ما توحى به الدلائل المختلفة من عظمة الخلق وقوة الإخلاص ، وكأنى به وقد أدرك أن العلم لا يبلغ قمته العالية إلا إذا امتزج بدماء

صاحبه ، فأورثه ترفعاً كريماً عن الرغبات الزائلة ، وتسامياً رفيعاً عن مجاملة الناس ومحاسنتهم لعلة ذاتية أو نفع مادى :

قال بعض جلسائه : كان نظام الملك إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبو القاسم يقوم لهما ولا يفارق مكانه ، وإذا دخل عليه واعظ خراسان أبو على القارمذى قام إليه ، وأجلسه مكانه ، وقعد بين يديه ، فسألناه عن مبالغته فى الاحتفاء بالواعظ وحده احتفاء لم ينله سواه ، فقال : إن الجوينى والقشيرى وأمثالهما إذا دخلوا علىّ يقولون لى : أنت كذا وكذا ، ويبالغون فى الثناء بما يبطرنى من المديح ، أما أبو على فيذكر لى عيوب نفسى ، وما أقع فيه من الظلم ، فأنكسر وأتراجع واستشعر الهيبة والخشوع ! فهذا الرجل الذى يهمل الثناء ، ويحتشد للنقد ، ويكترث لصاحبه ، إنسان عميق الإدراك ، واسع النظرة ، ولا ريب أنه جاهد نفسه جهاداً شاقاً حتى سما بها فوق النزوات الأنانية التى تتعشق الإطراء العريض ، وذلك وحده فضل عجيب يقترن بالحب والإجلال ! !

ونحن — وقد عرفنا حقيقة نظام الملك — لا نعجب إذا وجدناه يحمل بين جنبيه قلباً رقيقاً ، فيأتى من الأعمال ما ينبئ عن رحمة وحنان ، كان يأكل ذات يوم على مائدته ، ومعه لفيف من أعيان الدولة ، وجماعة من الفقراء المعوزين — كدأبه فى الجمع بين الطائفتين — فشاهد والى خراسان يجلس جوار فقير مقطوع اليد ، والوالى متأفف من جواره ، ضائق بمكانه ، فقام نظام الملك من فوره وجلس جوار الفقير يحادثه ويمد يده فى طبقه ! وبذلك ألقى على الوالى المتعاظم درساً فى المروءة يفوق كل زجر وتأنيب ! !

وكانت حوادث عصره وملابسات زمنه تساعده على أداء رسالته فى السياسة والتعليم ، فقد تسنم الوزارة فى خلافة المقتدى بالله العباسى ، وسلطنة ألب أرسلان وملكشاه السلجوقيين ، والخليفة العباسى والسلطان السلجوقى معاً يهدفان إلى الخير ، ويساعدان على الإصلاح ، فإذا نهض الوزير آنئذ بسياسته الإصلاحية لم ير معارضاً يقف فى طريقه ، وبذلك يسير فى نهج سهل تلاشت عقباته ، وتجافت عنه العراقيل !

كان المقتدى بالله خليفة قوى النفس عظيم الهمة ، أصلح كثيراً من الأحوال

الاجتماعية ببغداد ، فحطم دور الفساد ، وطرد المغنيات ، ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال مع النساء ، واستأصل الأبراج العالية كيلا تكون مباءة لكشف الأسرار ، والاطلاع على المحصنات فى الخدور ، ولذلك صادفت إصلاحات نظام الملك ارتياحاً من نفسه ، فخلع عليه خلعة سنية ! وقدر الوزير الكفء تقديراً كان مدعاة العمل والنشاط ، وكذلك كان سلطانه السلجوقى ألب أرسلان - فيما يقول ابن الأثير - نبيلا عالى الهمة ، باراً بالرعية ، صديقاً للفقراء والمعوزين ، وقد ورث عنه ابنه ملكشاه من بعده ما يزينه من النبل والشجاعة والهمة والطموح ، ونظام الملك وزيرهما المختار يتصرف فى الأمور كما يشاء ، وقد تعاون معهما تعاوناً صادقاً فى الغزو الإسلامى المظفر ، فقد أغار الروم على أملاك الدولة العباسية ، وأفزعوا المسلمين بما فعلوا من إجرام ونهب ، ثم زحفوا على آسيا الصغرى ، وامتدت أطماعهم إلى بغداد ، وبعث ملك الروم إلى السلطان رسالة تنبئ عن الاستخفاف به ، فأخذ الأهبة الشديدة ، وسار بجنوده إلى لقائه ، ونظام الملك من خلفه يرسم الخطة ، ويعد الذخيرة ، وقد قسم السلطان جيشه إلى أربع فرق ، تقدم بإحداهن وترك ما بقى كميناً أطبق من الخلف والجانبين ، فوقعت الهزيمة الماحقة بالروم ، وتركوا مغانم كثيرة من مال وذخائر ، ورجعت للإسلام مكانته الشماء .

وبإرادة نظام الملك وتدبيره الحصيف ، اتسع نفوذ ملكشاه ، فخطب له من حدود الصين شرقاً إلى آخر بلاد الشام غرباً ، وعم البلاد الرخاء ، فشقت القنوات ونشطت الزراعة والتجارة ، وقد سار (ملكشاه) بجنوده حتى بلغ حدود القسطنطينية ، وقرر ألف دينار على ملوكها ، ووضع فى الجهات التى فتحها من بلاد الروم خمسين منبراً إسلامياً ! ! وجلجل الأذان الإسلامى فى الآفاق يحمل الرسالة المحمدية ، ويدوى بعظمة الإسلام ! !

لم يكن هذا النصر ليتاح فى عهد وزير خامل يفكر فى نزاوته وأهوائه ، ولكن قوة نظام الملك الخارقة ، قد جعلت من الدولة السلجوقية دولة مغاز وفتوح ، ولن يتم لدولة عظمة بغير ذخيرتها الحربية ، وقوتها المجاهدة ، وهذا ما فطن إليه الوزير العظيم ، فأعد الجيش القوى ، وهيأ السلاح الماحق ، وكسب النصر الوضاء ،

ولو تأخر عهد الوزير العظيم حتى ظهرت قوات التتار المتوحشة لألقى عليها بشكيمته الخارقة درساً قاسياً ، ولما استطاعت أن تمزق الدولة السلجوقية ، تمزيقاً تفتتت له الأكباد ! ! ولكن القدر الذى شاء لنظام الملك أن يمثل دوره قبل اندلاع هذه النار المشتعلة ! ! وقد هيأ للتتار ظروفاً مواتية ، أدوا بها رسالتهم المروعة فى الاستئصال والتدمير ! ! ولو سلك الخلف سبيل السلف ما استشرى الخطب وطم الفساد ! !

هذا فى ميدان الحروب ! ! أما فى ميدان الثقافة ، فقد رأى نظام الملك ما يغمر العامة من جهل بقواعد الدين ، وحز فى نفسه أن يتلاعب بعض الناس من ذوى الأطماع السياسية بعقائد باطلة ينسبونها إلى الإسلام ، ويدفعون العامة إليها ليخذوا منهم قوة مظاهرة تساعدهم على الاستقرار السياسى ! ! حز ذلك فى نفس الوزير فأنشأ المدارس المتعددة فى العراق وإيران وأفغانستان ، وقد حشد لها أئمة الفقه وأعلام الشريعة ، فكان من أساتذتها إمام الشافعية أبو إسحاق الشيرازى ، وحجة الإسلام الغزالى ، وأبو نصر بن الصباغ ، وأبو بكر الشاسى ، وعرفت فيما بعد بالمدارس النظامية ، وكان للطلبة بيوت يأوون إليها ، وخزائن واقية تحفظ ملابسهم وكتبهم ، ورواتب تجرى عليهم كيلا يقطعهم طلب الرزق عن التحصيل ! ! وقد أباح للجمهور أن يسهم مع الطلاب فى النقاش والاستماع ، وأخذت أضواء المعارف تشع وتتكاثر ! ! حتى نشأ جيل جديد ممتاز يدرس الشريعة الصافية ويرد إلى الإسلام فى منابعه النقية .

ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه المدارس المباركة أساساً للنهضة العلمية التى ازدهرت فى القرن الخامس الهجرى وما وليه من قرون ، وإليها يرجع الفضل فى القضاء على البدع والخرافات التى عششت فى العقول المظلمة ، ورجعت على الإسلام بأوخم العواقب ! ! وقد ألقى فيها نظام الملك بنفسه بعض الدروس فى الحديث والتفسير ، ولم يدع لنفسه رسوخاً فى العلم وتمكناً فى الرواية ، بل تواضع فقال : إنه لم يبلغ درجة العلماء والمحدثين ! ! ولكنه يرغب فى أن يحسب فى عداد رواة الحديث ، لينال بذلك تشريفاً عند الله والناس .

ولقد كان إكثاره من المدارس النظامية مدعاة لخطإ وقع فيه الحافظ الذهبى

حين قرر أن نظام الملك أول من أنشأ المدارس فى الإسلام ! ! وقد تدارك العلامتان السبكى والسيوطى هذا الخطأ ، فذكر أن المدارس الخاصة بالتعليم قد أنشئت فى الإسلام قبل أن يولد نظام الملك بعشرات الأعوام ، كالمدرسة البيهقية بنيسابور وغيرها . ولكن النظام أكثر من المدارس إكثاراً حميداً ، وكان — وحده — أول من أجرى بها المعاليم للطلاب والمدرسين ، ومع هذا التصحيح المقنع فقد تلقف بعض المغرضين رواية الذهبى وتبعه جمع من المستشرقين يعز عليهم أن يسبق تاريخ الإسلام فى إنشاء المدارس ، فهم يرجعون بها دائماً فى أبحاثهم المختلفة عن التربية الإسلامية إلى نظام الملك الطوسى ، عن هوى واضح ، وغرض مريب ! !

كانت المدارس النظامية تدعو دعوة صريحة إلى القضاء على الخلاف بين أتباع الدين الواحد ، فقد كان بعض المعتزلة والأشاعرة والرافضة يحتربون فى حومة خاسرة ، وكل فريق يكيل للآخر تهماً تصل إلى الكفر والمروق ، كما أن بعض رجال الفقه من شافعية وأحناف وحنابلة ومالكية وشيعة قد طاف بهم طائف التعصب ، فأصبح الفقيه المتعصب يبحث عن أوجه الخلاف البعيدة ، فإذا قرأ فتوى لزميل يخالف مذهبه بذل جهده فى تزييفها ، حتى لتتعدد الفتوى الواحدة بتعدد الفقهاء ، وهناك — مع ذلك كله — جماعة المتصوفة الذين يقفون مع الفقهاء فى عراك ترجع خسارته إلى الدين ، وتلك ويلات أثيمة أرقت نظام الملك ، فعمل على تبديدها بإنارة العقول وإضاءة الأذهان ، فصافى أهل الإنصاف من كل الفرق ، وصاحب المخلصين من رجالها ، وحشدهم فى مجالسه ، ودعاهم إلى الوحدة لصيانة الإسلام فى عصر يتجمع فيه الفرنج ويتحرشون بالمسلمين ، وقد تنازع سياسة الإسلام وتعددت مذاهبهم المغرضة ، فلا أقل من أن يتحد العلماء فيرأبوا صدعاً واسعاً يوشك أن يعصف بالبناء .

قال عبد السلام بن يوسف القزوينى شيخ المعتزلة فى عصره : دخلت على الوزير الخطير نظام الملك ، وكان عنده أبو محمد التميمى ، وعالم أشعرى ، فقلت له : يأيها الصدر ، لقد اجتمع عندك رءوس أهل النار ، فقال النظام : وكيف ؟

فقلت : أنا معتزلى ، والتيمى مشبه ، وذاك أشعرى ، وبعضنا يكفر بعضاً ، فضحك النظام .

وإذا كان القزوينى قد ساق حديثه مساق الفكاهة ، فهو بلا شك ينبئ عن حقيقة أليمة تضطرم لها الصدور ، إذ يصوّر ما تنفجر به مجالس العلم من قذائف ملتهبة تتناثر شظاياها المحرقة فى الوطن الإسلامى ، فتصيبه بالتصدع والانهيار ، ولولا ما بذله النظام من الجهود فى سبيل الوحدة المخلصة بإقامة المدارس للعلم الإسلامى الحق لتفاقم الشر وامتد اللهيب فى كل مكان .

وقد زار النظام بغداد — عاصمة الخلافة — فأراد أن يضرب المثل بنفسه فى الدعوة إلى الوحدة الدينية ، ونبذ الخلاف المذهبى ، فزار مشهد الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق ودعا له بالخير ، وأتبعه بزيارة قبرى الإمامين أبى حنيفة وابن حنبل ودعا لهما ، ثم زار قبر معروف الكرخى ، وهو من أئمة التصوف ، ودخل المدرسة النظامية وسمع الناس منه قسطاً من الحديث ، وأملى قسطاً آخر .

وقد خطا الرجل خطوة ثانية فى سبيل الوحدة المرموقة ، فأبطل لعن الرافضة والأشاعرة من فوق المنابر ، وقد كان الوزير عميد الدين السكندرى قد حسن للسلطان طغرلبك لعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف إليه لعن الأشاعرة ! ! ورأى نظام الملك فى ذلك فحشاً بالغاً ، فأبطله مقتدياً بعمر بن عبد العزيز ومن سار على طريقته من أعلام السنة المعتدلين ، وبهذه الأعمال الجليلة ساعد النظام مساعدة فعالة على تقريب وجهات النظر ، وسار فى طريق الوحدة الدينية سيراً حميداً ، إذ أطفأ الأحقاد وأثلج الصدور .

وقد كان المذهب الشافعى يدرس وحده بالمدارس النظامية لكثرة من بها من فقهاء الشافعية ، وليس فى هذا تعصب لمذهب خاص ، ولكن اجتماع الطلاب على مذهب معين أدعى إلى سد أبواب الخلاف فى عصر تفاقمت فيه حدة الجدل المذهبى ، بدليل أن الوزير العالم قد بنى ضريحاً للإمام أبى حنيفة ، وأقام مدرسة خاصة لتدريس مذهبه الجليل ، فلو أن مذهب الشافعى قصد لذاته دون تقدير لغيره ، ما أنشأ النظام مدرسة حنفية ، ولكن الجو الذى سمح للخلاف السياسى أن

يتسربل بالمذهب الديني قد دعا إلى سلوك منهج واحد لتلاميذ مخلصين يؤمل فيهم أن يكونوا رسل الوحدة الدينية عن قريب .

وقد قدر للرجل أن يلقى مصرعه شهيداً على يد أحد الإسماعيلية بتحريض الحسن بن الصباح ، إذ كان هؤلاء يدعون إلى الانتقاض على الدولة العباسية ، وقد انتشروا فى هضاب فارس انتشاراً ذريعاً يعصف بالاستقرار ، ولقيت دعوتهم آذاناً صاغية فى بلاد تألف المذهبية من قديم ، ورآها الحسن بن الصباح حقـلا خصيباً يجنى به آماله ورغائبه ، ومع أن الحسن كان زميل النظام فى دراسته التعليمية بطوس ، ومع ما بذله النظام له من مساعدة كبيرة حين قدم عليه فى وزارته يلتمس المعونة !! ومع الصداقة التى كانت بينه وبين صهر نظام الملك حاكم قلعة « ألموت » ، وانتفاع الحسن بها انتفاعاً وجهه وجهة شخصية مريبة ! مع ذلك كله فقد دبت عقاربه نحو الوزير ، وعزم على أن يغتاله خفية ، إذ كانت عين النظـام بصيرة تراقب ما يقوم به صـاحبه من التدمير والفتنة ، وقد عزم على قص أجنحته وانهيار طغيانه عزماً لا يقبل المفاوضة والتراجع ، ولكن القدر قد سبقه فى طعنة ماكرة من يد ديلمى سخره الحسن لتنفيذ رغبته الجانية وقد سلط عليه أشعته الأخاذة فجذبه إلى الجريمة منقاداً لتأثيره السحرى الرهيب !

هـذا هو سر الاغتيال الآثم ، كما سجلته الروايات الصحيحة ، وكما يتفـق ومنطق الحوادث المتتابعة ، ولن نلتفت إلى ما رواه ابن الأثير فى الكامل ، ونقله عنه الأستاذ محمد الخضرى بك من أن مصرع الوزير كان بتحريض ملكشاه وتدبيره ، إذ رأى وزيره يقبض على ناصية الأمر بيده ، ويستطيل عليه ، فيقول فى معرض الإجابة عن تهديد صدر إليه من السلطان : إن دواتى مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب !! لن نلتفت إلى ذلك ، لأن نظـام الملك كان فى حياته السياسة ناعم الملمس ، حصيف التدبير ، ومن كانت له حنكته البالغة ، وتعمقه النافذ ، وحلمه الواسع ، لا يجيب هذه الإجابة الرعناء !! تلك التى لا تصدر إلا من شاب مغرور لم تعركه حوادث الدهر وتصقله تجارب الأيام ، بل أن أسلوب النظام الهادئ اللين كان يقتلع الجبال بقوته ، فكيف ينقلب الرزين الحصيف فى شبابه إلى أرعن أحمق فى شيخوخته ! وقد استفاد من عمره الطويل

ما شد أزره ، وامتد بآفاقه ! ! وإن من يقرأ كتابه العظيم « سياسة نامه » يجد من الخبرات والمعارف ، ويطالع من الحيل والتدبير ، ما يدل على مرونة سهلة ، ولباقة أريبة :

ومؤلف الكتاب — بعد — سياسى من ألبق طراز ، وقد أتيح له أن يكتب فى أصول السياسة ، كما يمثل أدوارها المتناقضة ، ليجمع بين التجربة العملية والأصول النظرية فى آن واحد ! ! ونحن لا ندرى أنعجب بالكاتب السياسى أم بالوزير السياسى ! ! على أن التوفيق بين القول والعمل أمر يتعسر فى أكثر الأحيان ولكن كان ذلولا سمحاً عند النظام ، فقضى حياته مبارك الغدوات ، مأمون العثار ! !

ومهما يكن من شىء فقد فقد التاريخ بمصرعه بطلا جاد العزيمة ، قوى الإيمان ، يستشعر خشية الله دون سواه ، وكان إذا سمع الأذان أمسك عما هو فيه ، ولا يبدأ بشىء قبل الصلاة ، ومع ما كان فيه من الجاه المديد والنفوذ الطائل فقد كان يذكر الآخرة دائماً ، ويستعين على تحقيق آماله بالعبادة والتقرب إلى الله .

يقول نظام الملك : (وكنت فى مطلع حياتى أتمنى أن تكون لى قرية ، ومسجد أعبد الله فيه ، ثم تمنيت أن تكون لى قطعة أرض أنتفع بريعها ، ومسجد أعبد الله فيه ، ثم تمنيت أن يكون لى رغيف كل يوم ، ومسجد أعبد الله فيه) .

وهكذا تتضاءل آماله من قرية إلى قطعة أرض إلى رغيف ، ويجنح إلى التصوف فى إحدى فترات شبابه ، ثم تنبعث همته العالية فيقدر رسالة المسلم فى الحياة ، ويعلم أنها رسالة البعث والقوة والإنقاذ ، وإذ ذاك يخطو خطواته الثابتة فى دنيا المجد ، فيصبح وزير دولة ، ورجل عقيدة ، وبطل تاريخ .

جامع القرويين

من أقدم معاهد العلم فى الدنيا ، وقريع الأزهر فى نشاطه العلمى ، لم يبنه ملك أو حكومة ، ولكن امرأة من فضليات المسلمات ورثت مالا كثيراً من أبيها ، فأحبت أن تنشىء مسجداً للعلم والعبادة معاً ، هى أم البنين فاطمة بنت محمد الفهرى ، وقد نذرت لله أن تصوم طيلة بناء المسجد ، فلما تم كما تشتهى تناولت الإفطار فى المغرب فى ملإ من الناس ، حيث وزعت الصدقات ، وتلقت التهنئات ، وكان ذلك فى عام ٢٤٥ هـ .

وقد توالت دول وملوك على المغرب ، وخضع لسلطان الأندلس تارة ، واستقل تارات ، وجامع القرويين بفاس ناهض بأداء رسالته العلمية ، وكلما تصدّع بعض مبانيه أخذ العامة يجمعون من المال الحلال ما ينهض بتعميره وتشييده كما اهتم به السلطان أبو عنان فارس المرينى فألحق به المدارس وأمده بخزانات الكتب ، واتسع به إلى حيث يشمل بيوت الطلبة وأماكن الوضوء ، وزينه بالشجر والزخرفة المعمارية ، وكان من توفيقه أن جعل به خزانة كبرى للمصاحف وحدها ، إذ أعد نفراً من ذوى الخطوط الممتازة لينهضوا بنسخ القرآن على ورق مصقول وبخط أنيق مشكول ، ثم بالغ فى الاهتمام بالمدارس الملحقة به ، وجعل من المكان الفسيح أمامه حديقة ذات أشجار وثمار .

وفى هذه السنوات المتتابعة ظهر من علماء القرويين من ملأوا الدنيا وشغلوا الأذهان ، وكانت الرحلة دائمة بين الشرق والغرب حيث يفد علماء الأندلس إلى المغرب فى رحلاتهم إلى المشرق ، ويفد المشارقة إلى المغرب طمعاً فى اكتشاف المجهول من العلم ، وجامع القرويين مضيف يستقبل ويودع ، ويطول القول لو أخذنا نسرد أسماء من سطعت نجومهم فى سماء هذا الجامع ، ولكننا نقول إن مذهب مالك رضى الله عنه لم يجد من يحرص على إحيائه تأليفاً ودرساً وشرحاً أكثر مما وجد من علماء جامع القرويين ، وكانت مؤلفاتهم الفقهية ذات ذيوع

بين فقهاء المذهب المالكى فى المشرق والمغرب ، وكتاب (الديباج المذهب) لابن فرحون يكشف عن هذه الحقيقة بما يسجل من تراجم المغاربة المالكيين ، وأكثرهم ممن نبغوا فى جامع القرويين .

ويلى الاهتمام بالفقه فى هذا الجامع الاهتمام بالقراءات ، إذ كان لتلاميذها مدرسة خاصة ملحقة بالمسجد ، يؤمها المبتدءون أولا ، فإذا تضلعوا من فنهم انتقلوا إلى ما يشبه الدراسة العليا بالجامع ، أما علوم التفسير والحديث واللغة والنحو والبلاغة فقد حظيت بجهود مباركة ولها أساتذتها المرموقون .

وقد يظنّ بعض الناس أن العلوم الفلسفية قد غبنت فى جامع القرويين ، لوجود الطابع النقلى فى كثير مما صدر من مؤلفات علمائه ، ولكن الواقع المدون هو أن كبار ذوى الثقافة العقلية من نبغاء الأندلس قد رحلوا إلى جامع القرويين وجعلوا يشرحون كتبهم الفلسفية دون تحرج ، وفيهم من تعمقوا فى الطب والرياضيات والفلك والصيدلة والنبات ، وهذه حقيقة أفاض فى تسجيلها المؤرخ المغربى الأستاذ عبد الله كنون الحسينى عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة فقال :

(ومنذ انضمام الأندلس إلى المغرب جعل الاحتكاك بأهل الجزيرة يفعل فعله فى توجيه الأنظار إلى الأخذ بأسباب العلوم الفلسفية ... فمن رسل الثقافة العلمية من أهل الأندلس للمغرب أبو بكر بن باجه الفيلسوف والعالم الطبيعى والرياضى المشهور ، وسنخصه بترجمة فى كتاب آخر ، وأبو العلاء بن زهر الطبيب البارع المدقق فى شتى الأمراض ، وابنه أبو مروان صاحب كتاب (التيسير فى المداواة والتدبير) ، وأبو بكر بن طفيل الفيلسوف الشهير ، وأبو الوليد بن رشد)[1] .

وقد ترك هؤلاء تلاميذ من أبناء المغرب يحذون حذوهم فى الفلسفة والطب والرياضيات ، منهم العلامة أبو الياسمين ، وابن البناء العدوى الرياضى ، وابن أبى الربيع ، وأبى القاسم الغول ، وابن حميدة ، وعبد الرحمن العيابى ، وعبد القادر ابن شقرون ، وكلهم من أفاضل المتعمقين فى هذا المجال .

وكانت الدراسة بالجامع لا تتقيد بوقت معين ، بل تبتدئ من الفجر حتى

(١) مجلة الرسالة — المجلد السادس — عدد ٢٦٨

غروب الشمس ، ولكل أستاذ حلقته العلمية وتلاميذه الذين يختارونه بإرادتهم ، وعيب هذه الطريقة أن بعض الطلاب يظل فى نطاق علوم خاصة اختار أساتذتها بنفسه دون أن يدرس سواها ، فربما تبحر فى علوم الفقه ، حين لا يزال محتاجاً إلى مبادئ النحو ، ولكن العالم لا يستقل بمكانته فى المسجد إلا إذا ألم بجوانب الثقافة الإسلامية من علوم لغة وعلوم لسان .

وقد ابتليت مساجد الإسلام فى عهود الاستعمار بمن يقومون حائلا دون أداء رسالتها ، وأصيب جامع القرويين بشر مستطير من الاستعمار الفرنسى ، بل إن ما واجه جامع القرويين من الكيد كان أقوى وأفدح ، إذ حرم الدخلاء على أبناء الجامع أى منصب ، كما رفضوا أن يمدوه بعون حكومى ، وقد عبر عن ذلك المسيو كوليبز مندوب الحماية الفرنسية فقال :

(عند إمضاء عقد الحماية وجدنا أنفسنا أمام حالة واقعة ، إذ وجدنا أمامنا بفاس جامعة القرويين التى زودت دول الإسلام الإفريقية طوال عشرة قرون بقادة الفكر ، كما وجدنا أيضاً فى الحواضر والبوادى عدداً كبيراً من الكتاتيب القرآنية يمدها السلطان أو الأوقاف بما تحتاج إليه ، نعم وجدنا أنفسنا أمام مجموعة زاهرة بديعة من المدارس كبرى وصغرى تعمل تحت ظل الأحياء الحضرية أو تحت الخيام ، لقد سلطت الحماية حربها على هذه المنظمات الثقافية المغربية فأغلقت عدداً كبيراً من هذه المدارس التى بقيت من آثار هذا التعليم القديم ، كما صبت عداءها المستمر على جامعة القرويين وفروعها فى مراكش ومكناس والرباط وطنجه ووجدة ، وعلى كل المؤدبين القرآنيين)(١) .

وكما خرج الاستعمار الانجليزى خائباً من بلاد الإسلام فقد خرج الاستعمار الفرنسى دون أن يقدر على تحطيم التعليم الإسلامى ، وظلت جامعة القرويين بفروعها فى الأقاليم مصدر إزعاج دائم للعدوان حتى برز من تلاميذها من تعاونوا على دحره ، فرجع للبلاد استقلالها الشريف .

ولا يزال جامع القرويين بالمغرب مصباح هداية ، وزميلا قوياً لمساجد التعليم فى عواصم الإسلام ، ورسالته العلمية مستمدة من وحى الله وقرآنه ، فلن يخبو لها مدى الحياة شعاع .

---

(١) مجلة الأزهر ، ص ٥٥٠ — المجلد ٣٢

عبد الله الهبطى الصوفى الداعية

كان علماء المغرب فى الأكثر العام لا يعكفون على جامع واحد يأخذون منه العلم ، ولكنهم يعدون المغرب كله بلداً واحداً ، حتى لتجد العالم الواحد منهم فى الزيتونة والمهدية والقيروان وفاس وغيرها ، لأن الكثير من علماء هذا الوطن كانوا متصوّفة ، ومن شأن الصوفى أن يزور مريديه فى شتى البلاد ، ومكانه الأول هو المسجد ، وقد اعترف مؤرخو أوربا بما كان للتصوف المغربى من أثر فى نشر الإسلام بالربوع الأفريقية ، إذ كان الصوفى من التيجانية أو القادرية أو الشاذلية أو السنوسية ، يؤم البلدة ليس معه أحد غير إيمانه ، فيقبل عليه الوثنيون ويستمعون إليه ، فيشرح لهم هدى الإسلام ويبنى مسجداً ، وتصبح القبيلة وقد شرح الله صدرها للدين الحنيف .

والعالم الصوفى الداعية عبدالله الهبطى أحد هؤلاء الذين رزقوا شفافية وإيماناً ، وقد درس الشريعة الإسلامية فى مصادرها وعلى أيدى خبرة علمائها ، ولد بطنجة ، ودرس بها المبادئ الأولى العلوم ، ثم قام بالرحلة إلى فاس ، فانتظم طالباً بجامع القرويين ، وكان ذكاؤه بارزاً على حداثة سنه ، إذ جذب أنظار أساتذته بما كان يوجه من سؤال ، أو يرد على جواب ، وحين انتهى من دراسة علوم الشريعة فى القرويين تاقت نفسه إلى التصوف العملى ، فاهتدى إلى شيخ يجمع بين العلم والذوق والشعر ، فشد من أزره ، وبشره أنه سيكون ذا شأن فى العلماء ورجال الحقيقة ، وكانت هذه البشارة قوة دافعة لعبد الله فارتحل بعد وفاة شيخه أبى عبد الله النازى إلى مجلس الشيخ الغزوانى ، وكان ممن جمع الفقه والتصوف ، فروى من حياضه ، وصادف عقبات كثيرة ، لأن المعارضة كانت على أشدها بين رجال التصوف وعلماء الفقه كما هو شائع فى كثير من الأزمنة والبلاد ، ولكن الشيخ الهبطى كان ذا عزيمة ، فقد صمم على أن يدعو القبائل لله ، ويقول عنه بعض مترجميه فى هذا الصدد :

(ومن جملة مساعى الشيخ لإنجاح دعوته أنه كان يتصل بأعيان كل قبيلة يصل إليها ، ويعقد معهم جلسات طويلة ، ويجمع الناس حوله ، فيسألهم عن قضايا الدين والدنيا معاً ، ويسألهم كيف يطبقون أركان الإسلام ، ويناقشهم فى الطهارة وأحكام الحيض والنفاس والعدة وما إلى ذلك ، ثم لا يغادر مكانه حتى يأخذ العهد من الأعيان والوجهاء على التزام الجادة وإقامة الصلاة فى أوقاتها ، وعدم استعمال الربا فى التجارة ! وكان لا يكتفى بالعهد الشفوى ، بل يكتب وثيقة خطية بالالتزام من نسختين ، يأخذ معه واحدة ، وتبقى الأخرى عند أعيان الجماعة)[1] .

هذا سلوك عملى جيد فى الإصلاح أتقنه الشيخ الهبطى إتقاناً مثمراً ، ومن خصائصه فى ذلك أنه كان يتوجه إلى المسجد مباشرة إذا نزل حياً أو ألم بمدينة ، ثم يجالس الناس ويسأل عن الأحوال ، فإذا وجد انتشار الخمر مثلا ، ركز على محاربتها ، ودعا إلى الله ، وجمع حوله فريقاً مخلصاً لأوامر الإسلام ونواهيه ، وما يزال يلح على ترك هذه المعصية ، حتى يؤلف رأياً عاماً يستنكر شرب الخمر وتجارتها ، ويعلن التوبة عنها ، ثم يدعو تجارها إلى الطاعة ويأمرهم بإراقة الشراب ، وما يترك البلدة إلا حين يتخلص من جريمة الإدمان ، وتنتهى حركته بنجاح .

وقد دعاه النجاح المبدئى إلى الاستمرار فى نهجه ، فشب الحرب على التبرج والاختلاط والمغالاة فى نفقات المآتم والأفراح ، وكان الوشم منتشراً فى قبائل المغاربة لدرجة تسبب التشويه ، فأخذ الهبطى يحارب هذا التقليد ، ويرى أن خلقة الله لا تشوّه بأساليب منكرة ليست جمالا ، بل تباعد عن الجمال ، وأخذ ينظم القصائد والأراجيز السهلة ، التى يسهل حفظها ، داعياً إلى ما يحب ، ومنفراً عما يكره ، ويأمر تلاميذه بحفظها وترديدها فى المساجد والمجتمعات العامة ، ليكون لها صداها المؤثر ، وكان لها رواتها الحافظون ، ونحن نعرف أن الذاكرة المغربية سريعة الحفظ والاختزان ، ولا نزال نرى بين المغاربة الآن من يحفظون كتب الصحاح بأسانيدها ! وهؤلاء أحفاد أولئك ، فراجت منظومات الهبطى رواجاً ذائعاً ، وأحدثت أثرها .

---

(١) مجلة دعوة الحق (جمادى الأولى ١٣٩٩) .

وفى أوائل حياته بدأ الاستعمار البرتغالى يزحف على البلاد ، حتى اضطرت قبائل كثيرة إلى الجلاء نازحة لأماكن نائية ، فرأى الهبطى أن يقوم بدوره فى محاربة الاستعمار ، فجعل يجمع الناس ويرسل الرسائل لمن يستكن إلى وعود البرتغاليين محذراً من خديعتهم الباغية ، وجعل هدفه الأول بعد أن انتصر على البدع والمآثم أن يوقظ الحفائظ ، ويدعو إلى الجهاد ، ويحذر من افتراق الشمل ، وكانت رسائله المتوالية تقرأ فى المساجد العامة ، وقد علل الغزو الاستعمارى للبلاد بكثرة ما يقترف فيها من المعاصى ، وبالبعد عن تعاليم الإسلام فى اتخاذ القوة وإعداد السلاح ، ومنابذة الأعداء بالعداء ، وتفشى المنكرات ، وكان التوحيد الخالص أهم ما وجه إليه الهبطى همته ، لأنه لمس عند الدجاجلة ما يباعد بين بعض العامة وعقيدة الإسلام الخالصة ، فتكونت من هؤلاء جماعة من الدساسين ، حاولوا الوقيعة به ؛ فتعرض لكثير من البلاء ؛ إذ سجن وعذب وشاهد ما يشاهده أولو العزم من الشدة ، فما وهن أو استكان ، ثم صلحت الأيام معه ، فرجع إلى عزه داعياً مرشداً .

وقد ألفت كتب كثيرة حول الهبطى ، فيها ما يشيد بآرائه وما ينكرها ! والمنكرون هم الذين لا يتجهون وجهته فى التوحيد ، لأن كثرة المؤلفات فى علم الكلام ، وتعدد الفرق الكلامية ، قد جعل لكل رأى مخالفاً ! ولا يعدم العلماء من حسدة العاملين أن يعارضوهم بما لا يتفقون فيه مع بعض الأراء المدونة ، ولكن الزبد يذهب جفاء ، وتبقى الحقائق الناصعة ! وأكبر عيب فى هذا اللجاج أنه يضع العامة فى حيرة ، لأن المؤمن الساذج لا يصبر على تناطح الآراء ، وتصادم الأدلة ، ولكنه يضطر إلى الإذعان لمن يجد عنده جلبة الصوت وضخامة الرنين ، وكثرة الأتباع ، وإن كان مرجوح الرأى غير راجحه ، وكم رأينا فى سجل الأيام من باطل رفع وحق وضع ، حتى ذهب الجيل المغرض ، وجاءت أجيال أخرى تناقش فى حياد ، وتنصف فى تؤدة فيتبدد الزيف ، ويحق الله الحق .

وقد أنشأ الهبطى معهداً علمياً خاصاً بالجبل الأشهب سماه (معهد المواهب) وجعله موزعاً بين دراسة الشريعة ودراسة علم الحقيقة ، حيث يبدأ الطالب بالفقه استيعاباً وتحصيلا مستنداً إلى كتاب الله والمأثور من الحديث ، ثم ينتقل إلى دراسة

الحقيقة فى صفائها الروحى دارسة تعتمد على المجاهدة والصبر ، وأنا أرى أن التصوف لن يكون بالتخرج من معهد أو مدرسة لأنه ليس أمراً جماعياً يتهيأ له كل إنسان ، ولكنه استعداد شخصى عند ذوى الأذواق ، فهو كالشعر مثلا : لا يستطع الإنسان أن يكون شاعراً لأنه حفظ دواوين الشعراء ، ولكنه يصبح شاعراً لما لديه من موهبة ينميها الحفظ والاجتهاد ، وقد عاش الشيخ الهبطى بين سنتى ١٤٨٥ — ١٥٥٥ حيث أدى رسالته الطيبة ، وترك الكتب الحافلة ، والتاريخ الطيب ، وما عند الله أوفى وأتم .

مسجد الزيتونة

لا يكاد يختلف مسجد الزيتونة بتونس عن جامع القرويين فى مشربه العلمى ، وسلوك طلابه وأساتذته ، وما يقرءون من علوم وفنون ، ويدرسون من متون وشروح وحواش وتقريرات .

وفى مجال القول عن نشأته يذكر المؤرخون أن حسان بن النعمان قد أقام المسجد بالزيتون فى عام ٨٤ هـ ، ولكنهم يستبعدون أن يكون هذا المسجد هو ما يعرف اليوم بمسجد الزيتونة ، لأن البكرى قد نص صراحة على أن جامع الزيتونة قد بنى على يدى عبيد الله بن الحباب سنة ١١٤ هـ ، فيكون بذلك أقدم من القرويين والأزهر والنجف ، ولكن النويرى يذكر أن المسجد قد بنى فى عهد بنى الأغلب ، إذ شرع أحمد بن محمد بن الأغلب فى بنائه سنة ٢٤٨ هـ ، وعرف حينئذ باسم الزيتونة وبالنظر إلى هذه الأقوال المتضاربة نرى أن حسان بن النعمان ، وعبيد الله بن الحباب ، وأحمد بن الأغلب قد بنوا مساجد بتونس ! ولكنهم ، أى الثلاثة ، قد كتب له أن يكون جامع الزيتونة ؟ لا نجد إجابة محددة ، ولذلك ذهب الثلاثة جميعاً بفضل الإنشاء دون ترجيح لواحد معين !

غير أن الثابت أن مسجد الزيتونة قد اشتهر رسمياً بطلابه وعلمائه منذ عهد السلطان يحيى بن زكريا سنة ٦٧٦ هـ ، إذ كانت مجالس العلم قبل ذلك العهد اختيارية ، لا تدل على التزام معين بأستاذ محدد ، وطلاب يألفون ويعكفون على درسه فى مادة معينة .

وإذا كان العلماء يرحلون ويعودون مشرقاً ومغرباً ، فإن نظم الدارسة بالمساجد كانت متقاربة ، ونحن نعلم أن أول صوت للإصلاح الدينى فى تونس كان على يد المصلح العالم الوزير خير الدين التونسى . وقد وقف طويلا عند الحركة التعليمية بمسجد الزيتونة ، وحاول إصلاحها وفقاً لما يتشربه من مبادئ الإصلاح .

يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) متحدثاً عن الحركة العلمية بتونس[١] :

(وعلى رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة ، وهو صورة مصغرة من الأزهر فى ذلك العهد ، تقرأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وعقائد ، وعلوم اللغة من نحو وصرف وبيان ، وفى كتب مقررة لها متون وشروح وحواش ، ويقضى الوقت فى تفهم تعبيراتهم وإيراد الاعتراضات عنها ، والإجابة عليها ، فالعلم شكل علم لا علم ، والناجح فى الامتحان الذى يستحق أن يسمى (عالما) أقدرهم على الجدل ، وحفظ المصطلحات الشكلية ، أما الجميع فسواء فى عدم التحصيل ، إذا مسوا الحياة الخارجية فالمناقشة عنيفة ، فى أن شرب الدخان حلال أو حرام ، والغيبة أشد حرمة أم سماع الآلات الموسيقية ، وخيال الظل تجوز رؤيته أو لا تجوز) .

وقد أمر خير الدين بإصلاح الدراسة بالزيتونة ، وألف لجنة برياسته تضم كبار العلماء ، ومن كان يعرف فى هذا الزمن بوزير القلم ، وترك لكل عضو أن يرسم خطة وفق تصوره ، ثم يعرضها على اللجنة لتختار ما يروقها من اقتراحاته ، وما زالت تعقد اجتماعاتها حتى صدر قانون الإصلاح سنة ١٣٩٢ هـ ، فعين للمسجد نائبان عن الدولة يرقبان تطبيق القانون ، وعين نائب ثالث عن مستشار المعارف ، وكان العلامة الشيخ عمر بن الشيخ أحد أعضاء اللجنة ، ثم اختير مهيمناً عاماً على تنفيذ قانون الإصلاح ، فانتقلت الدراسة بالزيتونة من عمل ارتجالى إلى برنامج منهجى قدر المستطاع .

وقد عثرت على مقال جيد للأستاذ محمد الخضر حسين يتحدث فيه عن أستاذه عمر الشيخ ، وعن دروسه بمسجد الزيتونة ، فرأيت أن آخذ منه الطابع العام للدراسة العلمية فى الزيتونة بعد صدور القانون ، لأن العلامة الأستاذ عمر الشيخ كان عضواً بارزاً فى اللجنة ، ثم مهيمناً عاماً على الدراسة ، وطبيعى أن ينحو فى

---

(١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ١٤٨

دروسه المنحى الذى يشير به القانون الإصلاحى ، وهو ما وضحه تلميذه الأستاذ محمد الخضر حسين حين قال(١) :

(درس الأستاذ كتباً عالية فى علوم شتى ، تدريس بحث وتحقيق ، منها : الشرح المطوّل على متن التلخيص ، وشرح الأشمونى على الخلاصة ، وكتاب مغنى اللبيب ، وشرح المحلى على جمع الجوامع ، وشرح السعد على العقائد النسفية ، وشرح الزرقانى على المختصر الخليلى ، ودرس كتاب المواقف بشرح السيد ، ولم يكن من الكتب التى تدرس لذلك العهد .

أما أسلوب الأستاذ فى التعليم فمن أنفع الطرق ، كان يقرر عبارة المتن ، ويبسطها حتى يتضح المراد منها ، ثم يأخذ فى سرد عبارات الشرح ، وما تمس الحاجة إليه من الحواشى والكتب التى بحثت الموضوع لا سيما الكتب التى استمد منها شارح الكتاب ، ويتبعها بالبيان جملة جملة ، ولا يغادر عويصة ، أو عقدة ، إلا فتح مغلقها ، وأوضح مجملها ، بحيث يتعلم الطالب من درسه كيف يلتقط جواهر المعانى من أقوال المؤلفين زيادة عما يستفيده من العلم ، فالأستاذ لم يأخذ فى درسه بطريقة الإملاء ، كما يصنع كثير من كبراء الأساتذة إلا أن له مزية التحقيق والكشف عن أسرارها بوجه يدلك عما له من سعة العارضة ، والغوص فى أعماق الباحث إلى أبعد غاية) .

ويظهر من كلام الأستاذ الخضر أن هناك طريقتين للشيوخ فى التدريس ، طريقة الإملاء وهى أسهل الطرق ، لأن المدرس يقرأ المتن ويملى خلاصة ما جمعه حوله من الشروح والحواشى والتقريرات ، وطريقة الشرح المطلق ، حين يقرأ الأستاذ النص والعبارة ، ويتولى شرحها وإخراج المحترزات وتوجيه ما قد يوجد من اعتراض مع محاولة الرد الموجه ، ومهما يكن من شىء فكلتا الطريقتين فى حاجة إلى استكمال .

وقد زار الأستاذ الإمام محمد عبده مسجد الزيتونة ، وألقى فيه درساً رائعاً ينقد طريقة التدريس ، ومواد العلوم السائدة فى عصره ، وسنخص كلام الإمام بتحليل كاشف فى غير هذا الكتاب .

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية (جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ) ، ص ٧٣٨

محمد الخضر حسين

(درس الأستاذ الأكبر فى مسجد الزيتونة ونال أرقى شهاداته ، ثم رحل إلى مصر فتدرج فى المناصب الدينية العلمية حتى صار شيخ الأزهر ، وهو أكبر منصب دينى فى البلاد ، وإذا كان الإمام المناضل مفخرة من مفاخر الزيتونة فإننا نتخذه مثالا رائعاً لمن أنجبهم هذا المعهد الجليل ، وسنلخص بعض ما كتبناه عن حياته فى الجزء الأول من كتاب النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين)[1].

ولد الأستاذ فى قرية من قرى الجزائر على حدود القطر التونسى ، وفى أسرة تعتز بعراقة النسب وتفخر بمن أنجبت من العلماء والأدباء ، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره التحق بجامع الزيتونة طالباً ، وأكب على التحصيل والفهم حتى نال الشهادة العالمية عن جدارة ، وتهيأ للإفادة كاتباً ومدرساً وقاضياً .

كان الشيخ الخضر علماً بارزاً بين أقرانه ، وقد لمس ما حوله من اضطهاد استعمارى للدين ، وابتزاز لخير البلاد ، فأنشأ مجلة (السعادة العظمى) لتنبه الأذهان إلى خطر الاحتلال ، وتكشف عن تخلف المسلمين فى عهدهم الراهن فى مجتمع يقول الأستاذ أحمد أمين[2] فى وصفه :

(جزء كبير من السكان بدو لا يعرفون من الإسلام غير الشهادتين ، ولا يصل إليهم شىء من علم إلا فى بعض أماكن أنشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئاً من الدين ، وللجاليات الأجنبية ، من فرنسية ، وإيطالية ، وإنجليزية ، مدارس تعلم أبناءها وقليلا من أبناء البلاد اللغات والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة ، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة ، فإذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد إلى أيديهم ، وأما إدارة البلاد ففوضى لأن الحاكم حاكم بأمره) .

---

(١) من ص ٦٤ — ٨٧ نشر مجمع البحوث بالأزهر .

(٢) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ١٤٩

لم يقنع الأستاذ محمد الخضر حسين بما أسند إليه من الوظائف المرموقة بتونس ، وهى وظائف تضمن العيش الرغيد ، وتوفر أعباء السعى ، إذ رأى الأجنبى يحاول أن يطمس روح الإسلام فى تونس ، كما يرغب فى نبذ اللغة العربية واستبدال العامية بها ! ! والناس نائمون لا يكادون يستيقظون ! لذلك أنشأ الشاب الناهض مجلة (السعادة العظمى) لتفضح أساليب الدخلاء ، وكان ذا مذهب سياسى واضح ، فهو يعتقد أن فساد الأمم الإسلامية يرجع فى أصح أسبابه إلى انصراف المسلمين عن هدى الشريعة الإسلامية ، كما يرى أن السيطرة الأوربية لم تملك زمام الأمور فى الشرق إلا حين اعتصمت بالعلم ، واستضاءت بالعقل ، وأن الشلل الفكرى لم تتركز أصوله فى الشرق إلا حين استطاع المستعمرون أن يشوهوا وجه الإسلام بما حاكوا حوله من الأراجيف !

كانت مهمة المجلة خطيرة حقاً ، وكان أثرها رائعاً ، إذ أزعجت السلطات الفرنسية ، فقدمت الأستاذ الخضر إلى المحاكمة ، وأصدر القضاء الظالم حكمه بإعدامه ، حتى اضطر إلى الفرار إلى الآستانة ، واهماً أن مجال الإصلاح بها أوسع ، ولكنه وجد عاصمة الخلافة تموج بالفتن والدسائس ، فولى وجهه إلى دمشق ليقوم بتدريس علوم العربية فى المدرسة السلطانية ، ولينشر ما يستطيع نشره من مبادئ الحرية ، ثم سافر إلى ألمانيا واتصل بأعلام الإسلام من محاربى الاستعمار ، مثل محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعبد الحميد سعيد ، فأخذوا يتدارسون وسائل الإنقاذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فأزعجه انتصار فرنسا فى الحرب العالمية الأولى ! لأن أعوانها فى تونس يتربصون به الدوائر ، وينتهزون الفرص المواتية لاعتقاله كى ينفذ فيه حكم الإعدام ! ولكن الله شاء للرجل المناضل أن يستقر فى مصر ، وأن تحتضنه هذه البلاد الكريمة مرحبة مهنته ، وقد وقف المسئولون على نضاله الباسل ، فأنزلوه أكرم منزل بين المجاهدين .

وما كاد الأستاذ يجد نفسه فى مصر حتى عين بدار الكتب المصرية ، وامتدت صلاته بأحرار الأمة ونبغائها ، فعرفوا مكانه ، وعين أستاذاً بكلية أصول الدين بالأزهر وعضواً بمجمع اللغة العربية ورئيساً لتحرير مجلة نور الإسلام ! ثم واصل جهاده آمناً فأنشأ جماعة الهداية الإسلامية ورأس تحرير مجلتها ، وانتشر

صيته الأدبي حين نقض كتاب (الشعر الجاهلي) وكتاب (الإسلام وأصول الحكم) قال كلمة الحق الساطعة فيما انتشر من ضباب ، وبذلك عد قلمه من أقوى الأقلام فى سجل النقد الهادف ، والبحث الأمين .

لقد كان علم الأستاذ طريقه إلى الأستاذية بجامعة الأزهر وإلى المجمع اللغوى بين صفوة الباحثين من كبار الأساتذة ، وله فى ساحات المجمع وفى صفحات مجلته آراء علمية أخذت مجال النقاش بين المحافظين والمجددين ، فكان صوته مسموعاً رناناً مع أصوات حسين والى وأحمد الإسكندرى وعلى الجارم وعبد القادر المغربى ومحمد رضا الشبيبى وحسن حسنى عبد الوهاب من أئمة البحث العلمى ، وذوى الإخلاص الأدبى ، وقد اشترك فى معارك لاقت حسمها الظافر على يده ، وله فى مسائل الاشتقاق والتعريف وجموع التكسير والفصيح والدخيل صولات ترجو أن تجد من يكب على دراستها ليحدد منحاها الفكرى على وجه وضيء .

أما مشيخته الكبرى للأزهر الشريف فقد كانت دليلا على أن الله عز وجل لا يتخلى عن رجاله المناضلين ، إذ يأبى عدله الرحيم أن يترك هذه الجهود المضنية فى السياسة والدين والتشريع والنقد تضيع بدداً دون تقدير ! فجاء اختيار الخضر دليلا على وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وأحدث تعيينه فى منصبه الكبير فرحة هائلة بين أهل العلم ، ورأى الأزهر لعهده حلقة ذهبية فى سلسلة حلقاته التى تضم : المراغى ومصطفى عبد الرازق وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت وعبد الرحمن تاج من ذوى الفضل المشهود ، والمكان المحمود ، وطفق الزائرون يتقاطرون على مكتبه سائلين عن مشكلات العلم ومعضلات الحياة ، فيرون الرد الشافى ، والحجة البالغة ، وما زال الرجل موضع التقدير حتى انتقل إلى جوار ربه ، فسعد بثواب ما أسلف من كفاح ! والعاقبة للمتقين !

جوامع النجف الأشرف

ونقول جوامع لأن الجامع قد أخذ يربو ويمتد ، وألحقت به المدارس على هيئته ، وتعددت بتوالى الزمن ، وهو الآن فى الاصطلاح الحديث (جامعة النجف الأشرف) .

وقد بدأ تأسيس جامع النجف فى القرن الثانى من الهجرة ، إذ عثر على قبر الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى عهد هارون الرشيد ، فأمر بإنشاء مسجد له جعل يجذب المسلمين إلى زيارته ، وفيهم من طابت له الإقامة بجواره ، والتدريس فى صحنه ، وهكذا أصبح نواة لجامعة علمية ذات طلاب وأساتيذ .

وقد ظلت الدروس بالمسجد اختيارية وعلى أبعاد لا تحدد بزمن خاص ، حتى منتصف القرن الخامس الهجرى حين وفد من بغداد الشيخ أبو جعفر محمد ابن الحسن الطوسى ، العالم المتبحر ذو التآليف الكثيرة ، والموسوعات الضافية ، فاختار جامع النجف مقاماً لراحته ، ومدرسة لطلابه ، وجذب إليه الطلاب من كل صوب ، حتى أنشأ علماء كباراً جلسوا مجلسه من بعده وواصلوا درسه ، فاتصلت حلقات التدريس عاماً بعد عام ، واضطر المريدون من رجال المذهب الشيعى أن يوسعوا من مساحة الجامع حتى اكتمل عمرانه فى القرن الثالث عشر من الهجرة .

ونبغ من أساتذته العالمان الكبيران السيد محمد مهدى بحر العلوم ، والشيخ جعفر كاشف الغطاء ، وكان لهما من النفوذ الروحى ما عجل ببناء المدارس والمساكن فى رحاب الجامع ومن حوله حتى كاد يصبح مدينة .

يقول الأستاذ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه بالنجف الأشرف من مقال نشره تحت عنوان (جامعة النجف الأشرف) :

« ومن هذا العهد الأخير كثرت البنايات لسكنى الطلاب المهاجرين إليها من مختلف البلاد النائية ، التى تسمى بالمدارس ، وهى أشبه ما تكون بالأقسام الداخلية ، ويبلغ الموجود منها قرابة ثلاثين مدرسة ما بين كبيرة وصغيرة ، بعد أن كانت بناية صحن الحرم العلوى هى المأوى الكبير لهم من أبعد العهود ، وفى النجف اليوم (سنة ١٣٨٠ هـ) حوالى خمسة آلاف طالب من مختلف الأقطار الإسلامية ، وتقوم المرجعية العامة بتعيين جرايات شهرية لكل طالب ، وتعتمد فى مواردها المالية على الحقوق الشرعية التى يدفعها المؤمنون فى مختلف الأقطار ، وليس للمرجعية أى مورد حكومى ، ولا علاقة لها بالحكومات على اختلافها فى شئونها الخاصة والعامة مادية وغيرها »[1] .

والدراسة بالنجف الأشرف بعد تنظيمه تنتظم ثلاث مراحل ، تعرف المرحلة الأولى بمرحلة (المقدمات) وفيها يدرس الطالب علوم النحو والصرف والبلاغة والمنطق فى كتبها الذائعة فى الأزهر الشريف مثل : شروح ألفية ابن مالك ، وشرح قطر الندى لابن هشام ، والشمسية فى المنطق ، وللطالب الحرية فى هذه المرحلة فى اختيار الكتاب الذى يدرسه ، والعالم الذى يجلس إليه ، وله حرية النقاش والنقد ، وعلى المدرس أن يكون واسع الصدر ، مرحباً بكل حوار ، وقد تنضم إلى دروس هذه المرحلة حصص للعروض والقافية وعلم الكلام والعلوم الرياضية وفق رغبة الطالب وبقدر استعداده .

أما المرحلة الثانية فتعرف بمرحلة (السطوح) ولعل المقصود بها مرحلة الدراسة المستوعبة دون تغلغل فى الدقائق ، إذ يلم الطلاب بالكتب الاستدلالية فى علم الفقه ، والحكمة والفلسفة الإلهية ، والتفسير والحديث وعلم الرجال ! وقد رأى المشرفون على التعليم بالجامع أن هذه المرحلة فى حاجة إلى دقة تنظيم ، وجدية استماع وتفهيم ، فرأوا أن تتحول إلى كلية تسمى (كلية الفقه) تكون كغيرها من الكليات العلمية ذات مناهج وامتحانات ودرجات ، مع إضافة ما يسمى بالعلوم الحديثة ، مثل التربية وعلم النفس والفقه المقارن .

---

(١) مجلة الأزهر ، ص ٦٠٤ من المجلد الثانى والثلاثين سنة ١٣٨٠ هـ .

وتأتى المرحلة الثالثة وهى تعادل مرحلة الدراسات العليا فى الجامعات المعاصرة ، حيث يحضر الطلاب دروس الكبار من أئمة المجتهدين فى الفقه والأصول ، ولها دورات متعاقبة على شكل جماعى ليكون النقاش بمحضر الكثير من العدد ،ولا يكون العالم فقيهاً متمكناً إلا إذا كان مبرزاً فى هذه المرحلة الدقيقة وإلا إذا نال درجتها العلمية بتفوق مشهود .

ومكتبات الجامع كثيرة ، منها : المكاتب العامة التى لا تنسب إلى غير المسجد ، ومنها المكاتب التى أهداها كبار الباحثين كمكتبة آل كاشف الغطاء .

ومن الملاحظ أن الدراسة فى جامع النجف بلغتين اثنتين هما : اللغة العربية ، واللغة الفارسية ، لأن أبناء الشيعة فى إيران وأفغان والهند وباكستان يفدون إلى النجف دون أن يعرفوا غير الفارسية ، وفيهم من يحذق العربية تعليماً ودرساً حتى يصير كأحد أبنائها ، وتمده قراءة القرآن بذخيرة وفيرة من البلاغة العالية ، وفيهم من يقتصر على الفارسية وحدها ، ولطلابها بالنجف كتاب يسمى (جامع المقدمات) ، وبمراجعة ما يدرس فى النجف نرى أن كتب الحواشى لا تزال تسيطر على جوّه ، فشروح التفتازانى والجرجانى البلاغية ، وشروح الألفية النحوية ، وشروح كتاب الإشارات لابن سينا ، والتجريد للحلى ، كل ذلك مما يدرس بالجامع ، وذلك لا يمنع الاطلاع على المؤلفات الحديثة لكبار المعاصرين ، والاهتمام بما يحمل الثمر المستطاب .

ولطلاب النجف ولع بالشعر العربى يستظهرون أكثر قصائده ، وقد برز منهم شعراء يملأون ساحة العراق شعراً رائعاً ، وفيهم من تجاوز الرافدين إلى شتى بقاع العربية كالشبيبى والدجيلى والحبوبى والحلى ، وإذا كان المحرم واحتفل القوم بذكرى الحسين ، فإن قصائد الرثاء الحارة ترن فى النجف الأشرف رنين النصال فى الأكباد لشدة تأثيرها ، ولذع حرارتها ، ولو قدر لها أن تجمع فى مجلدات لكانت موضع الدهش والإعجاب ، وأكثر هذه القصائد مما ينحو منحى الفحول ، ويذكر بمراثى الكميت والشريف الرضى ومهيار ، وكلهم من شعراء الشيعة الكبار ذوى البيان المجلجل ، والصدى الرنان .

محمد رضا الشبيبى

اخترت العلامة الشاعر المكين الشيخ محمد رضا الشبيبى ليكون ممثلا للنجف الأشرف ؛ لأن اختيار شاعر كبير ، جهير المكانة ، رنان الاسم ، يدل على أن التبحر فى علوم الشريعة واللغة لا يمنع صاحبه من التحليق فى عوالم الخيال ، والاستجابة إلى هواتف العاطفة ، والتمتع بالحاسة الموسيقية ذات الإيحاء الصادح ، وقد كان الشبيبى زميلا للزهاوى والرصافى فى زعامة الشعر بوادى الرافدين ، ولكنه نأى عن شططهما الفكرى ، فلم يجنح إلى سفسطة ذات شطط ، ولم يسرف فى ادعاء الرقى بمحاربة مارسخت جذوره من تقاليد التصوّن والاحتشام ، كما أنه لم يكن شاعر المناسبة الطارئة ، يقول فى كل حادثة تشغل الذهن ، ولكنه يعرف للشعر سبحاته العالية وآفاقه البعيدة ، كما أنه رزق تعمقاً ضليعاً أورث شعره دسامة وغوراً ، فأنت معه أمام شاعر مفكر ذى أبعاد وأغوار ، وحسبه أنه كان يغنى أولا لنفسه ، يغنى لينفس عن شعور يتملكه ، ولا يعنيه إن كان هذا الشعور صدى للناس ، فهو شائع مشترك ، أو خاصاً به ، فهو أحد مميزاته المتفردة ، وكنت أود أن أفيض فى مثل هذه المعانى كما يسمح امتدادها المنبسط ، ولكن المقام مقام تعريف وإلماع .

تربى الأستاذ فى مسجد النجف الأشرف ، وتملأ من علومه ، وقاد حركة الإصلاح الدينى فى هذا الجامع الكبير ، وطارت له شهرة فى الإصلاح الهادف ، وآراء قوية فى سياسة الوطن ، فتهادته المناصب الرفيعة ، إذ كان وزيراً للدولة خمس مرات ، ورئيساً لمجلس الأعيان ، ورئيساً لمجلس النواب ، ومشاركاً لسناً فى كل معارك الإصلاح ، ولم تمنعه زعامته السياسية أن يكون علماً من أعلام الفكر ، يكتب البحوث العلمية العويصة ، ويؤلف الكتب الأدبية الرصينة ، وينظم القصائد العالية الدقيقة ، ويرأس مجمع اللغة العربية فى بلده ، ويشارك فى المجامع الأخرى بمصر وسوريا ، ولجهاده الحافل الآهل فى سبيل اللغة والدين والأدب كرمته

جامعة القاهرة ، فمنحته الدكتوراه الفخرية فى الأدب والتاريخ ، وأقامت له عواصم البلاد العربية حفلات التكريم .

يقول الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات مشيراً إلى نشأته الزاهرة :

(كان جدّه شبيب الذى ينسب إليه من أعلام الفقهاء المحدثين فى عصره ، وقد ورّث بنيه الميل إلى علوم الدين وما يعين عليها من وسائل ، فتهيأ محمد رضا لتلقى الأمانة بحفظ القرآن ، وتعلم الخط على مقرئة صالحة ، ثم طلب علوم اللسان والعقل على طائفة من خيرة العلماء العرب والفرس ، وكان ميله الغالب إلى علوم المنطق والفلسفة والأدب ، فقرأ فيها أمهات الكتب ، وجمع منها نوادر المخطوطات ، وكان منهج للتعليم فى النجف على النمط القديم، يلازم الطالب أستاذاً بعينه ، فى علم بعينه ، حتى يخرّجه فيه ، ويجيزه به ، إلا أن هناك مجالس كانت تعقد فى أروقة النجف يغشاها كثير من الطلاب ليستمعوا إلى محاضرات فى الفقه والأصول يلقيها أئمة العصر كمجلس الأصول للملا كاظم الخراسانى ، ومجلس الفقه لفتح الله شيخ الشريعة .

وكان من بين هؤلاء فقيدنا الشيخ الشبيبى ، فلما استحار شبابه ، وبرزت شخصيته تحركت فى نفسه نوازع القيادة الأصيلة فى بيوت العلم بالنجف ، وعلماء الشيعة فى العراق وإيران ، ظلوا فى جميع العهود قوّامين على الناس ، لا يتحرك متحرك ، ولا يسكن ساكن ، إلا بإشارة من مجتهد ، أو مقالة من عالم ، لأن وراثة الأئمة الإثنى عشر كانت فيهم ، وجباية الصدقات كانت بين أيديهم . ومن هنا نشأت لهم فى المجتمع الشيعى أرستقراطية طبقية ، وزعامة قومية كان لها فى أقاليم الفرات الأثر الفعال فى كل ثورة)(١) .

وقد ترك العلامة الباحث النجفى مؤلفات شهيرة منها : تاريخ الفلسفة منذ أقدم عصورها ، وأدب النظر فى المناظرة ، وفلاسفة اليهود فى الإسلام ، وتذكرة ما عثر عليه من الكتب النادرة ، والمسألة العراقية ، وتاريخ النجف ، والمأنوس من لغة القاموس ، ومؤرخ العراق ابن الفوطى ، وأدب المغاربة الأندلسيين فى أصوله المصرية ، وتراثنا الفسلفى ! هذه هى الكتب ، أما البحوث الجيدة التى

(١) مجلة مجمع اللغة العربية — الجزء الثانى والعشرون ، ص ١٩٠

نشر بعضها فى المجلات ، وألقى بعضها الآخر فى مؤتمرات المجامع اللغوية وأندية الأدب ، فيضيق المجال عن سردها ، وهى تدل على ثقافة واسعة ، وعقل نفاذ ، وعكوف على العمل الجاد بعيداً عن الصخب والضوضاء، وكان للشبيبي صبر ملح على البحث حتى ليعنى نفسه الليالى ذوات العدد ليتأكد من نسبة رأى إلى صاحبه، حتى لا يسجله منسوباً إليـه دون احتياط تام ، وله فى ذلك موازنات صامته فى ترجيح رواية على رواية، وتزكية مؤرخ على مؤرخ ، مما هو ديدن الأئمة الأثبات .

ونترك شعره الفلسفى والسياسى إلى باقة ناضرة من شعره الاجتماعى الذى يصوّر خلقاً عاماً فى الناس ، ويرسم عيباً أليماً يحتاج المفكرون إلى التنبيه إليه لينأى عنه ذوو الهمة من الفضلاء ، وذلك حيث قال :

فتنة النـاس وقيت الفتنـا ... باطل الحمد ومكذوب الثنا
ربّ جهم حـوّلاه قمراً ... وقبيـح صـيراه حسنا
أيها المصلح من أخـلاقنـا ... أيها المصلح ، الداء هنـا
كلنـا يطلب ما ليس لـه ... كلنـا يطلبـه حتى أنـا
ربمـا تعجبنـا مخضـرّة ... أربع فى الأصل كانت دمنا
لم تزل ويحـك يا عصر أفق ... عصر ألفـاظ كبـار وكنى
حكم النـاس على الناس بما ... سمعـوا عنهم وغضوا الأعينا
فاستحالت ـ وأنا من بعضهم ـ ... أذنى عيناً ، وعيـنى أذنـا
أخطـأ الحق فريـق يائس ... لم يلومونا ، ولامـوا الزمنـا
إننـا نجـنى عـلى أنفسنا ... حين نجنى ، ثم ندعو من جنى
خسرت صفقتـكم فى معشر ... شروا المـال وباعوا الوطنـا
أو عصوه ، ولو ابتاعوا بـه ... هـذه الدنيا ، لقلت ثمنا !
يا عبيـد المال ، خير منكمو ... جهـلاء يعبـدون الوثنـا
إننى ذاك العـراقى الـذى ... ذكـر الشام وناجى اليمنا
إننى أعتـد نجداً روضتى ... وأرى جنـة عـدنى عـدنا

هذا هو محمد رضا الشبيبى تلميذ النجف الأشرف صغيراً ، وأحـد أعلامه العظام كبيراً ، نوجز الحديث عنه لنحفظ له مكانته ، ولندل عليه من يريد أن يترسم سلوك النابهين ...

الجامع الأزهر

تاريخ الأزهر فى حاجة إلى كتاب برأسه ، بل إن كل ناحية من نواحيه العلمية والسياسية والإرشادية والاجتماعية فى حاجة إلى كتاب خاص ، ولابد أن يتفرغ جماعة من الباحثين لكتابة علمية تضىء شتى هذه الجوانب ، بمناسبة الاحتفال بعيده الألفى ، ونحن هنا سنتحدث عنه بالقدر الذى لا يخرج عن الطابع العام لهذا الكتاب .

أنشىء الجامع الأزهر فى العهد الفاطمى ليكون رمز التوجيه الدينى والسياسى للدولة الجديدة ، لأن الفاطميين ذوو مذهب دينى لا تعرفه البلاد ، ولابد أن يقوم بنشره فئة ممتازة من الدعاة ، ولابد أن يكون المسجد منارة هذا المذهب ، وإذا كانت الدولة الفاطمية تعتز بنسبتها إلى السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها فقد اشتق اسم الأزهر من مادتها ليكون واضح الدلالة فى انتمائه إلى دوحة رسول الله .

وقد أنشأه جوهر الصقلى بأمر من المعز لدين الله ، ثم أضاف إليه الحاكم بأمر الله عدة أبنية زادت من اتساعه وجلاله ، ولئن عطل فى عهد الدولة الأيوبية ، فإن عناية الله أدركته فى عهد سلاطين المماليك ، فحمل لواء الثقافة الإسلامية حين لم تجد لها ملجأ غيره ، لأن سقوط بغداد شرقاً ، وضياع الأندلس غرباً قد جعل القاهرة مصباً للعلماء من الشرق والغرب ، فاتخذوا الأزهر موئلا يرعاهم سقفه ، ويطعمهم ماله ، ويطمئنهم أمنه ، وانتشرت الموسوعات الثقافية فى العصر المملوكى على أيدى العلماء من كبار الأزهريين لتكون تعويضاً عما فقد من الكتب حين داهم التتار بغداد ، فأغرقوا مكتبتها فى الفرات ودجلة ، وحين سلط الحريق على مكاتب غرناطة وقرطبة فأصبحت أثراً بعد عين ، ولكن الأزهر قد استدرك وأعان ، فكان أجمل عوض عما ضاع .

كان الأزهر كعبة الفاطميين الدينية ، إذ هو مكان الصلاة والدرس والاحتفاء بالمواسم والأعياد ، وكان منبره الأصيل مذياع الخليفة يتسنمه هادياً ، ومبشراً ومنذراً ، وحين عزمت الدولة على أن يكون الأزهر جامعة كبرى للتعليم ، بدأ الدرس به أبو حنيفة النعمان القيروانى قاضى المعز لدين الله ، فأخذ يقرأ بعض مصنفاته على العلية من الناس ، ثم شاركه فى الأستاذية يعقوب ابن كلس الوزير الفاطمى ، ولكنه لم يشأ أن يجعل الدروس مقصورة على القاضى والوزير ، بل بدأ بالخطوة العملية التى حددت رسالة الأزهر الجامعية ، فبعد أن كان يتخذ من رمضان موسماً لإلقاء دروسه التى يحضرها كبار الفقهاء والقضاة استأذن العزيز فى تعيين جماعة من المدرسين للتعليم بالأزهر فأوجد حلقات متنوعة لدراسة الدين واللغة والنحو والمنطق والقراءات والفلك ، وأصبح الأزهر ، على يد ابن كلس ، كلية ذات مواد وأساتذة وطلاب ، وإذا كان يعقوب بن كلس هو أول من وضع الحجر التعليمى للطلاب بتعيين المدرسين وتحضير المناهج ، فإننا سنكشف بعض جهده فى حديث خاص ، إذ أن ألسنة النقد تناولته رجماً بالغيب ، ولا أقل من أن نرفع عنه ما لحقه من ظلم ، وهو صاحب الفكرة الثقافية وبادئ الخطوات الفكرية الأولى فى تاريخ الأزهر المجيد .

كانت الدراسة بالأزهر للعهد الفاطمى خاصة وعامة ، خاصة لمن التحق من الطلاب ، وعامة لمن يريد الثقافة من الجمهور ، فللأولين أمكنتهم وأزمنتهم وأساتذتهم فى تحديد لا يقبل اللبس ، وللآخرين حلقات عامة يؤمها من يرغب الاستماع دون حرص على الاستمرار ، ومن أطرف ما يسجل أن النساء كانت ذات حلقات تعليمية فى الأزهر الفاطمى ، ومعنى ذلك أن تعليم البنات كان هدفاً من أهداف الأزهر منذ إنشائه ، فليست كليات البنات الإسلامية بالأزهر اليوم شيئاً جديداً ولكنها ذات سلف بعيد .

وإذا ترك الأزهر مهملا فى العصر الأيوبى فإن العهد المملوكى قد رد إلى الجامع العريق اعتباره على يد الظاهر بيبرس حين أمر بإعادة الخطبة ، وتهيئة الطلاب والمدرسين ، فوقف الأموال وأنشأ الأروقة والعمارات ، ومنح الطلبة هبات شهرية مجزية ، ولم يقتصر التدريس على علوم الشريعة واللغة ، بل وجدت حلقات

للفلسفة والرياضيات وعلوم الطبيعة ، وأكثر مؤلفى العصر المملوكى من علماء الأزهر ، وكثير من الطلاب قد وفدوا من خارج مصر ، فاتسع لهم صدر الأزهر الرحيب .

وكأن الله عز وجل قد جعل النحس والسعد متعاقبين ، إذ أن العهد المملوكى قد كان يمناً وبركة على الأزهر والإسلام ، فأعقبه العهد العثمانى ليكف الحاكمون أيديهم عن كل خير يتاح للأزهر ، ولكن المصريين عملوا على استمرار التدريس بهذا المعهد ، فكان المدرسون والطلاب يملأون الحلقات حسبة لوجه الله دون انتظار معونة ما من الدولة ، وإذا كانت التركية هى لسان الحاكمين وأداة القانون ولغة المراسيم ، فإن الأزهر قد تكفل بصيانة العربية ، والحفاظ عليها ، ولولا ثباته فى هذا الليل المدلهم لضاع التراث الإسلامى بنصه العربى ، فليحفظ التاريخ للأزهر جهده الباسل فى سبيل العربية حين فقدت النصير .

وجاءت الحملة الفرنسية ، فكان الأزهر بعلمائه وطلابه موضع المقاومة للاحتلال ، وعلقت المشانق لتغتال من كبار علمائه من حفظ التاريخ أسماءهم غير ناس ، وفى عصر محمد على وما تلاه بدأ الأزهر يأخذ دوره العلمى ، ويشرئب لإصلاح تلاحقت ومضاته خفوتاً وإشراقاً ، حتى استطاع الأستاذ الإمام محمد عبده أن يجهر بدعوة الإصلاح ، فتألف مجلس أعلى للأزهر ، ووضع قانون لمواد الدراسة ، ودرجات العلماء ، ورواتبهم ، ولأعمال الامتحان ، ثم ألحق بالأزهر معاهد التعليم فى مساجد دمياط ودسوق وطنطا والإسكندرية .

وهكذا تفرعت السبل بالأزهر ، فأصبح نهراً ذا روافد دافقة ، وأخذ يتطلع إلى نظام مستتب رشيد ، وسار الزمن ، فجاء الإمام محمد مصطفى المراغى لينشىء الكليات ويكثر المعاهد ، ويرتفع بالمستوى المادى والثقافى بالأزهر والأزهريين ، وما زالت خطوات الإصلاح تتابع حتى أصبح الجامع جامعة تضم خمساً وثلاثين كلية ، وأصبحت القرى ذات معاهد ابتدائية وثانوية ، وتفصيل ذلك مما يتعذر فى هذا النطاق ، ولكنه واضح ملموس لا جدال فيه :

وجامع الأزهر فى ساحته الممتدة يحفل بالوافدين كل لحظة ، إذ تقام فيه الصلوات ، وتشرح للطلاب الدروس المنتظمة فى كلية الدراسات العربية والإسلامية ، وغير المنتظمة لمن يحبون سماع العلم من رجال الوعظ وأئمة المساجد ، وهو بهذه المثابة جامعة رسمية من ناحية ، وجامعة أهلية من ناحية ثانية ، وما تقول فى مكان لا يسكت فيه لسان عن ترتيل قرآن ، ولا تنقطع فيه أذن عن سماع وعظ وتوجيه ..

إن الذى جعل العتيق مثابة   جعل الكنانى المبارك كوثرا
العلم فيه مناهلا ومجانياً   يأتى له النزاع يبغون القرى

يعقوب بن كلس

أول من نظم دروس الأزهر

من يطالع تاريخ الأزهر فى نشأته الأولى يجد اسم الوزير الفاطمى الكبير (يعقوب بن كلس) يتألق بوضوح ، إذ كان من متقدمى علمائه الذين قرءوا العلم فى حلقاته ، كما كان صاحب اليد الأولى فى جعله معهداً علمياً لا يقتصر على العبادة وحدها ، بل رتب له طلاب العلم من التلاميذ ، وأساتذة التوجيه من المدرسين ، حتى أخذ بذلك صبغته العلمية وأصبح حرم الشريعة وحمى اللغة على كر العصور ، والعجيب بعد ذلك أن نجد من الكتاب من يضطرنا إلى المناقشة فيما كتب عن الرجل كأن تاريخه الثابت المتداول غامض مجهول .

قرأت كتاب (مساجد ودول) للسيدة سنية قراعة ، وقد فاز بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨ ، كما صدره السيد وزير الأوقاف الأسبق بكلمة تجمع الثناء عليه وتدعو إلى متابعة التأليف فى موضوعه ، مما يوحى بأهميته وجودته ، ولكنى — والحق يقال — لمست فى بعض فصوله تسرعاً عاجلا ، واستنباطاً بعيداً يدعو إلى إعادة النظر فى مباحثه ، وسأقصر حديث اليوم على ما جاء بشأن الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس ، إذ ظلمته الكاتبة ظلماً لا يستند إلى مرجع تاريخى واحد ، ولكنها عرفت مبدئياً أنه كان يهودياً وأسلم ، فرأت فى يهوديته السابقة ما استعانت به على الاتهام والازدراء ، ولم تقدم مرجعاً واحداً يؤيد رأيها فى الرجل المظلوم ! ولكنه الاستنتاج المتسرع فقط .

وسأنقل هنا بعض ما قالت الكاتبة الفاضلة ، ثم أشفعه بما أرى من النقد والتصويب ، راجياً أن أصل إلى الحق من طريق قريب .

تقول السيدة سنية قراعة فيما قالت ص ١١٥ :

« وعندما هرب اليهودى الحاقد (يعقوب بن كلس) من مصر حتى لا يظفر

به أعداؤه فى بلاط كافور الإخشيدى ، ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت قدره ، لم يكن يبغى إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر ، وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانته ، فيصبح من المتقدمين فى الدولة الجديدة .

لقد وجد اليهودى الطامع فى الدعوة الإمامية بغيته ، وكان نطقه بالشهادة يوم أشهر إسلامه معبراً إلى التمكن والسيادة ، ووسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة ، حتى لقد تمكن وهو حديث العهد بالدين والدعوة من وضع مصنفات فى فقه الشيعة وشتى أهدافها السرية التى لا يصل إلى معرفتها والعلم بها غير أصحاب الحظوة من المقدمين المقربين إلى الإمام .

لقد حالت بعض الظروف المذهبية الخاصة دون يعقوب والظهور فى حلبة الحكم أيام المعز ، وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه ، بل تصاغر وتراجع واعتزل ، واعتبر تلك الفترة فترة استجمام ، ورغبة فى الاستفادة من ذلك الاعتزال بأن راح ينقب ويبحث ويدرس » .

ثم تحدثت المؤلفة بإفاضة عن جهوده التعليمية فى عهد العزيز بالله ، لتخلص منها إلى قولها العجيب ص ١٢٤ :

لقد كان اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام ، ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع ، ما زال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود » .

ومن المؤسف أن الرجل وجد سلاحه البتار فى الدعوة الغامضة ، فأراد أن يشحذه وأن يوجهه إلى أهداف أقرب ، ليصيب ويدمى ويقتل ويشفى غليل العداوة من المسلمين الذين آووه وأكرموه .

وقبل أن نأخذ فى مراجعة هذه الأقوال نذكر أن كتابة التاريخ عسيرة شاقة تستلزم قراءة الصحف الكثيرة من متقدمة ومتأخرة ، ويوجب على صاحبها أن يبنى استنباطه على استقراء تام لما قيل ، فمن التسرع الواضح أن تطرأ على الكاتب فكرة توحى بها مناسبة ما ، فتكون نقطة ارتكاز تمتد وتعظم دون أن تسندها رواية

صحيحة أو حقيقة ناصعة ! وإلا فهل كانت يهودية ابن كلس الأولى كافية عند الكاتبة لأن تلغى من الوجود صحائف أعماله وسجلات مؤلفاته ، وتجعل منه وصولياً حاقداً يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، وإن أجمع على غير ذلك مؤرخو الرجل ، ووقفوا من الكاتبة الفاضلة على النقيض .

نحن نعلم أن كثيراً من اليهود كعبد الله بن سبأ وأشياعه أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، يريدون أن يطفئوا نور الله بما يأتون ويجترمون ، فجاءت أفعالهم المنكرة صارخة بإجرامهم البغيض ، ولم يسكت عنهم أحد ممن يميزون الطيب من الخبيث ، بل وضعت أفعالهم السافرة موضع التعليل والتشريح ، فدمغتهم بالخيانة اللئيمة ، والحقد الشانئ البغيض ، وأجمع المؤرخون على دناءتهم المخزية ، دون أن يجرؤ كاتب على تبرير مسالكهم الشائنة ، ومؤامراتهم المستفظعة ، ولكننا نعلم مع ذلك أن يهودياً كيعقوب بن كلس قد أسلم عن اعتقاد ولم يسلف من الأعمال ما يضعه موضع المؤاخذة من معاصريه مع من تلاهم من الأجيال ، أفيجوز لنا أن نطمس أعماله الرائعة ، وأن نكذب التاريخ فى تسجيل صنائعه الحافلة ؛ لأنه كان يهودى النشأة فقط ! مع أن الإسلام يجب ما قبله كما قال الرسول الكريم ! ! ذلك منطق ساذج نربأ بذوى الأقلام أن يأخذوا به فى قليل أو كثير ، وسنناقش الآن بعض ما ذكرته المؤلفة الأديبة لنرفع عن الوزير المظلوم ما نزل به من حيف شديد ! !

تقول السيدة الفاضلة : « عندما هرب اليهودى الحاقد يعقوب بن كلس من مصر حتى لا يظفر به أعداؤه فى بلاط كافور الإخشيدى ، ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت من قدره ، لم يكن يبغى إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر ، وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانته ، فيصبح من المقدمين فى الدولة الجديدة » .

وظاهر هذا الكلام ، أن الرجل حين هرب إلى المغرب كان يهودياً حاقداً خائناً يخاف ذوى النفوذ فى بلاط كافور ، وهذا غير الواقع ، فقد أسلم الرجل قبل هروبه إلى المغرب بأمد طويل ، إذ أنه كان قبل إسلامه أثيراً لدى كافور الإخشيدى ، تسند إليه وظائف العمارة والجباية والخراج ، فيؤديها بنزاهة بالغة واهتمام كبير ، وكان كافور الإخشيدى عاقلا لا ينخدع ، فلمس من مهارة

يعقوب وإخلاصه ما جعله يقيمه رئيساً لديوانه الخاص ، ثم يبالغ فى الثقة فيأمر أصحاب الدواوين ألا يصرف شيء ما من المال دون توقيع ابن كلس ! !

وإن إنساناً يبلغ هذا المبلغ من نفس الحاكم الألمعى الحصيف وهو بعد يهودى يدين بغير ما يؤمن به السواد من رجال الأمة لذو ألمعية لامعة ، وحيلة ممتازة ، فإذا أعلن إسلامه بعد استعلاء منزلته وبعد صيته ، فهو إسلام البصير المدرك المتيقن ؛ إذ أنه درس قواعد الدين سراً قبل أن يسلم ، وألم بما تتضمنه شريعة الإسلام من عبادات ومعاملات وعقائد على يد أناس متخصصين ، حتى إذا اقتنع بما درس أعلن إسلامه فجأة ، فدخل — كما يقول المؤرخون — جامع عمرو وصلى الصبح فى موكب حافل ، حتى إذا انتهى من صلاته ركب فى موكبه إلى كافور ، فأحسن استقباله وهنأه وخلع عليه ، ثم رتب لنفسه شيوخاً من الفضلاء جعل يقرأ عليهم القرآن والحديث ، ويتعمق معهم فى القراءات والأصول ، وظل على حظوته لدى كافور إلى وفاته سنة ٣٥٦ ﻫ ! !

وكان من الممكن أن تسير حياته هادئة سهلة بعد ذلك ، ولكن الوزير جعفر بن الفرات قد تحرش به ، وأمر باعتقاله طمعاً فى أمواله الكثيرة ، وكانت الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور فى احتضارها الأخير ، تدب فيها جراثيم الفساد والضعف ، وتعصف بأمرائها عوامل الترف والنزق والمجون ، وقد حل الوباء بالبلاد وارتفع الغلاء ارتفاعاً فاحشاً أوجد تذمر العامة بالحاكمين ، ففكر كثير من الوجهاء والأعيان فى الاتصال بالمعز الفاطمى ، لينقذ البلاد مما انحدرت إليه بعد كافور ، وكان يعقوب بن كلس أحد هؤلاء الذين ولوا وجوههم شطر الدولة الفاطمية فراراً من الظلم والعسف ، وتطلعاً إلى عهد جديد ، يؤذن بالاستقرار النسبى بعد القلق والفزع والانحلال ، فلو كان اتصال يعقوب بالمعز خيانة فى رأى الكاتبة ، فلها أن تجعل جميع الذين اتصلوا به ، غير يعقوب من المسلمين والذميين خونة أيضاً ، وهذا ما لم يقل به أحد ، لأن أكثرية الشعب قد قابلت جوهر الصقلى بالترحيب ، ولم تقم حرب ما بين الفاطميين والمصريين عند قدوم الغزاة من القيروان ، ولو أراد يعقوب الخيانة مثلا لوجه إلى البيزنطيين دون الفاطميين ، فهم أثناء هذه الفترة كانوا أعداء المسلمين !

أما الفاطميون فلم يكونوا فى رأى الأكثرية الكاثرة شراً عن الأتراك الإخشيد ، بل كانوا وسيلة الإنقاذ من العنف الجائر مع ما صحبه من الأوبئة المتلاحقة والمجاعات المتتاليات ! !

وأنظر إلى كلام المؤلفة من ناحية ثانية فأقرر أن الرجل لو أخر إسلامه إلى حين اتصاله بالمعز لكان هناك وجه ضعيف لصحة ما قالته من « أنه وجد فى الدعوة الإمامية بغيته ، وكان نطقه بالشهادتين يوم أشهر إسلامه وسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة الفاطمية ! » .

ولكن إسلام الرجل قد تم فى عهد كافور ، والبلاد المصرية حينئذ من الثبات والاستقرار والطمأنينة بحيث لا يفكر أحد فى نجاح حملة ما شرقية أو مغربية توجه إلى مصر ! ! ثم إن ابن كلس قد شفع إسلامه بدراسات أكاديمية جعلته فى صفوف كبار العلماء ، فقد ألف فيما بعد كتباً كثيرة فى الفقه الإسلامى والأديان السماوية ، والقراءات القرآنية وآداب رسول الله ، والحديث النبوى ، وواضح أن هذه الدراسات العميقة المتشعبة لا يضطلع بها غير عالم مخلص يعتنق مذهباً يؤمن به وينافح عنه ، وفرق بعيد بينها وبين دراسات الاستشراق عن الإسلام فى العهد الحاضر ، لأن كتب يعقوب كانت كتب الدولة الرسمية فى العهد الفاطمى ، وقد أقرها أفذاذ العلماء من آل النعمان وهم حملة الفقه الشيعى إلى مصر ، كما أقرها المعز الفاطمى وولده العزيز ، فلو كان بها شبهة مغرضة توحى بفساد عقيدة يعقوب ، وشذوذه عن الدائرة الإسلامية ، ولو فى رأى الفاطميين على الأقل ، ما تبوأت هذه المكانة فى الدولة الجديدة ، بل إن يعقوب كان يعقد مجلساً علمياً يحضره كبار الفقهاء والقضاة والمتكلمين والمتناظرين كل أسبوع ، فيشرع ويفسر ويعترض ويناقش ويستدل بالقرآن والحديث .

والذى يظهر الإسلام ويبطن اليهودية لا يتسنى له أن يجد من المطاوعة النفسية والإخلاص العلمى ما يبوئه صدارة العلماء ، وإمامة الفقهاء دون أن تصدر عنه بادرة ما توحى بانحرافه والتوائه ، بل إن عنايته بنشر العلم بالجامع الأزهر ، وتخصيص طائفة من العلماء للدراسة أولا والتدريس ثانياً مع إجراء النفقات الوافية عليهم كل أسبوع لما يكفل لهم رغد العيش ونعيم الحياة مع الاهتمام الحريص

بجمع الكتب الدينية ونسخها وتذليل طرقها للقراء والمستفيدين وإقامة الدور الخاصة بالمكاتب والوراقة والنسخ ، كل ذلك ينطق باهتمام المؤمن وحرص العالم وكلف الفقيه ، وقد شاع أمره واستفاض حتى لم نجد كاتباً متقدماً جعل من عقيدة الرجل موضع الغمز والتجريح على كثرة من أرخو للوزير فى القديم والحديث كابن منجب الصيرفى وابن خلكان والمقريزى وابن تغرى بردى وسواهم من المؤرخين إلى أن جاءت صاحبة (مساجد ودول) فخرجت علينا برأيها الجديد دون دليل ! .

وكنت أطمع أن تقرأ المؤلفة تاريخ الرجل فى مظانه القريبة كيلا تسجل عليه غير الواقع الأكيد ، فقد ذكرت « أن بعض الظروف المذهبية الخاصة قد حالت بينه وبين الظهور فى حلبة الحكم أيام المعز ، وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه بل تصاغر وتراجع ، واعتبر هذه الفترة فترة استجمام » ، وهذا كله غير الواقع ، فالرجل لم يتضاءل ولم يتصاغر فى عهد المعز ، بل أسندت إليه كبريات المهام من سياسية ومالية وعلمية ، فقد كان القيم الأول على شئون الخراج والحسبة ، والمستشار المفضل فى أمور السياسة والتعمير والإنشاء ، والعالم المصنف المشرع ! إذ بدأ فى إصدار مدونته الفقهية ، وقد سميت فيما بعد بالرسالة الوزيرية ، ويقولون عنها إنها تبلغ نصف حجم البخارى ، وتشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية ، وقد تبرع الرجل فذكر أنه نقل أحكامها مما سمعه من دروس المعز لدين الله ، وهو قول يزيد فى قيمة الرسالة وجلالتها الشرعية والسياسية دون أن تكون له حقيقته المسلمة ، إذ لا يعقل أن المعز كان ممليا ، وابن كلس مجرد كاتب ، ولو كان الأمر كذلك لأسندت الرسالة مباشرة إلى المعز ، ولعل ما اشتهر عن العلماء من نسبة كتبهم حيناً أو إهدائها أحياناً إلى الرؤساء كان عاملا فى تقرير هذه النسبة إلى المعز ، ومن يدرى فلعل المعز تكلم فى بعض المسائل الدينية ، فحرص يعقوب على تدوينها والتعليق عليها ، وضم المتشابهات من المسائل والفروع والأبواب لها ، ثم جعل من ذلك كله ما نسبه إلى علم الخليفة وتوجيهه .

فالرجل إذن كان صاحب المكانة المرموقة فى عهد المعز دون أن يجد ما يضطره

إلى الاعتزال والتراجع ، والمطلع على تاريخ الفاطميين بمصر يعرف أن منصب الوزارة لم يوجد إلا فى عهد العزيز بالله ، وقد كان يعقوب أول من تقلده ولقب حينئذ بالوزير الأجل . وإذن فقد أسندت إليه أعمال الوزير فى عهد المعز دون لقبه الذى لم يوجد بعد ، حتى إذا وجد فى عهد العزيز أسند إليه قبل سواه ، ويهمنا هنا أن نعلن ما ذكره الأستاذ البحاثة محمد عبد الله عنان ، وهو حجة فى التاريخ الفاطمى ، بشأن هذه الحقيقة الواضحة نقلا عن مجلة الرسالة العدد ١٣٦ فى ١٠/ ٢ / ٣٦ ، حيث يقـول مستنداً إلى أمهات المراجع المعتمدة :

« ولما قدم المعز إلى مصر بأهله وأمواله وجيوشه فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ قدم معه ابن كلس ، وقلده المعز شئون الخراج ، والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشئون المالية الأخرى ، فأبدى فى إدارتها وتنظيمها براعة ، وزاد الدخل زيادة واضحة ، ثم عهد إليه المعز بشئون (قصره) الخاص » . فكيف تسترسل الكاتبة بخيالها فى معرض التاريخ لتصور من ابتكارها الخاص مسألة التصاغر والتراجع والاعتزال ، ثم تبنى على ذلك ما تفترضه فى الرجل الكبير من خيانة وخداع !

على أن أعجب ما قرأته للمؤلفة هو قولها :

« إن اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع ما زال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود » . ولو كان الرجل من أشد الناس عداوة للمؤمنين حقاً ما كانت مؤلفاته الدينية الكثيرة المرجع الأول لدولة إسلامية فتية تجمع عشرات الفقهاء . والقضاة من ذوى البصر النفاذ ، وقد درسوها باهتمام وناقشوا الرجل فى أكثر مسائلها على رءوس الأشهاد فما وجدوا بها ما يعاب ، بل لو كان الرجل كذلك ما رتب فى قصره الخاص عشرات العلماء والفقهاء والقضاة للدراسة العلمية الخالصة ، ثم أجرى عليهم الأرزاق من جيبه الخاص وحدّد لهم يوماً خاصاً فى الأسبوع للنقاش ولمطارحة الحجاج .

هذا إلى ما سبقت الإشارة إليه من صلته بجماعة من الفقهاء بالأزهر وبناء الأروقة الخاصة بهم وتوجيه العزيز إلى رعايتهم وتقديمهم وحمل الناس على

احترامهم وتعظيمهم ، مع تخصيص جانب كبير من قصره لجماعة من الكتاب ينسخون القرآن والحديث وكتب الفقه والطب ! !

أما اهتمامه بالجامع الأزهر وجامع الحاكم ومسجد عمرو ، فمما يضاف إلى سجله الديني الحفيل ، وقد روى المؤرخون أن الوزير حين مرض مرض الموت زاره الخليفة العزيز بنفسه ، وقال له في تأثر : وددت لو أنك تباع فأشتريك بملكي أو تفتدى فأفتديك بولدي فهل من حاجة توصي بها ؟

فبكى ابن كلس وقبل يده وجعلها على عينه ، ثم أوصى العزيز بعدة وصايا هامة كانت موضع تقديره ، وحين مات جزع عليه الخليفة ودفنه في قبة كان قد أمر ببنائها لنفسه ، وآثر بها وزيره العزيز ، ثم أصدر أمره بإغلاق الدواوين عدة أيام حداداً عليه ، وشيع تشييعاً لم تعرفه مصر آنذاك لوزير كبير حتى رثاه مائة شاعر بمائة رثاء ! !

فليت شعري أتكون هذه المكانة لخائن مضطغن حقود يخفى نياته الخبيثة عن جميع رجال عصره ومن تلاهم من الباحثين حتى تعرفها المؤلفة الفاضلة توهماً دون دليل :

إن الطريقة الطبيعية لكتابة التاريخ أن تستقرئ مراجعه الكبيرة ، ثم توازن وتنقد وتفسر ، أما أن تتوهم فتجرم ، ثم تؤرخ فتلك طريقة تحتاج إلى تعديل .

درس فى تفسير القرآن بالأزهر

يحضره جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله

مجالس العلم التى يشهدها العلية من الملوك والرؤساء فى جاحة إلى تدوين لأنها فى كثيرها الغالب تضم أغلى الثمار الفكرية ، إذ يتصدر للخوض فى دقائقها الغزيرة أكبر العلماء الرسميين فى عصره ، وكان السلف من مدونى أخبار الخلفاء والملوك يحرصون على تسجيل فرائد مختارة من درر هذه المجالس ، ولكن مؤرخى اليوم لا يكادون يفسحون لها بعض الصفحات فيما يكتبون ، وهى بعد ما هى !

وسأعرض اليوم للحديث عن مشهد علمى باهر حضره ملك عظيم من ملوك الشرق والإسلام ، وتكلم فيه شيخ الأزهر بالمسجد الجامع فى مشهد زاخر جمع الصفوة المختارة من رجال السياسة والعلم والأدب ، وكان المجلس من جلالة الوقار واكتمال الهيبة وعظمة الخشوع ودسامة المادة ومنزلة السامعين بالمحل الأرفع بين مجالس العلم ، ولا نكاد نشهد نظيره إلا على أبعاد مترامية فى الزمن بحيث يصبح حديث الناس جميعاً يتلهفون على حضوره قبل انعقاده ؛ يستعيدون أنباءه حين يصبح ذكرى فى ضمير الزمن ، ويا لها من ذكرى تجمع العلم والأدب والشرف وتعبق على الناس بأنفس الطيوب ، وأطيب العبير !

لقد زار عاهل المملكة العربية السعودية المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فى أوائل صفر سنة ١٣٦٥ هـ الديار المصرية ، فخرجت الأمة لاستقباله حكومة وشعباً وأقيمت لمقدمه الزينات المتلألئة ابتهاجاً بمقدم بطل إسلامى عمل على حراسة مقدسات الدين الإسلامى وإقامة شرعه ووطد الأمن ومهد الراحة فى بلاد يقدسها المسلمون ، وتهوى إليها أفئدتهم الظامئة فى اشتياق وحنين .

وقد خف رئيس الدولة المصرية ووزراء حكومته ، وعلية دولته ، إلى مدينة السويس لاستقبال الزائر العظيم ، مع رفقته الكرام من أهل بيته ورجال مملكته ، فكانت لحظات سعيدة ، خلدت وحدة الإسلام وعزة العرب أجمل تخليد ، وأقيم سرادق فخم بالسويس أمته طوائف الشعب المصرى سعيدة برؤية الزائر الكبير محوطاً بأصحاب السمو من أنجاله وإخوته وأفراد حاشيته ، ثم حان موعد الذهاب إلى القاهرة ، فنهض العاهل إلى القطار الملكى الخاص بين دوى المدافع وهتاف المرحبين ، وقد وصفت الصحف المصرية جميعها ما كان من روعة الاستقبال وصفاً يجب أن يكون مصدراً من مصادر التاريخ الأخوى الوثيق بين مصر والسعودية ، فوصفت كيف أخذ القطار السعيد يمر على القرى قرية قرية ليجد مئات المحتشدين ، يرحبون هاتفين ، حتى وصل إلى محطة الإسماعيلية ، فرأى الضيوف من زحام الحشود ، وروعة المتدافعين ، ما فاق كل وصف ، ثم تابع القطار سيره إلى الزقازيق ، وقد حانت صلاة الظهر فهب الجميع لأدائها جماعة فى خشوع مهيب ، وأخذ القطار يتابع مروره على المحطات الرئيسية ، وفى كل مدينة حشود وأعلام وهتاف .

ولا تسل عن لحظات الوصول إلى القاهرة ، فقد كانت من أمتع مشاهد الاحتفاء بما وضع من نظام ، وتدفق من أناس ، وظهر من حب وإجلال ، حتى استقر الركب بعابدين ، وأقيمت حفلة اللقاء الرسمى ، مليئة بالعلماء والسفراء والوزراء ، فى يوم مجموع له الناس ، وقد أنشد فيها شاعر الأقطار العربية خليل مطران قصيدة من عيون شعره ، وتابعه شاعر الأزهر الأستاذ محمد الأسمر فأنشد قصيدة أخرى فى استقبال الضيف الكبير ، كما أذكر أن شاعر السعودية الأستاذ الكبير أحمد بن إبراهيم الغزاوى قد نشر بجريدة الأهرام قصيدة رائعة تستاهم جلال هذا المشهد الأخوى الرائع بين البلدين الشقيقين ، وكل ذلك مدون محفوظ ، فأين المحللون ؟

ليس هدفنا فى هذا الباب أن نتابع وصف هذه الزيارة ، ولكننا نمهد للحديث عن مجلس علمى رائع ، شهده جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بساحة الجامع الأزهر الشريف حيث توجه بموكبه الحافل إلى صلاة الجمعة مع رئيس الدولة المصرية وكبار رجال السياسة والفكر والدين .

وقد قدر لى أن أكون أحد شهود هـذا المشهد العلمى الوقور ، إذ كنت حينئذ طالباً بكلية اللغة العربية ، وقد هرعت إلى المسجد قبل الموعد بزمن طويل لأجد مكاناً يضمنى بين آلاف الحشود المتقاطرة ، فما استعطت الحصول على موضعى إلا بعناء طال مداه ، واشتدت حيرته ! فلله ماذا يصنع القادمون بعدى ، وقد بكرت فما استطعت الجلوس إلا بعناء أى عناء !

* * *

لقد كان من المقرر أن يصل الركب الملكى قبل ميعاد الخطبة بساعة كاملة ليستمع الحاضرون إلى درس من دروس التفسير القرآنى يلقيه فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر رضى الله عنه ، وكان درساً فريداً فى منحاه ، فريداً فى مزاياه ، فريداً فى مرماه ، وقد حاز إعجاب الصفوة من ذوى الفكر العالى ، ولكنه ارتفع عن مستوى بعض العامة ممن يحسبون دروس العلماء للملوك خطابة منبرية ذات شقشقة وصليل ! فماذا قال الشيخ وفى أى اتجاه سار ؟

كان الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق ذا نزعة فكرية سامية تجنح به إلى معالى الأمور فى كل مسلك من مسالك حياته العلمية والعملية معاً ، وقد صاحبته هـذه النزعة المحمودة حين اختار قول الله عز وجل : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

والطرافة النادرة فى هذا الاختيار أنه لم يقدم تفسيراً من إنشائه الخاص ، وما أيسره عليه لو أراد ، ولكنه شاء أن يقـدم مجلساً مأثوراً فى تفسير هـذه الآية قام بإعداد مادته العالم الشهير جلال الدين السيوطى فى منتصف القرن التاسع الهجرى ، وقد ألقاه الجلال فى مشهد حافل بجامع شيخون حضره كبار العلماء وأئمة الفقهاء والقضاة فى زمنه برئاسة شيخ الإسلام حينئذ (علم الدين البلقينى) وقد مهد له الشيخ مصطفى عبد الرزاق بمقدمة قال فيها :

« لقد رأيت من المناسب لهذه الفرصة السعيدة أن أحيى أثراً كان مفقوداً (لأن النص كان مخطوطاً فى نسخة واحدة عثر عليها الشيخ الأكبر ، من آثار عالم

أزهرى جليل له فى خدمة العلوم الإسلامية نصيب موفور ، ومن يمن الطالع أن هذا الدرس فى تفسير آية كريمة وعد الله فيها نبيه فتحاً مبيناً ونصراً عزيزاً ، وهذا التصدير على صغر حجمه يفيد الباحثين فى تطور الدراسات الإسلامية وأساليبها ، وفى الطرق التى كانت تعتمد عليها مدارس المسلمين فى إجازة طلابها وتخريجهم » : اهـ :

وقبل أن يقدم الشيخ الأكبر نص الجلال السيوطى مهد له بتلخيص دقيق يضم جميع عناصره العلمية خالصة من تشابك الجدل العلمى وتعقيد الاعتراض النظرى، فألقى بذلك ضوءاً ساطعاً على ما سيذيعه من نصوص الجلال ، ومن الطريف مرة ثانية أن الجلال بدأ درسه بمقدمة جليلة استعارها من كلام الإمام الشافعى فى الرسالة ، فكانت براعة استهلال تفوق الوصف لدى الدارسين المتأملين ، وكأن السامعين قد ألموا فى درس واحد بثلاثة أشياء جيدة هى مقدمة الإمام الشافعى ، وتفسير الجلال السيوطى ، وتصدير فضيلة شيخ الأزهر ، ويالها من فوائد باهرة تمثل عصوراً مختلفة وعقولا متميزة ، وقد قدمت فيما لا يزيد على ساعة واحدة ، وهى ساعة مباركة حقاً ! إذ حفلت بكل رائع ممتاز !

* * *

بدأ السيوطى تفسيره بذكر المراجع التى اعتمد عليها فقال : إنى طالعت الكشاف وتفسير الإمام الرازى ، وتفسير ابن العربى ، والبحر لأبى حيان ، وأسباب النزول للواحدى ، وتفسير السجاوندى ، وينبوع الحياة لابن ظفر ، والصحاح للجوهرى ، ثم بدأ الدرس بمقدمة الشافعى للرسالة ، ثم صلى على الرسول وآله ، وترضى عن الصحابة والأئمة ، منتقلا إلى النص القرآنى من مقدمة سورة الفتح ، فحدد مناطق البحث قائلا :

« الكلام على هذه الآية من جهات ، الأولى : سبب النزول ومكانه وزمنه ، الثانية : علم اللغة ، الثالثة : علم الإعراب ، الرابعة : علم المعانى ، الخامسة : علم التفسير .. » .

وإذا كان لى من تعليق على منهج السيوطى فإنى أذكر أنه كان متمشياً مع أحدث المناهج العلمية المعاصرة ، حين بدأ بذكر المراجع ، ثم ثنى بتحديد عناصر

البحث ، فهو لم يسر فى تيهاء مبهمة ، تتقاذفه الشعاب ، ولكنه أقام المعالم وحدد الاتجاه ، فأمن العثار .

وفى الحديث عن سبب النزول نقل قول الواحدى عن ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى : « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » قال المشركون : كيف ندخل فى دينك وأنت لا تدرى ما يفعل بك ، فنزل قول الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله » ، ثم حدد موضع نزول الآية بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية ، مستنداً إلى قول أنس بن مالك ..

ولم يسهب المفسر فى هذا العنصر ، بل تجاوزه سريعاً إلى ما يتعلق باللغة ، إذ سرد معانى مختلفة للفتح ، مستشهداً على كل معنى بنص صريح ، فالفتح يطلق على النصر ، وعلى الحكم ، وعلى الماء يجرى من عين أو غيرها ، والمبين : من أبان الشىء أى أوضحه أو استبان أى ظهر ، والبيان : الفصاحة ، ومبين : اسم ماء ، والمغفرة : من الغفر ، وهو الستر ، ومن غفرت المتاع ، أى جعلته فى الوعاء ، وقد توسع بعض الشىء فى هذه المادة ، ثم تعرض إلى معانى النعمة والهداية والصراط والاستقامة والنصر ، بما يرجع إليه دون حاجة إلى تدوينه ، وكان مشبعاً كل الإشباع حين تحدث عن الهدى فى قوله تعالى : « ويهديك صراطاً مستقيماً » ، حيث قال : الهدى يطلق على أمور :

أحدها : خلق الاهتداء ، ومنه : « إنك لا تهدى من أحببت » .

الثانى : الدلالة بلطف ، ومنه : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

الثالث : التقدم ، ومنه : (هوادى الخيل تقدمها) .

الرابع : التبيين ، ومنه : « وأما ثمود فهديناهم » كذا قيل ، (قال السيوطى) ويظهر لى أن هذا متحد مع الثانى .

الخامس : الإلهام ، ومنه : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

السادس : الدعاء ، ومنه : « ولكل قوم هاد » أى داع .

* * *

أما ما يتعلق بالإعراب فقد تحدث المفسر عن معنى اللام فى قوله تعالى : « ليغفر لك الله .. » ، فنقل عن الكشاف أنها للتعليل متسائلا عن جعل فتح مكة علة للمغفرة ، ومعقباً بإضافة علل أخرى للغفران ، مثل إتمام النعمة والهداية

للصراط والنصر ، ثم عرج على رأى من قال إن اللام للعاقبة ، شارحاً وجهة نظره ، كما ذكر رأياً يقول إنها للقسم معترضاً عليه باعتراض ظاهر جلى ، ومن العجيب أن أبا حيان قد تمحل لصحته أقوالا ضعيفة التوجيه ، وقد ذكرها الشيخ فى درسه معقباً عليها بتوهينها القاطع ، فأنت هنا تسمع آراء الزمخشرى والفخر الرازى وأبى حيان فى وضوح ساطع يمنع الالتباس .

وحين انتقل إلى الكلام عن المعانى أجاد فى عرض دقائق بلاغية تتطلب التأمل ، فتحدث عن الالتفات البلاغى فى صدر الآية ، مفصلا مكانته العلمية مع دقة التحديد ، ولطف الإيجاز ، كما وضح إسناد العزة إلى النصر فى قول الله عز وجل : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » ، فذكر مجازه ، إذ العزيز حقيقة هو المنصور ، ثم بين السر البلاغى فى إعادة لفظ الجلالة فى « وينصرك الله » إذ تضمنت الآية بعداً واضحاً عما عطف عليه ، وليكون المبدأ مسنداً إلى الاسم الظاهر وكذلك المنتهى .

وظاهر أن كل هذه المعانى تتطلب من يقظة الذهن ، وسرعة التدبر ما يسهل الإلمام بها دون استعادة ، ولعل هذه أصعب مناطق الدرس ، لأن الجلال قد انتقل بعد ذلك إلى ما يتعلق بالتفسير ، فشرح المراد بالفتح فى الآية ، أهو فتح مكة كما اختاره الرازى وأبو حيان ، أم صلح الحديبية كما قال غيرهما ، أم فتح خيبر كما قال مجاهد ، أم فتح الله بالإسلام والنبوّة والدعوة كما قال الضحاك ، أم الوعد بدخول مكة من قابل للطواف ، وقد كان ، وكل من هذه الخمسة محتمل وإن رجح بعضها بعضاً ، فإذا ترك تفسير الفتح إلى قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فقد أبان رأى ابن عباس فى أن المراد ما تقدم قبل النبوة وما تأخر بعدها ، وألمع إلى من قال ما وقع وما لم يقع ، وهو قريب من الأول إن لم يكن عينه ، ولا أدرى لم أتى به كرأى جديد ، كما ذكر رأى سفيان ، فى أن ما تأخر هو ما لا يعلمه ، ورأى من قال : إنه تأكيد للمبالغة كما تقول : أحبك من عرفك ومن لم يعرفك ، ثم انتقل إلى قوله : « ويتم نعمته عليك » موضحاً المراد بالنعمة ، أهى النبوة ، أم الحكمة ، أم فتح مكة وما بعدها أو دخول الجنة ؟ وكل ذلك محتمل .

أما التفسير الإشارى فلم يذكره الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، وحسناً فعل ،

لأن جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله كان لا يميل إليه وهو بعد اجتهاد شخصى مرجعه الذوق الخاص ولا تجد مستنده من دليل صريح أو نص صحيح ، ولعل النسخة المخطوطة التى وقعت للأستاذ الأكبر كانت خالية منه .

وإذا كانت مسائل هذا الدرس الدسم فى حاجة إلى بسط شاف ، فإن مما سهل استيعابها على آلاف السامعين وفيهم خاصة الخاصة ، وعامة العامة ، هو ما تقدم به الشيخ الأكبر من تصدير كاشف ينقل لغة العصر المماوكى إلى طريقة العصر الحديث ، محتفظاً بدسم المادة وإيجاز التأويل .

* * *

هذا ملخص موجز لحقائق ذلك الدرس التاريخى الحافل ، وقد نقلته محطات الإذاعة إلى آلاف المستمعين فى مختلف ديار الإسلام ، وخرجت الصحف اليومية بالقاهرة تحمل شذرات منه ، وتنقل صوراً شمسية كثيرة للمستمعين وفى طليعتهم رجال الحكم وشيوخ العلم مما كان له صداه المجلجل حينئذ فى شتى الربوع .

ولعل من الأوفق أن أختم المقال بهذه المقدمة الدقيقة التى افتتح بها الإمام الشافعى كتابه ثم اختارها الجلال مستهلا لدراسه ، ليخرج القارئ باستفادة شافية تحوى لباب ما قيل ، وناهيك بالشافعى قوة إيمان ودقة بيان ، قال رحمه الله :

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

الحمد لله الذى لايؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدى ماضى نعمه بأدائها ، نعمة حادثة يجب عليه شكره بها ، ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته ، فهو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه ، أحمده حمداً كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ، وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به ، وأستهديه بهداه الذى لا يضل من أنعم به عليه ، وأستغفره لما أزلفت وأخرت ، استغفار من يقر بعبوديته ويعلم أنه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله كما صلى على إبراهيم وآل إبراهيم إنه حميد مجيد » .

وبعد : فما أجدرنا أن نختم حديثنا عن هذا المشهد الحافل بقول القائل :

وذكرنى حسن الزمان وطيبه مجالس قوم يملأون المجالسا !

الفهـــرس

● ظهر من هذه السلسلة حتى الآن ●

١ — الانتماء فى ظل التشريع الإسلامى : للدكتور عبد الله مبروك النجار
٢ — السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة : للدكتور عبد المهدى عبد القادر
٣ — وباء الفتنة والتعصب وعلاجه فى التوراة والإنجيل والقرآن :
للأستاذ السيد إبراهيم سليم
٤ — سعادة الأمة فى العمل بالكتاب والسنة : (كبار علماء الجمعية الشرعية)
٥ — المنهاج الكامل فى بناء المسلم المعاصر : للدكتور فؤاد على مخيمر
٦ — الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة والمدينة : للأستاذ محمد مهدى عامر
٧ — أهمية الصلاة فى حياة المسلم : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله
٨ — فى ميزان الإسلام (الجزء الأول) : للدكتور محمد رجب البيومى
٩ — أم المؤمنين زينب بنت جحش : للدكتور محمد طلعت أبو صير
١٠ — فى ميزان الإسلام (الجزء الثانى) : للدكتور محمد رجب البيومى
١١ — قبسات من نور الرسالة : للدكتور محمد أحمد على سحلول
١٢ — أخلاقنـــا : للدكتور محمد ربيع جوهرى
١٣ — التوازن النفسى والاجتماعى فى الإسلام : للأستاذ رمضان الحسنين جمعه
١٤ — الرسول صلى الله عليه وسلم فى رمضان : للدكتور محمد سيد أحمد المسير
١٥ — الدوائر الدعائية المعادية للإسلام : للأستاذ حسن على
١٦ — الرسول صلى الله عليه وسلم — نشأته ودعوته :
للدكتور إبراهيم على أبو الخشب
١٧ — لكى تعود خير أمة : للدكتور السيد رزق الطويل
١٨ — القرآن يتحدث عن محمد عليه الصلاة والسلام :
للدكتور محمد أحمد على سحلول
١٩ — منهاج الله فى هداية البشر : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٢٠ — نحو منهج إسلامى فى الفكر الإدارى : للأستاذ أحمد عبد العظيم .

• تحت الطبع •

٢١ – مجالس العلم فى حرم المسجد : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٢ – الإسلام وأهمية التيامن : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٢٣ – منهج القرآن فى تربية الإنسان : للدكتور محمد عثمان خيمر .
٢٤ – نساء خالدات : للأستاذ مأمون يس عبد الله .
٢٥ – التفسير القرآنى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٦ – الصلاة فى القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٢٧ – من فيض القرآن : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
٢٨ – الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج : للدكتور السيد رزق الطويل .
٢٩ – الإنسان بين المسئولية والتكريم : للدكتور أبو اليزيد العجمى .
٣٠ – الرسول صلى الله عليه وسلم حول الكعبة : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٣١ – موسى واليهود : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٣٢ – ردود إسلامية فى قضايا معاصرة : للدكتور إبراهيم عوضين .
٣٣ – من منطلق إسلامى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٣٤ – الإسلام دعوة الحق : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٥ – فى المحيط الإسلامى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٣٦ – الفتنة المعاصرة وموقف المسلمين منها : للدكتور فؤاد مخيمر .
٣٧ – صفحات هادفة من التاريخ الإسلامى : للدكتور رجب البيومى .
٣٨ – الرسول صلى الله عليه وسلم والوحى : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .

رقم الإيداع : ١٩٨٨/٤٧٥٤
الترقيم الدولى : ٦ – ١٩٢ – ١٦٣ – ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



المؤلف

د. محمد رجب البيومى

هــذا الكتاب

كثر الحديث عن المساجد من الناحية المعمارية ، والوضع الزخرفى ذو الهندسة الفنيّة الممتازة ، ولكن النشاط العلمى للمساجد لم يجد من يخصه بتفصيل شاف ، فجاء هذا الكتاب ليضع لبنة فى هذا الصرح العلمى الوطيد .

وسيجد القارئ كيف واكب المسجد النهضة العلمية فى الإسلام منذ نهض أول مسجد أسس على التقوى بالمدينة ، وتبعته مئات المساجد فى كل بقاع الإسلام على مدّ العصور الزاهية حتى يومنا هذا ، فصار لبيت الله تاريخ ثقافي ، حافل يزهى بعلمائه وطلّابه وكتبه ومؤلفاته ، فى أماكن طاهرة ، أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وينتشر بها فقه القرآن وأدب العربيّة وعلم الحديث .

وإذا كانت المدارس العلميـة قد نشأت فى كنف المساجد ، فقد خصّها هذا الكتاب بتاريخ يوضح هذه النشأة ، كما تحدث عن خطيب المسجد ، ومدرّس الحلقة ، وقاصّ التاريخ ، وواعظ الجمع ، ضاربًا الأمثلة العليا لكلّ فريق من هؤلاء ، ليسير الخلف فى ضوء السلف الكريم ، وقد صيغ ذلك كله بأسلوب واضح مبسط ، ليجد هذا التاريخ العلمى طريقه الممهد إلى النفوس فى يُسر رشيد .

مراجعة هيئة كبار علماء

الجمعية الشرعية الرئيسية

لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية